ترجمات

وجيه غالي

بيرة في نادي البلياردو

رواية

ترجمة : هناء نصير

فكرة

وجيه غالي

بيرة في نادي البلياردو

ترجمة هناء نصير

الجزء الأول

"وفـي المقابل، نرنو إلـي أن نصبح شخوصاً روائية."

ديستوفسكي

أخذت أراقب خالتي توقع الأوراق: ثلاثمائة ورقة أو يزيد مرتبة في رزمة. يعطيها سكرتيرها الواقف خلفها الواحدة منها لتوقعها، ثم يضعها علي الرزمة الأخرى الموقعة. يبدو أنني قد فعلت شيئاً أزعجها، فقد ألقت بنظرة ناحيتي بينما هي مستمرة في التوقيع.

كان كل توقيع لخالتي يعني ببساطة تخليها عن ثلاثة أفدنة من الأرض لأحد الفلاحين_ والأرض تساوي الكثير من المال في بلدنا. وقد يظهر اسمها في الصحف غداً لكرمها ولطفها تجاه الفلاحين الفقراء.

أردت أن أشعل سيجارة، ولكن لم يكن معي ثقاب. وضعت السيجارة في فمي وحاولت أن ألفت نظر السكرتير ليعيرني ثقاباً، لكنه لم ينتبه. انتظرت قليلاً، استجمعت شجاعتي، وقررت أن أنتظر قليلاً حتى تنتهي خالتي من التوقيع بتنازلها عما يساوي عشرة آلاف جنيه قبل أن أطلب عود الثقاب ذلك. واحد. . . اثنين. . . ثلاثة. . . أربعة. . . . حوالي خمسة آلاف، خمسة. . . ستة. . . سبعة. "هل لي بثقاب يا حسن أفندي؟"

لم تسمعني خالتي، وكذلك لم يسمعني حسن أفندي. لم يلتفت حتى. هناك علي المنضدة توجد قداحة "رونسن" كبيرة علي شكل مصباح علاء الدين. تقدمت ناحية المنضدة. خطوة واحدة أوصلتني إليها، ثم أصبحت القداحة بين يدي. تك تك. لم تكن تعمل. تمتمت خالتي بضع كلمات لحسن أفندي، فمد يده في جيبه وأخرج صندوقاً جديداً من أعواد الثقاب وأعطاني إياه.

نظرت إلي الساعة: التاسعة وعشرون دقيقة. فقط عشر دقائق بعد، وينقضي علي حضوري ساعة ونصف الساعة. واصلت التدخين بينما الرزمة الموقعة تزيد علي حساب الأخرى غير الموقعة. بقي في تقديري خمسون ورقة لم توقع بعد. لابد أنها تشعر بالتعب الآن، المسكينة؛ توقع علي ألف ورقة يومياً لليوم الثالث علي التوالي. شعرت بالتعاطف معها، فلديها عشرة آلاف فدان ترعاها. ولكن لحسن الحظ، حددت الحكومة الجديدة ملكيتها بمائتي فدان فقط. تذكرت أنها أعطتني مرة في أوربا ورقة بخمسة جنيهات!

وفي هذه اللحظة دخلت ماري. وماري صديقة طيبة

للعائلة، تساعد هنا وهناك في حفلات الاستقبال، دائماً حاضرة في أوقات المرض، دائماً ما تتذكر أعياد الميلاد. هي لا تتذكر تاريخ ميلادي أو تاريخ ميلاد أمي، ولكننا لم نخبرها كذلك!

قالت ماري وهي تجلس إلي جانبي: "أهلاً رام. ما الذي تفعله هنا؟"

"أتيت لكي أقترض بعض المال."

لم تقل شيئاً، فهي ثرية هي الأخرى. في موقف مثل موقفي ينبغي علي المرء أن يفصح عما يريد منذ البداية، خاصة إلي من يمتلكون المال، فذلك يجعلهم يتحزبون.

للحق لقد شعرت بالأسف تجاه ماري. فهي تريد بشدة أن تحادثني، أن تخبرني أنها تتمني أن أحصل علي المال. وتريد خاصة أن تسألني عما سأفعل به. لكن وضعها حساس، فلم يمر يومان علي شرائها الكاديلاك الجديدة تلك، وسيكون من الفجاجة التحدث بشأن المال الآن. ألقيت عليها نظرة وابتسمت.

" كيف حال والدتك؟" سألتني ماري.

" مريضة للغاية." كنت أكذب.

وكان هذا كفيلاً بإسكاتها لعشر دقائق أخرى علي الأقل. فقد كان أغلب اهتمامي منصباً علي خالتي التي مازالت توقع علي الأوراق. كنت أعتقد أنه بما أنها تتنازل عن أرض بقيمة مليون جنيه لأناس لا تعرفهم، فيجدر بها أن تعطيني ألف جنيه أنا الآخر، خاصة إذا ما ألمحت إلي أنني سأغادر البلاد إذا كان هذا المبلغ بحوزتي.

نظرت إلي خالتي، ثم إلي الساعة، ثم إلي ماري وقلت لها: "أهلاً ماري. تبدين علي خير ما يرام. كيف حال سيارتك الجديدة؟"

نظرت إلي برقة وقالت: "كم أنت لطيف يا عزيزي! السيارة لا بأس بها. فالسيارة القديمة كانت تكلفني الكثير من المال لأجل الوقود، مما اضطرني لشراء غيرها. فأنا لم أعد قادرة علي تحمل نفقاتها."

حركة طفيفة علي المكتب المجاور أنبأتني أن التوقيع قد انتهي لهذا اليوم.

" آه، ماري." قالت خالتي، "لم ألحظ دخولك. أوف! لقد

سئمت من كل هذه التوقيعات. لابد أنك متعب أيضاً يا حسن أفندي. ولكن هذا أقل ما نفعله لهؤلاء الفلاحين الملاعين." جيد. حاولت أن أبدو فلاحاً بقدر المستطاع .

"انتظريني يا ماري فسوف أعود بعد لحظات." خرجت خالتي من الحجرة، وتبعها حسن أفندي حاملاً ألف ورقة تساوي قيمتها مليون جنيه، أو أقل بقليل. فهي تبيع الأرض بسعر منخفض مدعية أمام الحكومة أنها تتنازل عنها بالمجان للفلاحين الفقراء.

"أهلاً يا ماري." قلت لها مجدداً.

سألتني: "أخبرني هل تعمل الآن؟"

قلت لها إنني وجدت طريقة فريدة لاستغلال الفلاحين، ولكن ينقصني رأس المال.

ردت: "لا ينبغي لك أن تمزح في هذه الأمور يا عزيزي."

عادت خالتي إلي الغرفة معلنة أن رغيف الخبز قد زاد سعره خمسة قروش. أثر ذلك فيهما بشدة لأن كلتيهما تشتري الخبز يومياً. حاولت أن أكون مفيداً وأخفف عنهما، فقلت لهما إنني أعرف مخبزاً يبيع الخبز بالجملة حسب الوزن. ثم

أخبرتهما أن بإمكانهما تسخين الخبز البائت، ولكني لم أخلص إلي نتيجة في محاولة تحديد ما تستطيعان توفيره بعد خصم كلفة الكيروسين المستخدم في التسخين. وكنت علي وشك إخبارهما كيف تستطيعان التهرب من المحصل بالقفز من ترام العباسية، لكنني عدلت عن ذلك. ثم خرجت من الحجرة للحظة، وألصقت أذني بثقب الباب.

"كوني علي حذر، " قالت ماري محذرة خالتي، "فقد جاء لاقتراض النقود."

"أعرف يا عزيزتي، ولذلك اتصلت بك. فهو لن يجرؤ علي طلب المال في حضورك".

غادرت منزل خالتي إلي جروبي. أخذت أتناول الويسكي والفول السوداني وأراقب الجمع المثير المحيط بي، شاعراً براحة لأن خالتي رفضت إقراضي المال. حسناً، لقد سألتها إقراضي المال فقط لأنني شعرت بأن ضميري يلح علي لفعل ذلك. لقد كان ذلك شيئاً ينبغي علي فعله، ولكنني أخذت أرجئه. بعد فترة حضر عمر وجميل، عقبهما يحي، ثم فوزي

وإسماعيل. جروبي هو ربما أجمل مكان لشرب الويسكي. البار يقع تحت شجرة ضخمة في الحديقة، ويقوم بتقديم المشروبات نادل أسود وسيم يتحدث سبع لغات. تشاركنا جميعاً في شرب زجاجة ويسكي، وأخذت أراقبهم يتنافسون علي دفع ثمن الزجاجة. فاز يحي، ودفع ثمنها. غادرنا جروبي معاً، وكان كل منهم يمتلك سيارة.

دائماً ما أشعر بملل في فترة الصباح، لأنهم جميعاً يتواجدون إما في العمل أو في الجامعة. أحياناً أذهب لنادي البلياردو لألعب مباراة مع جميل. فهو متواجد هناك طول الوقت. هو يملك النادي، في الواقع. ويمكنني الذهاب كلما شئت، لولا وجود فونت. حسناً، كلما وبخت نفسي لإفراطي في شرب الخمر، ألقيت باللوم علي فونت. أقول لنفسي "إن فونت هو الذي يدفعني لشرب الخمر."

سألته ذات مرة: "أخبرني ماذا تريدني أن أفعل بالضبط يا فونت."

فرد علي: "واصل الهرب، أيها الحثالة." لذا ذهبت إلي جروبي وواصلت السكر. علي الرغم من كوني لازلت أقرأ

"النيو ستاتس مان" و"الجارديان"، وربما تكون نسختي هي النسخة الوحيدة من "التريبيون" التي تأتي إلي مصر.

"فونت"، قلت له في مناسبة أخري، وكنت ثملاً وفي مزاج جيد، "فونت، ربما تكون أنت الشاب الوحيد الغاضب في مصر الآن." وانتابتني نوبة ضحك، فقد أدركت طرافة ما قلت للتو.

"اذهب وواصل العيش علي حساب هؤلاء الطفيليين." رد غاضباً.

لقد كنت أنا السبب في اشتغال فونت بنادي البلياردو. لقد اعتقد جميل أنني كنت أمزح حين أخبرته أن هذه هي الطريقة الوحيدة لانتشال فونت من الشارع. لذا كان علي أن أريه فونت واقفاً خلف عربة يد لبيع الخضروات في شارع الساقية يبيع الخيار، من بين جميع الخضروات. صدم جميل حين رأي صديق الدراسة يقف وسط الباعة الجائلين الذين يبيعون الفول والبصل والخس وبذور عباد الشمس. كان هذا الاقتراح كل ما استطعت تدبيره لكي أمنع جميل من إعطاء فونت مبلغاً محترماً يكفيه للعيش بكرامة بقية حياته. لكان

فونت بصق عليه، وربما ضربه.

بالطبع كنت أدرك ما الذي يحاول فونت أن يكونه_جيمي بورتر آخر يبيع الخيار علي الرغم من شهادته الجامعية. لقد شاهدنا المسرحية معاً في لندن.

أوقف جميل السيارة أمام عربة فونت، فقال الأخير: "اذهبا من هنا." فقلت له إنني أريد أن أشتري خياراً، ولكنني أخشي أن يغش في الميزان.

فصاح بي: "اغرب عني وإلا حطمت وجهك." هذا هو فونت. فهو يجيد السخرية من باقي الرفاق، ولكن حين يصل الأمر إلي، فإنه يستشيط غضباً. أخبره جميل أنه يحتاج شخصاً ليرعى نادي البلياردو لأجله.

تدخلت قائلاً لجميل "إنه متغطرس، ولا يريد أن يعمل في مكان حيث يتوافد زملاء الدراسة."

صاح بي: "هل تعتقد أنني أهتم لآرائكم أيها الحمقى؟" جميل، وهو شخص هادئ بطبعه، أخبره أنه يحتاج بالفعل من يعمل بالنادي. ربما كان فونت قبل العمل لو لم أكن أنا متواجداً. ولكنه نظر إلي وتعبيرات وجهه تصيح "أيها الخائن."

"فونت"، سألته بالإنجليزية، "ما رأي باقي الباعة في فيرجينيا وولف؟"

وقع فونت في الفخ وأجاب بالإنجليزية أيضاً: "أتسخر منهم لأنه لم تتح لهم قط الفرصة للذهاب للمدارس؟ أيها الحثالة. هل قرأ هذا الحشرة إلي جوارك كتاباً طيلة حياته؟ بالرغم من كل الأموال التي يمتلكها، هو ليس سوي خنزير جاهل.

في الواقع، جميل شخص لين العريكة ولم يعترض علي تسمية فونت له بالخنزير الجاهل. ولكن في ذلك الوقت كان هناك خطر آخر يقترب: لدي سماعهم فونت، المرتدي الجلباب البلدي والواقف خلف عربة الخيار، يتحدث بالإنجليزية، اقترب الباعة الآخرون ليستطلعوا الأمر.

"ده جاسوس"، قلت لهم ذلك، فأصبحوا عدوانيين علي الفور وأخذوا يتصايحون: "أحنا هنوري ابن الكلب ده." أطاح الغضب بعقل فونت، ولكننا تمكنا من جره إلي السيارة وانطلقنا مسرعين.

وكان لزاماً علي أن أترك السيارة حالما أصبحنا في أمان

من الباعة لأتجنب غضب فونت. ولكن بعد أسبوع كان فونت يلمع طاولات البلياردو بالملحق الأدبي "للجارديان".

بعد أن غادرت جروبي، ذهبت إلي نادي البلياردو. والنادي عبارة عن مكان فسيح يحتوي، بالإضافة إلي طاولات البلياردو التي يتوسطها سجاد سميك، علي بار أنيق وعدد من المقاعد الجلدية الوثيرة. والمكان أنيق بغير تكلف، وله هيبة غريبة تجعلك تأبي الإتيان بتصرف غير لائق أثناء تواجدك به. حين فقد والد جميل الأمل نهائياً في إتمام ابنه لتعليمه، رضخ لرغبته في إنشاء نادٍ للبلياردو. ولكن النادي أثبت جدارته كمشروع استثماري ممتاز. علي الرغم من أن الدكتور حمزة، والد جميل هذا، اشتراكي أصيل وليس ثرياً تحررياً ممن يقرءون "النايشن". وهو ناشط سياسي كان قد سجن لفترة علي يد حاشية فاروق. أحياناً ما يأتي الدكتور حمزة إلي النادي للعب البلياردو. والدكتور حمزة رجل طويل، نحيل، وأنيق. كان قد تلقي تعليماً فرنسياً، ويكتب حالياً لجريدة "الاكسبريس" الفرنسية. في الواقع، أريد أن أكون مثل الدكتور حمزة. فهو يعجبني كثيراً بملبسه الأنيق وسماته الأرستقراطية، وكونه قد

سجن لآرائه الاشتراكية. كنت أود أن أسجن مثله، ولكني لا أود أن أسجن الآن في ظل هذه الحكومة.

حين وصلت إلي نادي البلياردو، وجدت فونت ينظف السجاد بالمكنسة الكهربائية. وقفت خلف البار أراقب فونت لبعض الوقت. هناك دائماً تعبير ذاهل علي وجه فونت. فالطريقة التي يحرك بها المكنسة علي السجاد، بينما حاجباه مرتفعان إلي أعلي وعيناه مفتوحتان علي سعتهما تتابعان كل انعطاف للمكنسة علي السجاد بين الطاولات، تعطي الانطباع بأنه إذا ما استطاع فقط أن يصل بالآلة إلي هذا المنعطف البعيد، فإنه سيصل بالتأكيد إلي الجواب عما يحيره.

"درافت باس، فونت؟"

"نعم. لا بأس."

فتحت زجاجتين من البيرة المصرية "ستيللا" وصببتهما في وعاء كبير، ثم أخذت أرج البيرة حتى خرج منها كل الغاز الموجود بها، فأضفت نقطتين من الفودكا وبعض الويسكي. وكان هذا الخليط هو أقرب ما نستطيع تحضيره للوصول إلي "الدرافت باس" التي تعودنا شربها في لندن ولكنها غير متاحة

في مصر.

هناك في لندن، في شارع صغير يتفرع من "إيدجواير"، اعتاد بعض فتيان عصابات الشوارع بالإضافة إلي عدد من العمال الأيرلنديين، وفي الواقع كل من هب ودب، أن يتجمعوا للعب النرد. ولقد ربحنا ذات مرة أنا وفونت مبلغاً كبيراً من المال. فنحن المصريون مقامرون بطبعنا. حين يجتمع بعض المصريين، فهي فقط مسألة وقت حتى يبدءوا في المقامرة. نحن كسالي ونحب الضحك كثيراً. ولكن فقط حين نقامر، فإننا نكون متيقظين ونعمل باجتهاد. اشترينا أنا وفونت بجزء من المال الذي ربحناه قدحين مصنوعين من الفضة من متجر في "إيدجواير"، ونقشنا اسمينا عليهما، وأقسمنا ألا نشرب منهما إلا "درافت باس". أحضرت القدحين من خلف البار حيث نحتفظ بهما، وصببت الخليط فيهما بانتظار أن ينتهي فونت ويطفئ المكنسة.

قال فونت حين تذوق خليط البيرة: "ليست سيئة. كم قدحاً صنعت؟"

أجبته: "قدحين لكل منا."

"سأظل ثملاً لباقي اليوم." علق فونت.

"سأقضي باقي اليوم هنا أنا أيضاً." أجبته.

شعرت أن فونت يشعر بالوحشة، أو أنه يريد أن يناقش أمراً ما معي. فلولا ذلك لما كان بادلني الحديث، وما كنت لأجرؤ علي محادثته.

بادرني فونت: "أتدري ما مشكلتنا؟" (حين يستخدم فونت صيغة الجمع للإشارة إلينا معاً فإنه يكون متلطفاً معي علي غير عادته مؤخراً.) "مشكلتنا أننا لا نمتلك ثقافة خاصة بنا، فنحن إنجليزيان أكثر منا مصريين. وإن ذلك لشيء محزن."

"تحدث عن نفسك، فانا أستطيع أن أتبادل النكات مع أعتي المصريين."

"ربما تكون محقاً. ربما ثقافتنا عبارة عن مجموعة من النكات"

"لا يا فونت. أنها ليست كذلك. ولكن المشكلة الحقيقية أننا لم نتعلم اللغة العربية بشكل لائق."

بهذه الطريقة أصبح علي أن أتحدث إلي فونت: أن أعارضه، علي الأقل في الجزء الأول من النهار الذي علينا

قضاءه سوياً. كذلك أصبح علي أن أتحدث ببطء كي لا يتهمني بمحاولة التحذلق بدلاً من محاولة إجراء محادثة عادية معه.

"ولكن ماذا تقصد بقولك إن إطلاق النكات يعد ثقافة؟" سأل فونت.

قلت: "أقصد أن إطلاق النكات وتبادلها يعني للمصريين ما تعنيه أهازيج "الكاليبسو" الارتجالية لسكان جزر الهند الغربية، وما تعنيه الروحانيات وموسيقي "الجاز" للأمريكيين السود. وواصلت الحديث قائلاً كل ما يحضر علي لساني. فبهذه الطريقة فقط أستطيع إقناع فونت بجدية حديثي. "في الواقع، إن إطلاق النكات لا يقل في كونه ثقافة عن العزف علي الأرغن."

أعدت ملء القدحين، وشرعت في صنع المزيد من مزيج البيرة، بينما أخذ فونت يفكر فيما قلت للتو. وفكرت في أنني أحياناً أتفوه بكلمات تبدو لي فيما بعد أقل سخافة مما كانت عليه حين قلتها.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة حين دخل أول

الزبائن إلي النادي: أريفيان ودورومايِن. وهم اثنان من الأرمن الأثرياء البدينين يمتلكان محل الأحذية الذي يحتل الطابق الأسفل من البناية، ويتمتعان بروح دعابة عالية.

ألقيا علينا التحية حين دخولهم: "طاب يومكما. طاب يومكما أيها البروفسوران." الدرجة الجامعية التي يحملها فونت هي محل لتندرهما. "لقد أتينا لنلعب البلي لإمتاعك يا هير دكتور بروفسور فونت. إن أقصي طموح لنا في حياتنا المتواضعة هو إمتاع عينيك العالمتين بمجهودنا الطفولي، وإعطاء عقلك الفرصة للتأمل في أمور رفيعة." ثم انحنيا متظاهرين بتقبيل يديه كما اعتاد البعض في أوساط السراي.

قال فونت: "انظر إلي هؤلاء. إنهم يدفعون للعامل المسكين لديهم ستة جنيهات كراتب شهري مقابل العمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، بينما يأتون إلي هنا للمقامرة بآلاف الجنيهات وكأنها بعض حبات الفول السوداني."

رد دورومايِن هازئا "نرجو عفوك يا هير دكتور فونت. لو أن حسن الذي يعمل لدينا كان حاصلاً علي أقل الدرجات العلمية من جامعة هيدلبرج أو السربون لكنا أعطيناه... ثمانية

جنيهات."

حسناً، إن قولي أن الاثنين يمتلكان متجر الأحذية يفتقر إلي الدقة. ففي الواقع كان هذا صحيحاً فيما مضي. أما الآن، فقد خسر أحدهما حصته للآخر. فهما يتراهنان علي مبالغ طائلة، وحين ينفد المال لدي أحدهما، فإنه يراهن علي حصته من المتجر. كما أن الرابح يرفض إقراض الخاسر أية نقود. وأذكر أن دوروماين خسر ذات مرة كل ما يملك بما في ذلك سيارته فرفض أريفيان أن يقرضه أجرة الترام كي يعود إلي منزله.

شرع فونت في وضع الكرات وإعداد الطاولة للعب. كنت أنا قد فرغت من تناول القدح الثاني، فشعرت باسترخاء، وأخذ عقلي الشرقي يسرح في أمور غير شرقية مثل فونت، والآخرين مثله ممن عرفت، وفي الفونت الذي كنته أنا ذات يوم. فونت الذي هو جيمي بورتر وليس كير هارديز في العصر الفيكتوري المصري. فونت وأمثاله المعزولون الذين هم نتاج اليسار الإنجليزي ممن لا دخل لهم بالصراع الطبقي الدائر في مصر، ولا يمتلكون الحماسة للثورات المندلعة في العالم

العربي.

تواردت إلي ذهني هذه الأفكار وأفكار أخري مختلفة عن روعة الجلوس في جروبي واحتساء الويسكي دون أن يكون علي أن أدفع ثمنه، أو الحضور إلي نادي البلياردو حيث زجاجات الخمر متاحة دائماً. حين وصلت أفكاري إلي هذه النقطة مددت يدي إلي زجاجة "المارتل" القريبة مني، ورشفت جرعة. حقاً، إن الحياة ليست بالسيئة.

عاد فونت بعد فراغه من إعداد طاولة اللعب، وكان مفعول البيرة قد ظهر في انخفاض حاجبيه. سألني إن كنت قد قابلت ديدي نكلا منذ عدت من لندن، فأجبته بالنفي.

فقال: "لقد قابلت إدنا وليفي بالأمس. سيأتيان اليوم إلي منزلي. لم لا تأتي أنت أيضاً؟"

ليفي وإدنا ... وفونت. أتمني لو يتركوا البلاد جميعاً ويتركونني لحالي. ليفي وإدنا، خاصة إدنا. كنت علي وشك أن أخذ رشفة أخري من زجاجة المارتل، ولكن فونت أوقفني بقوله: "لا تكن جباناً لعيناً." تنهدت ورشفت من قدح البيرة في المقابل.

"تعلم إنني لم أري إدنا منذ وقت كبير."

"يمكنك رؤيتها الليلة."

"لكنني لا أرغب في ذلك."

"حسناً، لا تأت إذاً."

"أنت تعلم جيداً إني سآتي."

ابتسم فونت، فقلت له: "أتمني لو يزج بنا إلي السجن نحن الأربعة. في مكان ما علي شاطئ البحر الأحمر، حتى يكون لديك سبباً مقنعاً للغضب. أستطيع تخيل حاجبيك وقد وصلا إلي قفاك من شدة الدهشة."

سأل فونت علي الفور بينما ابتدأ حاجباه في الارتفاع: "ماذا تعني بقولك هذا؟ لماذا يزج بنا إلي السجن؟ هل أنت متورط في شيء ما؟"

"لا." أجبته.

"رام؟"

"قلت لك مئات المرات إني غير متورط في أي شيء."

اشتقت لرؤية إدنا. اشتقت لرؤية شعرها الطويل الأسود الضارب إلي الحمرة، وعينيها البنيتين الواسعتين. أخذت أتذكر

كيف اعتدنا أن نجلس متربعين علي الأرض كما يفعل أولاد البلد. بينما أجلس أنا خلفها أمشط لها شعرها بضربات طويلة حانية، ثم أقسمه إلي قسمين. وأصنع من كل قسم ضفيرة صغيرة، أربط طرفها الأسفل بشريط.

قلت لفونت: "دعنا نتحدث عن أي شيء آخر. دعنا نتناول المزيد من البيرة." تقاسمت مع فونت ما تبقي من مزيج البيرة، وأخذت أراقب كيف أخذ حاجباه في الارتفاع حين بدأ يتكلم.

"هل رأيت ما فعل؟" سأل فونت.

"من؟" سألت بدوري.

"جايتسكيل."

"جايتسكيل. جايتسكيل! بالله عليك يا فونت، هل تتوقع مني أن أهتم ب . . . ." أجبت محتداً. ثم لمحت تلك الوحشة في وجهه، فسيطرت علي غضبي وأجبته: "نعم. نعم رأيت ما فعل. ولكن ماذا كنت تتوقع؟ فالسياسيون هم السياسيون."

صاح فونت: "إن ذلك غير صحيح. فهناك كوني زلياكوس وكذلك هناك فينر بروكواي."

"توقف عن الصياح يا فونت." كان ثلاثة رجال قد دلفوا إلي داخل النادي، ووقفوا ينظرون إلينا. "اذهب وأعد لهم طاولة للعب." أخذ فونت بعض المفاتيح من خلف البار، وذهب مترنحاً لإعداد الطاولة. كنت قد بدأت أثمل، فأخذت رشفة من زجاجة المارتل وأشعلت سيجارة.

إن فونت لا يشعر أبدا بسخافة موقفه كمصري يهتاج بشدة لقرار جايتسكيل في إنجلترا تأييد صناعة الأسلحة النووية. قد يكون صحيحاً إنه قد أبدي سخطه علي السياسة الداخلية المصرية كذلك، ولكن موقفه ذلك أيضاً يبدو سخيفاً. إن موقفه ذاك أشبه بمن يريد تزيين كعكة لم تخرج بعد من الفرن. ففونت يعرف كيف يزين الكعكة، ولكنه لا يعرف كيف يخبزها. لذلك فقد انتظر عبد الناصر كي يخبزها لأجله قبل أن يقوم هو بتزيينها. هذا إذا سمح له بذلك عاجلاً أو آجلاً! أما في الوقت الحاضر، فهو يجلس ويحكم علي الكعكات المخبوزة، ويتمني أن تخرج الكعكة المصرية، أو العربية، في الشكل الملائم.

وجدت نفسي أضحك بدون مقدمات، وهذه العادة السخيفة

لا أستطيع التخلص منها. ولكنني تخيلت الكعكة أمامي، غير مستوية السطح كما ينبغي لها أن تكون. وتخيلت نفسي أقتطع بإصبعي قطعاً صغيرة من أماكن متفرقة من الكعكة لآكلها كما يفعل الأطفال. لقد كنت ثملاً، ووجدت هذا المشهد فكاهياً للغايةً، فأخذت أضحك عالياً.

صاح أريفيان فجأة: "مرحباً بروفسور. هل أفلحنا في إمتاع معاليك؟"

صحت منادياً عليه: "هل تعرف جايتسكيل يا أريفيان؟"

رد علي أثناء قيامه بإسقاط الكرة في الزاوية: "بالطبع إن جايتسكيليان أرميني عظيم."

سألته مجدداً: "ودكتور سمرسكيليان ولورد ستانسجاشن وكينجسلي مارتينيان، هل تعرفهم جميعاً؟"

"لقد لعبت البلياردو معهم جميعاً ." رد أريفيان.

غادرت نادي البلياردو دون أن أودع فونت، فقد كنت ثملاً وأردت أن أذهب لأي مكان آخر قبل أن ينال مني الإكتئاب، لذا فقد استقللت الأتوبيس إلي المنزل.

ومنزلنا عبارة عن شقة جميلة تطل علي نيل الزمالك.

والغريب إني لم أسأل أمي يوماً كم تملك من المال، علي الرغم من ملكيتنا لهذه الشقة الجميلة، واستمرارنا في العيش في نفس المستوي الذي اعتدناه دائماً.

"لم لا تحاول البحث عن عمل يا عزيزي؟" كثيراً ما تسألني أمي.

فأنا لا أعمل حالياً. في الواقع، أنا لم أعمل منذ عدت من أوربا. ومع ذلك لا تعتقد إنني أمتلك من المال شيئاً. فأنا لا أمتلك المال وليس لدي أب ينفق علي. في الواقع، إن امتلاك أب في مصر رفاهية لا تتوفر لأناس كثيرين. ليس معني ذلك إننا أولاد سفاح. فأمهاتنا يتزوجن زواجاً شرعياً وكل شيء، ولكن أزواجهن يموتون مبكراً. ومتوسط سن الوفاة حوالي الخامسة والثلاثين. أخذتني أمي للعيش مع والديها بعد وفاة أبي وكنت في حوالي الرابعة. حين بلغت السابعة، أصبح في المنزل أربع أرامل، وثمانية أيتام، يعيشون في كنف والدهن الذي بلغ سن متقدمة رغم كل شيء. في البداية، لم ألتفت إلي أن خالاتي فقط ثريات وليس أمي. لذلك جرفني تيار الثراء الساري في العائلة. كنت ألبس جيداً كباقي يتامى العائلة،

واذهب إلي نفس المدارس. لكن حين جاء دوري للسفر إلي إحدي الدول الأوربية لاستكمال تعليمي كباقي أيتام العائلة حين يصلوا إلي مرحلة البلوغ، انقطع المد د. وكان علي أن أدرك إنني لا أملك أي مال. والآن علي أن أعيش علي مدد من أصدقاء الدراسة. في الواقع، إن عبارة فونت الكريهة "اذهب وواصل العيش علي حساب هؤلاء الطفيليين" تثير حنقي. ولكني تصورت قبل عودتي إلي مصر إن عبد الناصر قد غير الأوضاع بقوة سحرية، وإنه لم يعد هناك أي ‘‘مدد’’ لأعيش عليه. لكنت عملت، لو إنه كان بإمكاني الحصول علي مال يساوي ما يحصل عليه أصدقائي. لكنني، والحال كما هي عليه الآن، سأضطر إلي ترك أصدقائي الأثرياء إذا ما عملت. وأنا أحب أصدقائي!

اتصلت تليفونياً بمنزل عصام التركي، فأجابت أخته.

"أهلاً زوزو. هل عصام هنا؟"

"لا، ليس هنا. أظن إنك تبحث عنه لأنك تريد اللعب."

"لا تكوني سخيفة يا زوزو، فأنت تعلمين إنني ما عدت

أقامر." حين سمعت أمي كلمة مقامرة، أتت من فورها لتسمع المحادثة.

"حسناً، إن عصام ليس هنا. ولكنني سأخبرك عن مكانه إذا وعدتني بشيء."

"أعدك."

"أقنعه أن يأخذني إلي الحفلة الراقصة في سميراميس يوم السبت القادم."

"لماذا لا تذهبين برفقة أصدقائك؟"

"أنت تعرف عاداتنا نحن الأتراك. فأنا محظوظة لأنهم سمحوا لي بالذهاب أصلاً."

"كنت أعتقد إن الأتراك متمدينون منذ أربعين عاماً، و إنكم كلكم أمريكيون الآن وأعضاء في حلف الناتو."

"ما هذا؟"

"لا شيء، أنا فقط أمازحك. أعدك إنني سأحاول إقناعه. لكن، أين هو؟"

"في سراي نكلا باشا."

"شكراً، يا زوزو."

"اسمع. إنهم يلعبون البكاراه وليس البوكر."

"كيف عرفت؟"

"أعرف لأنه اقترض مني مئة جنيه."

"شكراً يا زوزو. مع السلامة."

انتظرت أمي ريثما أنهي المكالمة لتستوضح الأمر: "إذن فهم يلعبون البكاراه الآن. حسناً، أتوقع أن يكسب عصام كل ما معهم من مال، فهذا الولد يتمتع بحظ ممتاز."

"إن لديّ حظاً أفضل منه."

"نعم، إن حظك أنت الآخر ليس بالسيئ. لكن بالطبع ليس هناك من مجال لعودتك إلي المقامرة!"

"لا."

"وأين يلعبون؟"

"في سراي نكلا باشا."

"مستحيل! هل وصل الأمر إلي هذا الحد؟ آل نكلا يلعبون مع أولاد من سنكم؟"

"لا. مع الأسف الأمر لم يصل إلي هذا الحد بعد. فهذا بمثابة لعب أطفال بالنسبة إليهم: أن ينفقوا بضع مئات من

الجنيهات لتسلية الصغار، لكن الشيء الحقيقي يبدأ في المساء."

"ولكن يا عزيزي، ما الذي يغضبك؟"

"أنت طيبة يا أمي. ولكنك لا تفهمين. إن آل نكلا لا يحق لهم أن يمتلكوا كل هذا المال."

"ولكن أليس هذا هو الحال في كل الدنيا؟"

"لا يا أمي، ليس هذا هو الحال في كل الدنيا. ليس هذا هو الحال في. . . ." كنت علي وشك أن أقول في روسيا أو في الصين، ولكني عدلت عن ذلك لأنها كانت ستظن، مرعوبة، إنني شيوعي. ليس لأنها تعرف ما هي الشيوعية ولا توافق علي مبادئها، فهي لا تعرف. ولكن لأنها سمعت إنهم يسجنون الشيوعيين ويعذبونهم، وقد قالت لها خالتي، موحية إنني واحد منهم، إنهم يقتلونهم كذلك.

"ليس الحال كذلك أين يا رام؟" سألت متشككة.

"في لكسمبرج." أجبتها. "تعالي يا أمي. دعينا نتناول البيرة المثلجة ونأكل، فأنا أتضور جوعاً."

سألتني إذا كنت قد قابلت فونت مؤخراً. "ماذا حدث لهذا

الولد؟ أليس هذا مأساوياً؟ أن يجن جنونه هكذا فجأة. يجب أن تخبرني عما حدث في لندن خلال الأربع سنوات التي قضيتموها هناك. هل تشعر بالمسئولية تجاه ما حدث له؟ فأنت من أقنعه بالسفر معك. وكيف استطعتما تدبير أموركما هناك دون أية نقود؟ أصحيح ما يقول الناس من أنكما عملتما كالعمال العاديين هناك؟" بالطبع هي لم تصدق أن يحدث هذا لأبنها.

أعاد إلي حديث أمي ذكري لندن وتلك السنوات الأربع اللائي قضيناها فيها أنا وفونت، مما أشعرني بالبؤس. شربت المزيد من البيرة المثلجة. وفجأة شعرت إنه قد فاض بي، فقذفت بالكأس الزجاجية في يدي محطماً إياها. مما أدي بنا إلي تكرار المشهد المعتاد: " ارجع إلي لندن طالما أنت غير سعيد هنا. سوف آتي لك بالمال من أي مكان، ربما تقبل خالتك إقراضي المال. ولكن ماذا بك؟ ما الذي ينتابك؟ هل تحب فتاة هناك؟" إلي آخر هذه المحادثة المتكررة.

"اذهب للعب في سراي نكلا باشا إذن."

لكنت ذهبت، لولا إنني لا أريد أن أقابل ديدي نكلا. لقد

رأيتها آخر مرة في لندن، ومنذ عودتي وأنا أتجنب لقاءها، لست أدري لماذا. ربما هي تظن أنني مازلت مسافراً.

"لا، لن أذهب" أجبتها، ثم اعتذرت عن تحطيمي الكأس.

نمت حتى الخامسة مساء، وحين استيقظت بدأت أمي من جديد: "حاول أن تجد عملاً ما، يا حبيبي. العلاقات العامة، أو شيئاً من هذا القبيل، ستناسبك كثيراً."

"نعم يا أمي."

"نحن حتى لا نمتلك سيارة. ألا تخجل حين ترى أمك تستقل الترام؟"

"نعم يا أمي."

قبلتها ثم ذهبت إلي جروبي. مشيت إلي هناك لأنني لم أكن أمتلك أجرة الأتوبيس. حال دخولي، صب لي رجب، النادل، كأساً من الويسكي. أخبرني إن الجميع كانوا هنا، وإنهم سيعاودون الحضور في السابعة. الساعة الآن السادسة، وكان علي أن أنتظر أحدهم حتى يدفع ثمن كأس الويسكي، أو الكؤوس العديدة التي سأشربها غالباً إذا ما كان علي الانتظار لمدة ساعة. كان هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص يجلسون علي

البار، من بينهم شاب في مثل عمري يقرأ مجلة ذات غلاف براق مما يعني كونها أمريكية. أنبأتني طريقته المتعمقة في القراءة عن ماهية المجلة. الشيء الوحيد الذي لازال فونت يشاركني فيه هو نفورنا الشديد من المصريين الذين يقرءون مجلة ''التايمز'' الأمريكية. نحن نسميهم ''الدلسيين''، وهي الإهانة الأسوأ في قاموسنا. أنيقو الملبس دائماً، قد تصفهم الصحافة والجالية الأمريكية بالمثقفين، ولكنهم يصيبون ري بالغثيان.

تناولت المزيد من الويسكي، وبدأت أشعر بالتحسن. كنت قلقاً إزاء رؤيتي لإدنا مرة أخري، وربما خائف. ف ي الواقع لم أكن خائفاً، ولكني كنت أشعر بالخزي. كانت نوبة عمل رجب خلف البار قد أوشكت علي الانتهاء، فأخذ يجمع المال من الزبائن قبل انصرافه، ولكنه لم ينظر تجاهي. لمحته يهمس بشيء لزميله الذي استلم منه العمل ويضع فاتورتي في كأس خلف البار. ربما كان أحد أصدقائي قد طلب منه أن يحتفظ له بفواتيري كي يدفعها حتى لا يراق ماء وجهي. لا أعلم. وفي الحقيقة، لم أهتم.

تقابلت عيني بعين النادل الجديد، وفي التو صب لي كأساً أخري من الويسكي. أخذت كأسي وتحركت لأجلس علي مقعد من البامبو المنجد. لفتت حركتي قارئ التايمز، فأخرجت له لساني بحماقة. أخذ المكان يكتظ بأناس تشي أناقة ملبسهم وغلو طلباتهم بالثراء الفاحش. لماذا لا يزالون يتحدثون بالفرنسية؟ تضايقت بشدة لأن الثورة لم تجتث ثرواتهم. هم جميعاً يشتكون من قلة المال، ولكنهم لازالوا يعيشون في نفس المستوي الذي اعتادوه.

وصل يحي وجميل. الشيء الوحيد الذي يميز جميل هو شعره. حسناً، ليس الشعر نفسه هو المميز، لكن طريقة تصفيفه. فهو يفلقه من المنتصف مما يكسبه مظهراً وديعاً، ولكن بلا شخصية.

"لقد كنا في النادي." بادرني جميل. "هناك فتاتان جديدتان، ألمانية ونيرويجية."

والنادي المقصود هو نادي الجزيرة الرياضي، والفتاتان هما ربما ممرضتان أو مربيتان أو شيء من هذا القبيل. فالمصريون ‘‘الأرستقراطيون’’ لازالوا يوظفون مربيات أوربيات

لرعاية أطفالهم، علي الرغم من أن المربيات الآن شابات صغيرات في العشرينات من عمرهن يحضرن إلي هذا الجزء من العالم لقضاء سنة أو نحو ذلك في ترف.

سألت يحي: "هل تعرف الفتي الذي يجلس خلفي علي البار يطالع المجلة؟"

"إنه كوكو، ألا تعرفه؟ إنه يعمل لصالح جنرال موتورز، وأبوه هو. . . ."

"لا عليك."

"ماذا تشرب؟" سألني جميل.

"لقد تناولت ثلاثة كؤوس من الويسكي في انتظاركما." أجبته.

"حسناً." أشار بيده بعدم اكتراث وذهب ناحية البار.

سألني يحي: "ماذا ستفعل الليلة؟"

فأجبته: "سأذهب إلي منزل فونت؟"

"إذاً فلن تحتاج ال. . . ."

"لا.

يشترك ستة منا في استئجار_ علي الرغم من أني لم أدفع

ملياً من هذا الإيجار_ شقة في وسط البلد لا يوجد بها سوي أسرة.

"هل تحتاج سيارتك الليلة يا يحي؟" سألته بدوري.

"لا. فسوف نستقل سيارة جميل. يمكنك أخذ سيارتي."

ناولني يحي مفاتيح السيارة بينما عاد جميل بثلاثة كؤوس من الويسكي. فكرت إنه ربما سيأتي يوم يرفض أحدهم أن يدفع ثمن مشروباتي أو أن يقرضني سيارته، وسوف لن أراهم بعد ذلك أبداً. لاحظت أن جميل متوتر، وإنه شرع مرتين في محادثتي في أمر ما ثم عدل، فسألته عما هنالك.

أجابني: "لا شيء. فهو شيء غير هام حقيقة."

"هات ما عندك."

"كان فونت ثملاً اليوم." ساد الصمت لفترة.

"لماذا لم ترم به خارجاً؟" سألته.

"ليس في مقدوري أن أفعل ذلك يا رام، فنحن جميعاً مغرمون به."

"فما صلتي أنا بهذا؟"

بدأ يحي يبتسم وسألني: "أتعرف ماذا فعل اليوم؟ لقد ضرب

أريفيان بعصا البلياردو. لم أضحك في حياتي كما ضحكت اليوم. أخذ فونت يطارده بين الطاولات و بين كل حين وآخر، وزز، إذا بالعصا تهبط علي مؤخرة أريفيان الذي أخذ يصرخ بأعلى صوته مردداً كلمات أرمينية لم نسمع بها من قبل. أما دوروماين فكان يشجع فونت علي الاستمرار وكاد أن يموت ضحكاً."

بدأ جميل يضحك هو الأخر، وأخذا يقهقهان معاً. بعد فترة هدأ ضحكهما فأخبراني عما حدث. كان دوروماين قد أمضي عشر دقائق يحاول إسقاط الكرة في زاوية الطاولة من موقع مستحيل. أخذ الجميع، بم ا فيهم فونت، يراقبون ما يحدث، بينما أريفيان يسخر من دوروماين قائلاً إنه لن يتمكن من إسقاط الكرة في بئر حتى لو دفعها بيديه السمينتين. أخيراً أعلن أريفيان إنه سيحرق ورقة مالية بعشرة جنيهات إذا ما تمكن من إسقاط الكرة. وللعجب فقد دخلت الكرة في الزاوية، وأخرج أريفيان العشرة جنيهات من حافظته وأشعل فيها النار مما أثار جنون فونت فأخذ يوسعه ضرباً.

أخذت أضحك أنا الأخر، وقلت له: "بصراحة يا جميل إذا

أرت أن تشتكي فونت، فلا تأت إلي."

فشرع جميل يقول: "لا، حقاً أنا لا أشتكيه، لكن لو يستطيع فقط أن يكون أكثر. . . ." ثم بتر كلامه.

يسكن فونت غرفتين خلف القلعة في مصر القديمة. جيرانه جميعهم من الباعة الجائلين والخدم، وبعضهم من الشحاذين. هذا المكان هو الأجمل والأكثر تنوعاً في القاهرة، والأقل تصنعاً كذلك. فالمتصنعون يقودون سيارتهم "الجاجوار" في شوارع الزمالك لو لم يكونوا يتسكعون في أوربا. أود أن أعيش في هذا الجزء من القاهرة، لكني أشعر أن ذلك سيكون نزوة، وهذا ما أحسه تجاه الكثير من أفعالي.

كنت أشعر بالاسترخاء والانشراح أثناء قيادتي السيارة إلي منزل فونت والفضل في ذلك يرجع إلي الأربع كؤوس من الويسكي التي تناولت في الساعة والنصف المنصرمة. لما القلق؟ أبسبب إدنا وكل هذا؟ يا لها من سخافة! فأنا حر أفعل ما أريد. في الواقع، لست أدري ما الذي يجعلني أقبل سخرية فونت وانتقاداته. سوف لن أظهر الغضب بالطبع، لكنني

سوف. . . حسناً، سوف أخبره أن يقلع عن ذلك. كما إنني يجب أن أنضج. فما كان يصح أن أتصرف بطفولية وأخرج لساني لذلك الشاب قارئ ‘‘التايمز’’. يجب علي أن أستجمع نفسي. حتى إنني سأكلم منير ابن خالتي حتى يتوسط لإلحاقي بشركة شل أو شركة التأمين الكندية، أو شيء من هذا القبيل. نعم، سوف أقلع عن هذا العمل الآخر قبل أن يقبضوا علي وينزعوا أظافري. نعم سأفعل، فقد أخذت إجازة طويلة ارتكبت خلالها من الحماقات واتبعت من الموضات الفكرية ما يكفي. ليس هناك من حاجة حتى للذهاب لمنزل فونت حيث تجدد مقابلتي لهم إحساسي بالذنب. لكن، فيم إحساسي بالذنب؟ ألرفضي ترك إدنا تتحكم في حياتي؟

قدت السيارة مباشرة مخلفاً منزل فونت ورائي، ثم عدت أدراجي إليه، ثم تركته مرة أخري. من اللطيف القيادة بينما لا يزال تأثير الويسكي سارياً في. ولكن، مهما كانت حالتي النفسية جيدة بعد شرب الخمر، لست أدري لم ينتابني هذا الشعور الغامر بالكآبة حال تدخيني بعد فترة، ولو قصيرة، أتوقف فيها عن التدخين لشرب الخمر. تماماً كالإحساس

بالسقم والكآبة الذي ينتابني حين أدخن بعد استيقاظي من النوم في الصباح إذا ما أفرطت في تناول الخمر ليلاً. أوقفت السيارة بجوار منزل فونت ثم أشعلت سيجارة.

بحق السماء ماذا أعني "برفضي ترك إدنا تتحكم في حياتي؟" أي حياة؟ أأسمي هذه حياة؟ أأسمي نفسي رجلاً؟

أخذت وقتاً أكثر مما يجب لأركن السيارة جاعلاً نصفها معلقاً فوق الرصيف حتى أفسح مكاناً لمرور السيارات الأخرى. أدرت الراديو كي أستمع إلي الأنباء حالما أنهي سيجارتي. إلي جانب السيارة، وقف ولد صغير يراقبني وأنا أوصد بابها قبل أن أصعد لمنزل فونت.

"هاخللي لك بالي منها." بادرني الصبي.

"ما تزعجش نفسك."

"وهالمع الإزاز."

"طيب." تركته وتوجهت إلي المنزل حيث يسكن فونت. لكن بدلاً من الصعود، عدت مرة أخري إلي السيارة. فتحت الباب وأخبرته أنه يستطيع الجلوس بداخلها، ثم أريته كيف يدير الراديو. شعر الولد بالإثارة، وأحسست بقدميه الحافيتين

تتخبطان من الرهبة.

"هألمع كل حتة فيها."

"شكراً." وصعدت السلالم.

كانت إدنا، الجالسة بجوار النافذة وساقاها الجميلتان متقاطعتان، ترتدي حلة سوداء أنيقة. كانت تنظر إلي الشارع بينما يقبع فنجان من القهوة بين يديها. لم تلتفت حين دخلت. صافحت ليفي الذي كان يساعد فونت في جلي الصحون المتسخة في ركن من الحجرة. ليفي شاب طويل دائماً ما يشمخ بجبهته إلي أعلي جاعلاً ذقنه تستوي في وضع أفقي كأنما يخشى أن تسقط نظاراته إذا ما غير وضعيته. بعكس فونت، فإن حاجبي ليفي مسدلان لأسفل حتى لتكادا تغطيان عينيه. راقبته يجفف الصحون التي يسلمها له فونت بعد غسيلها بعقل غائب وحركات ملتبسة. هناك شيء يدعو للسخرية في المشهد: يسلم فونت الصحون لليفي وكل يحمل وجهه تعبير الحيرة الخاص به كأن فيروساً ما قد أطبق عليهما وأعراض المرض واضحة عليهما جلية. هناك *لماذا* صامتة

علي وجهيهما ربما لا يدري أحدهما علي وجه الدقة ماذا يقصد بها.

تناولت كرسياً وجلست نصف مواجه لإدنا. سمعت ليفي يخاطب فونت "إن كليهما غبي ومجرم، في الواقع." إن ليفي نتاج أحد مدارس الليسيه الفرنسية في مصر. هذا الواقع يبدو جلياً إذا ما كان برفقتنا أنا وفونت. ففي مقابل وضوح الأفكار وسهولة التعبير اللذين يمتاز بهما ليفي نتيجة تعليمه الفرنسي، تبدو واضحة للعيان السطحية والغموض اللذين أكسبنا تعليمنا الإنجليزي.

"لكن هل تعتقد أن إنجلترا وفرنسا كانتا لتهجمانا لو أن إسرائيل رفضت الاشتراك في الحرب؟" سأل فونت ليفي.

"نعم. وأعتقد أن إسرائيل كانت لتهاجم بمفردها بدون المشاركة *الفعالة* لإنجلترا وفرنسا. لو أن إسرائيل فقط قد أضافت صوتها إلي أصوات العرب المعارضة لحشد القوات في قبرص. لو أن إسرائيل قد قالت للعرب: رغم جميع خلافتنا، لن نكون أداة في يد القوي الاستعمارية التي تستهدفكم. لو أن إسرائيل قد قالت ذلك لكان خيراً وفيراً قد حل

بنا جميعاً."

"نعم، نعم. لكن كل افتراضاتك هذه مجرد هراء. أنت تعلم جيداً أن كل الإسرائيليين يتمنون أن يرونا نخضع لسيطرة القوي الاستعمارية، سواء أوروبا أو أمريكا. إن افتراضاتك ليس لها سيقان تقوم عليها." عند ذلك شعر ليفي أن مشاعره قد جرحت، وهو كثيراً ما يحس بهذا.

"إنها الحقيقة يا فونت، فالكثيرون في إسرائيل قد عارضوا الهجوم علي السويس. فهناك الكثير من الاشتراكيين المخلصين في إسرائيل.

"الكثير من الاشتراكيين المخلصين في إسرائيل! بالتأكيد. الكثير من الاشتراكيين المخلصين من أمثال موريس إدلمان." ابتسمت لدي ذكر فونت لموريس إدلمان، فهو الاسم الذي يقذف به في وجه أي يهودي عند مناقشة الاشتراكية.

"لا تعتبره المثال الوحيد. فهناك أيضاً فيكتور جولانسز."

"فيكتور جولانسز ليس إسرائيلياً." غمغم فونت الذي يعتبر فيكتور جولانسز نقطة ضعف في دفاعه.

"وموريس إدلمان ليس إسرائيلياً كذلك."

قد يستمر هذان الاثنان يتناقشان حول شخصيات عامة إنجليزية، وقد يدوران ويدوران هكذا لساعات غير مدركين أنهما يناقشان شئون الشرق الأوسط لا المملكة المتحدة.

توقفت عن الإصغاء إليهما واستدرت لمواجهة إدنا. تساءلت إذا ما كان ليفي وفونت مخنثين. وتساءلت أيضاً إذا ما كان علي المرء أن يكون مخنثاً كي يكون مخلصاً تماماً لمعتقداته. أعرف أن أحداً منهما لم يفكر قط في إدنا كامرأة يشتهيها. دوروماين الأرميني قال ذات مرة إن عقل معظم الرجال يتركز في شهوتهم، وأتساءل لم احتاج فرويد كل هذه المجلدات ليكتب هذه الحقيقة البسيطة. قد أتظاهر طوال الوقت بعكس ذلك، لكن مهما كانت هامة القضية التي أناقشها، إذا ما ظهرت امرأة جميلة في الجوار، فإني اعرف تماماً أين يكون عقلي. حسناً، هذا إذا ما استثنيت الأوقات التي أكون فيها منهمكاً جدياً في المقامرة. ربما، فكرت، المقامرة بالنسبة لي تعني ما تعنيه الاشتراكية بالنسبة إلي فونت وليفي. ولكني في الواقع لا أتصور ذلك.

"إدنا." همست. أدارت رأسها قليلاً لكنها استمرت في

التحديق خارج النافذة. مررت إصبعي صعوداً ونزولاً علي مرفقها. "إدنا. . . إدنا . . . . إدنا. . . . ." أدارت رأسها ونظرت إلي. لوهلة ظننت أنه انعكاس الضوء الخافت علي صفحة خدها. لا شعوريا تحركت يدي وغطت عيني. ساد الصمت لفترة حتى سمعت فونت وليفي يغادرون الحجرة. علي خدها الأيمن، ابتداءً من زاوية فمها وحتى أسفل أذنها كان هناك ندبة حديثة كانت آثار القطب ظاهرة في الجلد المشدود علي طرفيها.

"أعطني سيجارة." قالتها بكل نعومة. كانت يداي مبللتين بالعرق. أعطيتها سيجارة وأخذت واحدة لنفسي ثم أشعلت الاثنتين.

"كيف تجدني الآن؟"

"أنا أحبك."

"أعني من الناحية الجمالية."

ضابط شرطة حقير، لم تحتج إلي إخباري، ضابط شرطة دموي حقير فعل بها هذا. ضابط نشط كريه ذو شارب قد حضر ليفتش بيتها مدعياً اللطف في البداية. ‘‘مجرد روتين’’

ربما أخبرها. مؤكد أخبره أحد أنها يهودية. لكن، بم؟ سكينة أم زجاجة مكسورة؟

"سوط." ردت دون أن أسألها.

"وما يعني ذلك؟" صرخت بها. "أليس هناك ضباط دمويون في إسرائيل؟ ألم يذبحوا نساء وأطفالاً عرباً؟ أليست كينيا مليئة بضباط إنجليز دمويين؟ أليست الجزائر مليئة بضباط ساديين؟ أليس هناك ضباط يهود في حلف الناتو اللعين يعملون جنباً إلي جنب مع نازيين سابقين؟ آه يا إدنا. من كان؟"

لم تجب.

"من كان؟"

لم ترد أخباري.

بدت أكبر مني بكثير ومجهدة جداً. شعرت بموجة حارة من الحب لها تغمرني. لكن جعلني الإحساس بعدم جدوى أي شيء وفقدان العدل في هذه الحياة أرغب في سحب الغطاء علي وجهي وعدم فتح عيني أو الظهور لمدة طويلة. حاولت أن أجذبها نحوي، لكنها دفعتني بعيداً. أذعنت وتركتها تعود إلي مقعدها فأعطتني الجانب الخالي من الندوب من وجهها.

كل هذا بسبب لندن. كل هذا حدث بسبب لندن، قلت لنفسي. كل هذا بسب استماعي إلي أحاديث الأب هدلستون ومعرفة من تكون روزا لكسمبرج. كل هذا بسبب رؤية ثلاثية جوركي تؤدي في هامبستيد والاستماع إلي دونالد سوبر في *ركن المتحدثين* وقراءة أعمال مثل السؤال. كل هذا بسبب قراءة أعمال كتاب ككوستلر وألن باتون ودوريس ليسنج وأورويل ويلز وحتى كنيث تانيان . كل ذلك بسبب تشرشل والمئة مليون للإطاحة بلينين، ثم البرقية. كل ذلك من جراء معرفة كيف أتي فرانكو إلي الحكم ومن ولاه منذ ذلك الحين، ومعرفة كيف منح اليهود فلسطين، ولماذا. كل ذلك من جراء معرفة ما وراء قصف دمشق و ''*وداع*'' روبرت جرايف. آه، أيها الجهل المبارك. ألم يكن رائعاً الذهاب إلي الكنيسة الكاثوليكية برفقة أمي قبل أن أسمع عن سلازار أو حتى عن المسيرة المقدسة إلي إثيوبيا؟

"متي حدث ذلك؟"

"لا يهم."

" أين تسكنين الآن؟"

"علي بعد أمتار قليلة من هنا."

"وأبواك؟"

" في جنوب إفريقيا؟"

وقفت وأخذت أذرع الحجرة. نظرت تحت سرير فونت فوجدت زجاجة كونياك ولكني لم أشعر برغبة في الشرب. نظرت من النافذة الأخرى إلي الشارع، فوجدت فونت وليفي جالسين علي كراسي فوق الرصيف يلعبان الدومينو مع صاحب المقهى الذي يجلسان أمامه. هل يحب فونت لعب الدومينو حقاً، أم أن جلوسه للعب مع ليفي ورجل يرتدي ملابس القرويين تكمل الصورة التي يريد أن يرسمها لنفسه؟

"هل تريدين بعض الكونياك يا إدنا؟"

"نعم." أحضرت الزجاجة من مكانها تحت السرير وصببت لها كأساً.

"لم لا ترحلي يا إدنا؟ لم لا تذهبي إلي إسرائيل أو جنوب إفريقيا أو فرنسا، أو أي مكان آخر تعيشين فيه وتسعدي؟"

"لأني مصرية." أجابت.

احتجت بعض الوقت كي أدرك أن الندبة علي وجنة إدنا

تشوه وجهها بالفعل. ذلك لأن وجود تلك الندبة لم ينفرني منها علي الإطلاق. بل علي العكس، فقد حببها إلي أكثر. لسبب ما جعلت هذه الندبة إدنا تبدو حقيقية وأكثر إنسانية. لو أنها فقط تبكي. فكرت، لو أنها فقط تبكي وتدع مشاعرها تتغلب علي عقلها أحياناً. لكن في السنوات الست التي عرفتها خلالها، لم أر إدنا قط تبكي.

"ألا تبكين أبداً إدنا؟" ما كانت لتجيب عن هذا السؤال الغبي.

إنه لشيء غريب أن يعرف رجل امرأة حتى ليصبحوا شخصاً واحداً فيتوحد جسداهما وحياتاهما وأفكارهما وآمالهما، ثم بعد فترة يصبحا غريبين. لا يعودان شخصاً واحداً. تماماً كمن ينظر إلي نفسه في المرآة، فتطالعه صورة شخص غريب عنه.

أحضرت كأساً لي. أتساءل ماذا يفعل الناس الذين لا يشربون الخمر في مواقف كهذه. ربما يكون عليهم مواجهة الحقائق. لكن مواجهة الحقائق أمر، وتقبلها والتغلب عليها أمر آخر. الكونياك سوف يجعلني أتغلب علي الحقائق، سوف

يجعلني أتغلب علي تصلب إدنا وافتقاري إلي الكلمات والأفعال المناسبة. أعدت ملء الكأسين، ثم جلست تحت قدميها. لفنا الصمت، كل منا سارح في أفكاره، بينما أخذ الكونياك يسري فينا ويهتم بتسوية الأمور. كأس أخري وقبلت ركبتها بنعومة وشغف. وببطء امتدت يدها لتعبث بشعري وتدغدغ برأسي جسدها. بعفوية، ربما، وبدون قصد، أثار البراندي هذا المشهد الذي ربما تشابه مع مشهد من فيلم أو مسرحية أو أوبرا شاهدناها أو كتاب قرأناه. فالفنانون يحاكون حياة الناس، ثم يحاكي الناس محاكاة الفنانين لحياتهم.

ثم اتضح لي ما يجب أن أقول: "هل تذكرين؟" هل كنت لأفكر في ذلك لولا تأثير البراندي؟ لربما فعلت. لكن، ما كان ذلك ليأتي بهذه النعومة وفي اللحظة المناسبة.

"هل تذكرين؟"

"ماذا؟"

ثم تذكرنا، وبدا الغريب في المرآة مألوفاً مرة أخري، بدا قريباً، بدا نفس الشخص.

عاد فونت وليفي إلي الحجرة وتجاهلا حقيقة كون رأسي مسندة إلي ركبة إدنا ويدها علي رأسي. فهذه الأمور التافهة لا تلفت انتباه الاشتراكيين. كنت علي وشك أن أسأل فونت ماذا في اعتقاده كان لينين ليفعل إذا ما اكتشف زوجته مع رجل آخر، لكنني عدلت عن ذلك.

"كل شيء مرهون بمشيئة الله." قال فونت كالمعتاد.

سله كم يبلغ راتبه السنوي، فيقول لك: "شكراً لله، ما يكفيني." سله إذا كان سعيداً لأن عبد الناصر خلصنا من فاروق، فيقول لك: "إن كل ما يأتي به الله إلينا خير." سله كم يدفع كبقشيش للنادل فيقول لك: "ربنا يعلم. أكثر مما يجب."

قال ليفي أن هناك ‘‘حاجز نفسي’’ يفصل بين فونت وخرف *الله* * صاحب المقهي. علق فونت قائلاً إن ذلك لا معني له لأنه هو نفسه مجرد عامل في نادي للبلياردو. فقالت إدنا شيئاً ما عن ضرورة توخي فونت الحذر كي لا يبدو متعالياً. انتظرت أن يتحولوا للحديث إلي الساسة الإنجليز. لأنه إذا لم يتخذ الحديث هذا المجري قريباً، سيكون علي دفعه بنفسي. فهم لا يجدون سعادتهم إلا في ذكر لندن.

قالت إدنا لفونت إنه يتصرف بطرقة فبيانية. أخذ ليفي يفسر الفبيانية من منظور برنارد شو، بينما دافع فونت عن ويلز. وهكذا اتخذ الحديث المسار الصحيح. أخذت أداعب ركبة إدنا برأسي وقلت لها: "سأقلك لمنزلك."

"أنا أسكن منزلا مجاورا."

"لم لا نذهب جميعاً في نزهة بالسيارة؟"

---

* هكذا ورد الاسم في النص الأصلي ثلاث مرات متتاليات.

"لا بأس." قالت إدنا.

حين بلغنا الباب التفت ليفي إلي إدنا وقال لها بالفرنسية: "هل تشعرين أنك علي ما يرام الآن؟"

لمحت إدنا تقطب قليلاً، فهي لا ترحب بهذه الحميمية مع ليفي فقط لكونهما هما الاثنان يهوديين. احمر ليفي حين أدرك غلطته.

حين اقتربنا من السيارة سمعنا صوت الموسيقي المنبعثة

منها، فتذكرت الولد الصغير الذي عرض علي تنظيف السيارة. كان نائماً متكوراً في المقعد الأمامي ومازال ممسكاً بالخرقة التي نظف بها السيارة. حملق به الآخرون فشرحت لهم ما حدث. أطفأت إدنا الراديو وأيقظت الولد برفق. سألت إدنا الولد: "أنت ساكن فين؟" أخذ يفرك عينيه ويتطلع إلينا ورأسه محني. حين لمحني ابتسم وقال: "لمعتها تلات مرات."

" بقت جميلة."

"أنت ساكن فين؟" سألت إدنا الولد مجدداً. "لازم أمك قلقت عليك."

"ما فيش مشكلة يا ست. أنا لا عندي أم ولا أب."

"وساكن فين؟"

"هنا."

"في أي بيت؟"

"في مدخل أي بيت. ما تفرقش."

"يعني ماعندكش بيت؟"

"لأ. بس في الشتا بأنام في القسم ورا مكتب الظابط."

"ظابط بوليس؟"

"أه. ده صاحبي." قال الولد بزهو. أخذت أراقب وجه فونت يعصف به الإحباط والغضب الذي لا طائل من وراءه لهذا الظلم الموجود في العالم.

"عندك كم سنة؟" سألت إدنا الولد.

"ماأعرفش."

في هذه الحظة ظهر *خرف الله* ونظر إلينا وإلي الولد وتنهد ثم قال: "لا أم ولا أب. هنعمل أيه؟ إرادة ربنا."

"وبيأكل فين؟" سأل ليفي.

"هنا ولا هناك. رغيف من هنا علي حتة جبنة من هناك. إحنا بنعمل اللي في وسعنا، لكن في غيره كتير. هنعمل إيه؟ إرادة الله."

"يعني ما بيرحش المدرسة؟" سأل فونت الحالم.

"مدرسة؟ مدرسة إيه؟ بأقول لك لا عنده أم ولا اب." هز *خرف الله* رأسه وضحك. " قال مدرسة قال. الولد ده محظوظ لأن الظابط، ربنا يخليه، راجل كويس بيساعده في الشتا. هنعمل إيه؟"

أعطت إدنا بعض المال *لخرف الله* كي يعتني بالولد ريثما

نري ما يمكننا عمله لأجله.

قاد فونت السيارة إلي منطقة الأهرام. احتل ليفي المقعد إلي جوار فونت بينما جلسنا أنا وإدنا في المقعد الخلفي. ليفي شخص وحيد بمعني الكلمة. قابلناه لأول مرة في لندن حيث كان يعمل. دفعت إدنا تكاليف رحلة عودته إلي مصر، وصادقه فونت. لكنه لا يبدو متوائماً تماماً معنا. فإلي جانب الاختلاف في نوعية التعليم الذي حصل عليه كل منا، تعليمه فرنسي بينما تعليمنا نحن الثلاثة إنجليزي، هناك إحساس بالهوان يسيطر عليه مما يحرج من حوله. يشتغل ليفي الآن بتعليم اللغة العربية للمصريين البالغين الذين وجدوا أن عليهم أن يتعلموا اللغة بعد الثورة. كان ليفي قد تتلمذ علي يد شيوخ المسلمين في جامعة الأزهر، وكان من الممكن أن يصبح من مشاهير العلماء والمثقفين في الوطن العربي لولا حرب السويس. أتساءل لم لم يذهب إلي إسرائيل.

"ليفي،" سألته، "ألم تفكر قط في الهجرة إلي إسرائيل؟"

"بلا. تأكد أن كل يهودي فكرفي وقت ما في الهجرة إلي

إسرائيل."

لا أدري لماذا ذكرني رده هذا بعبارة "إن كل رجل متزوج يفكر في وقت ما في الطلاق."

"في وسط اليهود،" أكمل ليفي، "سأفقد استقلاليتي. سيكون علي أن أوافق علي كل شيء يقولونه وأن أفعل ما يتوقعون مني أن أفعل. لن يكون لي أفكاري الخاصة، وسيكون ذلك بمثابة انتحار من جانبي.

ترنمت بالفرنسية: *سيكون ذلك بمثابة انتحار*

أن أتوحد فيمن هم بالجوار

"أنا شاعر." قلت لهم.

تجاوزنا منزل خالتي حيث قابلت إدنا لأول مرة. رأيتها تبتسم قليلاً، وتساءلت إذا ما كان القرب الذي توصلنا إليه في منزل فونت قد انتهي. بحثت عن يدها وأمسكت بها، لكنها لم تتجاوب معي. خشيت أن تعتقد أن ما أبديه من مشاعر ليس سوي شفقة نحوها نتيجة تعرضها لهذا الحادث. لقد كنت فعلاً أشعر بالأسى لما حدث لها، لكن هذا ليس ما يدفعني للإمساك بيدها. فأنا أحبها.

أوقف فونت السيارة عند سفح الأهرام المنتصبة هناك كآثار مادية لللامادية. في الظلام، لا تبدو الأهرام من صنع البشر، بل تنزيل إلهي لهذه المعجزة علي الأرض، علامة استقرار لقوة غير أرضية. لو أنها أقدم من ذلك وغير معلوم تاريخ بناءها، لكان نبي كموسي استخدمها كعلامة لآخر كإبراهام.

أنظر! اشتعلت النار في جوف أياً كان اسمه، وهزت الأرض والبحار ثلاثة زلازل، وأمطرت السماء ثلاثة أعمدة مربعة الشكل ملأت الفجوات التي أحدثتها الزلازل و. . . انتظر! بنيت ثلاثة آثار بعضها إلي جانب بعض: طولها ثلاثمائة وعشرين ضعف شيء ما، وعرضها بقدر الخطوات التي يخطوها حمل صغير في يوم وليلة. استعرت النيران في قلبه وأمر بإحضار أبنائه الخمسة فطرحهم، ثم أعطي أوامره بذبح كل من تزوج حديثاً تحت سفح الأثر الأكبر كقربان. فهذه إرادة الرب.

أمسكت بيد إدنا وذهبنا معاً لرؤية أبي الهول. وقفنا ننظر إلي التمثال العملاق في صمت حوالي ربع الساعة، ثم

استدرت وواجهتها. وضعت يدي علي ندبتها وأخبرتها أنني أحبها. استمرت في التحديق إلي أبي الهول، فهويت بثغري علي شفتيها. قبلتها طويلاً محتضناً إياها بشدة. عدنا بعد فترة إلي السيارة يلف كلانا ذراعه حول خصر الآخر.

قطعنا رحلة العودة في صمت. في كل مرة أزور فيها منطقة الأهرام بالليل، أحس بالشجن وأقطع رحلة العودة صامتاً. أوصلنا ليفي في طريقنا، ثم قاد فونت السيارة باتجاه منزله. حين وصلنا، ترك محرك السيارة دائراً وتمني لنا ليلة سعيدة ثم صعد إلي حجرته. جلسنا أنا وإدنا في المقعد الخلفي لبرهة دون كلام. لقد كان يومي طويلاً ومرهقاً وقد شربت كثيراً، لكنني شعرت برغبة جامحة في أن أكون مع إدنا، أدللها وأحبها.

"أين تسكنين؟"

"تعال. سأريك."

كانت تسكن حجرة واحدة مغربية الطراز تحتوي علي أريكة منخفضة تنام عليها. لم أستطع التعرف علي باقي محتويات الحجرة لأنها لم تشعل النور. أدركت أنها لن ترحب

بالنور بعد الآن. تربعت علي الأريكة كما يفعل أولاد البلد، وأتت هي وتربعت أمامي. أخذت أحل شعرها كما أعتدت أن أفعل. أعطتني مشطاً، فأخذت أمشط شعرها الأسود الضارب إلي الحمرة بضربات طويلة بطيئة تمتد من جبهتها حتى خصرها. ضفرت شعرها وربطت أسفله بالشرائط التي أعطتني إياها. خلعت عنها سترتها، بلوزتها، ثم كل ملابسها. جلست أمامي عارية تماماً ورائعة الجمال. أخبرتها مرات ومرات أنني أحبها. قبلتها وهمست في أذنها بكلمات الغزل والذكريات الجميلة. أخيراً رفعت رأسها المحني نحوي واقتربت مني أنفاسها، وأصبحنا كياناً واحداً: جسدان وعقلان وحياتان ورائحتان متعانقتان. لا شيء يهم بعد ذلك. فأن نحب ونمتلك من نحب هو ما خلقنا من أجله.

الجزء الثاني

منذ حوالي ست سنوات أقامت خالتي، التي تتظاهر الآن بالتنازل عن أرضها للفلاحين الفقراء، حفل استقبال بفيلتها الكائنة علي الطريق إلي الهرم للاحتفال بعودة ابنها منير من أمريكا.

كان حفلاً كبيراً قدم خلاله الشمبانيا خدم في زى رسمي . إلي مائدة الطعام المترفة، جلس حوالي ثلاث ين شخصاً يتناولون طعام العشاء. كان مقعد فارغ بجوار أمي ينتظرني، فقد وصلت متأخراً.

"ها قد وصل فتانا الثوري، حواريّ عبد الناصر." قالت خالتي، والدة منير، وهي امرأة ثرية سمينة وقبيحة. "ألن تقول لهم أن يأخذوا منازلنا وفضياتنا." ثم أغرقت في الضحك. كذلك ضحك الموجودون بلا شفقة. كان يقوم علي خدمتهم طاقم من الخدم مكوناً من ثمانية أفراد_ خدم دائمون.

همست أمي في أذني: "علي الأقل فلتقل مرحباً لمنير، فأنت لم تره منذ ثلاث سنوات."

أجلت النظر بحثاً عنه حول المائدة. لمحته، لكن عيني تسمرت علي الفتاة الجالسة إلي جواره. استطعت من حيث أجلس أن أتبين جفونها الندية وبشرتها الخمرية الفاتحة التي تبرز لونها لكومة الشعر الأسود الضارب إلي الحمرة أعلي رأسها.

سألت أمي عمن تكون، فأخبرتني أنها ابنة سلفا العائدة لتوها من أوربا. كانت هناك بصحبة والديها الذين سبق وقابلتهم في مناسبة ما. وعائلة سلفا واحدة من أغني العائلات اليهودية في مصر ، المقابل المصري لآل وولورث.

قال منير بلهجة أمريكية: "لم نرك منذ مدة طويلة!" فكرت في مدي بلاهة طريقته المصطنعة في الكلام. نظرت إليه وحييته. فقال غامزاً: "كيف تمضي بك الحياة يا صاح؟ بالتأكيد سوف نمضي أوقاتاً مرحة معاً."

لم أرفع نظري عن طبقي متخيلاً هذا الغبي يرقص طرباً في مقعده لتغزل الحاضرين بلهجته الأمريكية

المحببة . أخذت أختلس النظر إلي الفتاة سلفا من آن لآخر. بدا لي أنها لا تكف عن الابتسام لمنير.

هتف منير إلي مجدداً: "هاي رام، ما الذي أسمعه عن كونك أحمر؟ لا تسمع لهذا الهراء يا صاح. أنا سوف أخبرك بما سيجعلك تعيد النظر."

أنا لم أكن أحمر ولا وردي اً ولا أزرقاً ولا أسود اً ولا أي لون آخر. أنا لم أكن أهتم بالسياسة في ذلك الوقت. كذلك لم أكن أعتبر قيام الثورة والتخلص من فاروق سياسة.

قلت له: "سأنتظر أن تفعل ذلك." كانت لهجته الأمريكية، سواء كان يصطنعها أم لا، تجعله في نظري يبدو أحمق.

استطرد موجهاً كلامه إليّ وإلي جميع الضيوف: "صدقوني إن الديمقراطية الأمريكية هي السياسة ال مثالية. انتظر حتى تري ما سيفعله هذا البلد." كان الجميع ينظرون إليه ويهزون رؤوسهم موافقين علي آرائه الحكيمة.

"لقد شاهدت بنفسي روعة هذا البلد. إن هذا بلا شك هو البلد المثالي بالنسبة لي."

كنت قبل قليل في السويس بصحبة طلاب من الفدائيين الذين يقاتلون الإنجليز في منطقة القناة. ثلاثة من أصدقائي قتلوا، بينما فونت مازال يرقد في المستشفي بعد أن استخرجت رصاصة من فخذه.

استطرد منير، مستمتعاً بالموافقة الرخيصة للجمهور المؤيد، موضحاً خطر "ال مد الأحمر " وأهمية مواجهته. "يجب أن نكون متيقظين. انظروا ما حدث للصين."

سألته عما حدث للصين، فلم يعرف بم ا يجيب. لم يعرف أن هناك ثمة تفريق عنصري في أمريكا. لم يسمع مطلقاً بساكو أو فانزيتتي. لم يعرف ما المقصود بالأنشطة المعادية لأمريكا. لم يكن يعرف بوجود المسكين بيترو ريكانز، أو أي مسكين آخر في أمريكا. من يكون بول روبنسون هذا؟ هنود حمر دون جنسية كاملة؟ عن أي شيء أتكلم؟ لابد أني مجنون. كل ما كان يعرفه أنه أمضي ثلاث سنوات في أمريكا التقط خلالها عبارات الأمريكان الداجنة ومنح درجة علمية، ثم عاد ليحصل علي منصب مرموق في إدارة أملاكه. إن ما يقرفني أنه كان

يعرف أنه سيحصل حتماً علي هذا المنصب. ما يقرفني أنه، بغض النظر عني وعن فونت، فإن كل الطلاب الذين يموتون في السويس ينحدرون من أسر فقيرة. كما أن ‘‘منير وشركاه’’ سوف تستعبد الناجين منهم.

قال منير: "إن إنجلترا يجب أن تبقي في السويس لتحمينا من الطاعون الأحمر."

سياسة أم لا، كان هذا أكثر من كاف بالنسبة لي كي أخبره أن يمسح مؤخرته "بديمقراطيته الأمريكية". لا أتذكر ما حدث بالضبط لكننا وصلنا إلي نقطة الاشتبلك بالأيدي. بالطبع أخذت أمي في البكاء. فرقنا الخدم، بينما اقترح شخص ما استدعاء البوليس.

وجدت نفسي في الشارع. ولكن ي، للغرابة، كنت في مزاج حسن. حتى أنني أغرقت في الضحك حين تذكرت كيف أخذت خالتي تصيح: "مجرم، قاتل." كان الوقت قد تأخر علي اللحاق بترام الهرم، لذا فقد شرعت في قطع مسافة السبعة أميال التي تفصلني عن المنزل مشياً علي قدميّ. فكرت أن أمي قد تلحق بي علي الطريق، فقد كانت

السيارة لا تزال في حوزتها في ذلك الوقت. سمعت صوتاً ينادي اسمي، لكنني واصلت السير ولم التفت. ثم سمعت خطوات تعدو خلفي : "قف، عليك اللعنة!" صاحت الفتاة سلفا.

"ماذا تريدين مني؟"

" أمك تخبرك أن باستطاعتك أن تأخذ السيارة."

"وكيف سترجع هي؟"

"والداي سوف يقلونها للمنزل." شرعت في العودة معها.

"أنا بنت. . . ."

"نعم، نعم، أعرف. أنت ابنة عائلة سلفا الثرية." أدرت محرك السيارة متأهباً للرحيل، فاستوقفتني قائلة: "هل لك أن تقلني إلي منزلي؟"

"لماذا؟"

"انتظر قليلاً ريثما أحضر حقيبتي."

عادت بعد دقائق. قدت السيارة في صمت لبرهة، ثم قررت فجأة أن أذهب لزيارة فونت في المستشفي. كان

ينزل مستقلاً في غرفة، وكنت أعلم أنه بإمكاني الدخول حين أريد.

"أنت تسكنين في مصر الجديدة، أليس كذلك؟"

"نعم."

ذهبت أولاً إلي شقتي بالزمالك وسألتها أن تنتظرني لدقائق. صعدت إلي الشقة وأحضرت زجاجة نبيذ وكأسين، ثم أخذت كأساً ثالثة.

سألتها حين عدت إلي السيارة: "لماذا غادرت الحفل؟"

"هل ستحاول غوايتي بزجاجة النبيذ هذه؟" سألت متجنبة الإجابة عن سؤالي. أخبرتها عن فونت الذي يرقد في المستشفي، وعن رغبتي أن أحكي له ما جري في منزل خالتي.

"هل تذهب إلي السويس عادة؟"

"أنا لا أذهب، لكن فونت يذهب بانتظام."

"كم يبلغ فونت من العمر؟"

"الواحدة والعشرين."

"وهل أنت في الواحدة والعشرين أيضاً؟" أومأت إيجاباً.

"أنا في الرابعة والعشرين." أخبرتني دون أن أسألها.

صاحبتني إلي المستشفي، فتسللنا خلسة إلي غرفة فونت. عرفته إلي إدنا ثم جلسنا علي الجانب الأخر من سريره. فتحت زجاجة النبيذ، ثم أخبرته عما حدث مع منير.

"لقد فرحت كثيراً حين ضربته." قالت إدنا.

فاجئني ما قالت، فقلت لها: "لقد ظننت أنك كنت تبتسمين له طول الوقت."

"أنا لا أطيقه. لا هو ولا أياً من الحاضرين."

"حتى والديك؟"

"هم بالذات."

ضحكت

"علام تضحك؟" كان فونت من سأل.

"نزوة فتاة ثرية."

"لا. ليست نزوة." ردت بهدوء، فصدقتها. كانت هذه هي المرة الأولي التي جعلتني فيها إدنا أخجل من نفسي،

فقد كنت أدرك أن تصرفي في منزل خالتي كان ، جزئياً ، بدافع من نزوة.

سألت إدنا فونت كيف أصيب، وأمضينا الليل بطوله نتحدث. كنا حذرين ألا نذكر إسرائيل في حديثنا، لأن إدنا يهودية. لمست يدها بصورة عرضية، وبطريقة ما بدا طبيعياً أن تتعانق يدانا لبقية الأمسية. كانت ليلة سعيدة، وقد جعلني النبيذ وجمال الفجر وجمال إدنا أشعر أنني غارق لأذنيّ في الحب.

غادر فونت المستشفي بعد ذلك بفترة قصيرة. أصبحنا نري إدنا يومياً تقريباً. كانت تأتي أحياناً إلي الجامعة لتقلنا بسيارتها، وكنا نقود السيارة لساعات علي الطريق الصحراوي إلي الإسكندرية. كنا أنا وفونت شابين خجولين. وكنا مختلفين كلياً عن باقي رفاق الدراسة، بالرغم من مشاركتنا لهم في حب الخمر والمقامرة . فقد كنا قارئين شغوفين. كان فونت يقيم معي ووالدتي في ذلك الحين. فقد توفي والداه، وقد كنا أصدقاء منذ الطفولة. كنا نستخدم

معاشه لتغطية نفقاتنا الشخصية ودفع ثمن الكتب، بينما كانت أمي تتحمل مصاريف البيت. لم نرتب الوضع علي هذا النحو، بل جاء ذلك تلقائياً. كنا نقرأ بشغف هائل؛ أحياناً كنا نقبع في غرفتي لأسابيع نقرأ الكتاب تلو الآخر. كنا فقط نقرأ، ولم نكن نناقش ما نقرأ.

بالنسبة لنا الشيء الوحيد الهام الذي حدث كان قيام الثورة. ولقد أيدناها بكل كياننا، تلقائياً وبدون أي تفكير أو فلسفة. وبدون أي تعصب كذلك. المرة الوحيدة التي أبديت تعصباً وانفعلت دفاعاً عنها كانت حين سمعت منير يصرح إن البريطانيين ينبغي لهم أن يبقوا في مصر. وكانت هذه أيضاً المرة الأولي التي أتحدث فيها عما قرأت: حوادث التفرقة العنصرية كحادثة ساكو أو فانزيتي كانت من ضمن ما قرأت في آلاف الكتب التي التهمتها التهاماً. لو أني كنت أتحدث إلي شخص من نوعية مخالفة لنوعية منير، لربما كنت تحدثت كذلك عن اغتيال كارل راديك والثوار البولنديين. لكنني كنت أقرأ بتباعد؛ كنت مهتماً فقط بالحدوتة.

عندما بدأت إدنا تخبرنا عن الاشتراكية والحرية والديمقراطية، قلنا نعم، هذا ما قامت الثورة لتحققه؛ الثورة ستحقق كل ما هو خير. بداية، محاولة إدنا لتثقيفنا سياسياً لم تكن زاعقة أو ملحوظة. بسلاسة شديدة، كانت تحدثنا عن المقهورين في أفريقيا وآسيا، وحتى في بعض البل دان الأوربية. أصبحنا أنا وفونت نقرأ الكتب بعين جديدة مهتمة. كلما قرأنا، ازداد إحساسنا بالجهل، وبأننا نريد أن نعرف أكثر. أدركنا، للمرة الأولي، لم لم نكن نريد بقاء القوات البريطانية في منطقة السويس، حين استوعبنا التاريخ الاستعماري للمملكة المتحدة. كنا نصيح كالآخرين "الجلاء التام أو الموت الزؤام"، دون أن نفهم لماذا كان الجلاء هاماً جداً وحيوياً بالنسبة لمصر. بالتدريج أصبحنا ننظر لأنفسنا كجزء من الإنسانية عموماً، وليس فقط كمصريين.

أصبحنا نشعر بعدم الرضا عن دراستنا الجامعية، ولكن ذلك لم يجعلنا نبذل مزيد اً من الجهد. إن لم نكن نلعب

البلياردو ونشرب البيرة، كنا إما بصحبة إدنا أو في غرفتنا نلتهم المزيد من الكتب السياسية.

لم نصبح أنا وإدنا حبيبين مباشرة. كنت أعرف في الجامعة كثيراً من الفتيات المشتغلات بالسياسة، لكنهن كن يزدرين الاتصال الجسماني مع الرجل. لذا كنت أحب إدنا حباً صامتاً خشية أن تكون مثلهن. فبدأت أصب عواطفي تجاهها في السياسة. أدركت أن الرجل الذي تكون السياسة لديه مشحونة بالعاطفة يملك جاذبية خاصة.

عرفتني إدنا بالشعب المصري، فمن الصعب معرفته في الوسط الذي ننتمي إليه. أخبرتني أن الناس الذين نعيش وسطهم، ملاك الفيلات ورواد نادي الجزيرة الرياضي وسباق الخيول الذين يلبسون علي الطراز الأوربي ويقومون برحلات لأوربا كل صيف، ليسوا هم المصريون الحقيقيون. أخبرتني أن القاهرة والإسكندرية تعتبران مدينتين عالميتين لا لتواجد العديد من الأجانب فيهما، ولكن لأن المصريون الذين يعيشون فيهما غرباء لا ينتمون إلي الأرض.

أخذتني إدنا ذات مرة إلي شقة يملكها والدها قرب مصر القديمة، وكانت هذه الرحلة هي الأولي في سلسلة من الرحلات قمنا بها، حفاة القدمين مرتديين الملابس القروية، إلي الأحياء الفقيرة في القاهرة والقرى الصغيرة المجاورة لها. في الزيارة الأولي جعلتني أجلس متربعاً علي الأرض وطلبت مني أن أمشط لها شعرها. جلست أمامي ونزعت الدبابيس من شعرها، فسقط علي ظهرها حتى المنتصف . مشطته، ثم ضفرته وربطت أسفله بالشرائط. علي السرير كانت تقبع الملابس القروية التي كان علينا ارتداؤها.

"هل أنت حزين؟" سألت دون أن تدير رأسها.

"قليلاً." كان ذالك الحزن الهادئ الذي. . . حسناً، الذي يعتري الرجل حين يمشط شعر المرأة التي يحب ولكنه لا يشعر أنه جدير بها.

"الآن يجب أن نبدل ملابسنا بهذه الملابس." قالت دون أن تبدي حركة.

"نعم."

"هل تمانع إذا بدلت ملابسي أمامك؟"

"لا تفعلي، يا إدنا."

"لماذا؟"

لم أجبها.

"ألأنك تحبني؟"

أخذت أحملق في مؤخرة عنقها دون أن أجيب.

"أنا أكبرك بأربع سنوات."

"وهل يهم؟"

"لا، لا يهم."

بعد برهة سألتني إذا ما كنت ساذجاً كما يبدو علي.

ملت علي رقبتها وقبلتها.

"أنا لست ساذجاً، ولكنني متوتر لأنني أحبك.؟"

"قلها مجدداً."

"ماذا؟"

"إنك تحبني."

"أنا أحبك."

بدون وعي منا، أصبحنا أنا وفونت نهتم أكثر لما نقرأ سواء في السياسة أو في غيرها. وأصبحنا، تحت تأثير إدنا، نتناقش فيما نقرأ.

وأخذ العالم الآخر، حيث الثلوج في الشتاء والأسقف الحمراء المائلة، يلوح لنا: عالم كبير خيالي حيث يعيش المثقفون؛ وحيث يشارك الطلاب صديقاتهم عاملات الطباعة الغرف، يغنون ويشربون البيرة في أكواب كبيرة. عالم هو مزيج من كل المدن الأوربية حيث بيكاديللي يقود إلي الشانزلزيه؛ حيث توجد قطارات الأنفاق ، والشوارع المرصوفة بالحجارة ، والريف الشديد الخضرة الذي لم نره قط، والجراند أوتيل ، ومصانع فيات ، ومصارعة الثيران؛ حيث يعتنق عمال المناجم الشيوعية، بينما يمتلك رجال الشرطة نزعة فاشية؛ حيث هناك ما يسمي اليسار والبرجوازية وصاحبة النزل؛ حيث يطلق الأمريكان الفوضويون شديدي التباهي بأنفسهم لحاهم؛ حيث تعيش عائلة كريستوفر إيشروود؛ حيث للسويسريين أعلي دخل في

العالم؛ حيث يسكن الشعراء السقيفة، وحيث هناك حمامات سباحة ملحقة بالمنازل.

أردت أن أحيا. قرأت وقرأت، وتحدثت إدنا وأردت أن أحيا. أردت أن أقيم علاقات غرامية مع كونتيسات، وأن أقع في غرام عاملة بار، وأن أبيع الهوى، وأن أصبح زعيماً سياسياً، وأن أربح في مونت كارلو، وأن أكون متشرداً في لندن، وأن أصبح فناناً، وأن أكون أنيقاً، وأن أرتدي رث الثياب.

في اليوم السابق لبداية العطلة الصيفية كنا ننتظر إدنا أنا وفونت عند بوابة الجامعة. في ذلك الوقت يتوجه الأثرياء إلي الإسكندرية لقضاء العطلة. قال فونت "ها نحن علي أعتاب عطلة الثلاثة أشهر: الشواطئ المزدحمة، التباهي بالثراء، المقامرة، الملاهي الليلية، وكل فتيات العائلة يردن حباً أفلاطونياً، بينما يشذب الفتيان شواربهم، ويستعرضون علي الشاطئ متباهين بالسيارات والعلاقات العاطفية الوهمية. نفس الشيء التافه. . . لا حياة."

"نعم. الحياة في أوربا."

لا أعلم إذا كانت إدنا قد قررت مسبقاً، لكنها، وعلي غير توقع، خرجت علينا بخطة لأخذنا إلي بريطانيا لقضاء الثلاثة أشهر. لم استطع قط سبر أغوار نفسها لأعرف حقيقة ما تفكر به. لم صادقتنا أنا وفونت، وأخذت علي عاتقها مهمة تثقيفنا سياسياً، وأقامت علاقة معي؟ لم استطع قط أن أجزم، وفي الواقع لم أفكر في ذلك آنذاك. ربما لأن ثلاثتنا تلقّي تعليماً إنجليزياً؛ ربما لأنها كانت تشعر بالوحدة؛ أو أنها اعتبرت ذلك واجباً اجتماعياً عليها. لم تخبرني قط أنها تحبني. ولو فعلت، ما كنت لأصدقها. كنت أتصور أن تحب إدنا شخصاً جاد اً قوي الإرادة يخلص لقضية كبري تحترمها هي، وكنت أنا بعيداً جداً عن ذلك. ربما أعجبت بي بسبب تلك الواقعة في منزل خالتي، لكنها كانت أذكي من أن تنخدع بهذا المشهد المبالغ فيه. علي أية حال، فقد عرضت أخذنا إلي بريطانيا علي نفقتها.

إذا ما أراد أحد أن يسافر، فإن عليه أن يستخرج جواز سفر: يملأ استمارة، ويقدم وثيقة ميلاده وبعض المستندات الأخرى، فيحصل علي جواز السفر مباشرة_ وهذا حقه الموروث. كانت قصة جوازات السفر هي ما ولدت حيرة فونت قبل أن نصل حتى إلي تطبيري. لقد أمضينا ثلاثة أشهر ويوماً في محاولة لاستخراج جوازات السفر. خلال الثلاثة أشهر كنا وحدنا. ولم يفلح تقديم أي كم من المستندات أو المبررات لسفرنا، أو حتى الوساطة، في استخراج الجوازات لنا. ثم قابلنا صديق قديم لنا يحتل أبوه مكانة مرموقة في الجيش، فاستخرج لنا الجوازات، في يوم واحد، بمجرد إعطاءه صورتين. كما أنه استخرج لنا تأشيرات المغادرة في غضون نصف ساعة.

فقال فونت: "كما لو كنا مجرمين أو شيء من هذا القبيل. تصور أن نحتاج لتأشيرة لمغادرة البلد! ثم وبعد ثلاثة أشهر من الشقاء، يأتي أحدهم فيحصل عليها خلال نصف ساعة. إن هذا لشيء مقزز. حين أفكر أنني كنت

أخاطر بحياتي من آن لآخر في السويس لأجل بلد لا تزال الوساطة العنصر الفاعل فيه. . . !"

"فقط، امنحهم بعض الوقت يا فونت. فلم يمض وقت كبير علي توليهم السلطة."

"كلا." أجابني. بعد ذلك، أصبح فونت من يجد لهم الأعذار: "إن أقل من واحد في الم ائة من عدد السكان يريدون، يستطيعون، أو مضطرون إلي مغادرة البلاد. إن هذه السفسطة الديمقراطية التي تقضي بأن من حق المرء أن يحصل علي جواز للسفر محمودة في بلاد لا يتضور ثمانون في الم ائة من تعداد سكانها جوعاً. فما ذا يعني التضييق علي نسبة الواحد في الم ائة الضئيلة تلك. " لكن هذه الحادثة لم تكن كل شيء، فقد كان أمام فونت الكثير ليتعلمه.

لقد كتبت بعد ذلك بسنوات إلي شخص في مصر أنصحه بألا يلحق أبناء ه بمدارس إنجليزية. فإذا كان ابنه من هؤلاء الذين يصدقون كل ما يقال لهم، فسوف يتملكه القرف يوماً ما. في المدرسة كنا أنا وفونت من هذه النوعية

من التلاميذ. كنا نقيم كل شيء بمعايير الشرف، ولا ندخن ونحن نرتدي سترات المدرسة لأننا قطعنا وعداً بألا نفعل ذلك. كنا دائماً نتوقع لعباً نظيفاً من جانب البريطانيين، وعلي الرغم من كونهم بعيد ين كل البعد عن ذلك، فقد صورت لنا حماقتنا أنهم سيلتزمون بما اعتادوا إقناعنا به عن ‘‘اللعب النظيف ’’. ربما كان وراء هتافنا ضد الإنجليز قناعتنا بأنه إذا ما انتبهوا إلي كون ما يفعلون في مصر لا يعد ‘‘لعباً نظيفاً ’’، فإن ذلك سيجعلهم يرحلون. بالرغم من كل الكتب التي قرأناها عن قسوة ودناءة السياسة الخارجية لبريطانيا، لم نصدق ذلك تماماً إلا بعد حرب السويس. بالطبع كانت هكذا حروب تتكرر باطراد في بلدان إفريقيا وآسيا قبل حرب السويس. أقول ذلك الآن بسبب ما حدث عندما حاولنا أن نحصل علي تأشيرات الدخول إلي بريطانيا.

عندما حصلنا أخيراً علي جوازات السفر وتأشيرات الخروج، أسرعنا إلي السفارة البريطانية للحصول علي

تأشيرات الدخول إلي بريطانيا. كان الموقف في السويس قد هدأ قليلاً، و بات يسمح للمصريين بالسفر إلي ب ريطانيا، والعكس صحيح. ملأنا استمارتين. سألنا الموظف إذا ما كنا مسافرين للسياحة، فرددنا بالإيجاب. ثم سألنا عن اسم المدرسة التي كنا ندرس فيها . أخبرناه، فتوكنا لمدة عشر دقائق ثم عاد ليخبرنا أنه جد آسف، لكنه لا يستطيع منحنا تأشيرات دخول إلي بريطانيا.

ذهبنا لمقابلة ناظر المدرسة التي كنا ندرس فيها، وقد كنا نحبه كإنسان. اتصل بصديق له في القنصلية ليري لم يمنعون عنا التأشيرات. صاح في محدثه عبر الهاتف: "بحق السماء يا رجل، هذا ليس بسبب منطقي لمنع التأشيرات عن هذين الشابين." وضع السماعة ثم أخبرنا أنهجد آسف، لكن ليس في استطاعته أن يفعل شيئاً لأجلنا. قدم لنا سيجارتين قائلاً أنه يقدر خيبة أملنا . قال فونت إنه مشمئز أكثر منه خائب الأمل.

تحدث إلينا الناظر في هدوء، لكن دون مواربة. أخبرنا أن القضية برمتها قضية سياسية. "إن هذه المدرسة تستقبل

فقط أبناء الأثرياء من المصريين والعرب الذين، كما كان يُأًُمل، سيحكمون البلد بعد آبائهم لمصلحة بريطانيا العظمي. ولكونكما أنتما الاثنين من الأقباط، بينما الحكومة الجديدة مسلمة خالصة، لا يعبأ أحد بإعطائكما التأشيرات." كان يبدو عليه الألم.

"لم ترغبان في الذهاب إلي بريطانيا علي أية حال؟" سألنا.

فقلت له: "لا أدري تحديداً يا سيدي. ربما لنري ماذا يكون شكل الحانات. أو ربما لنسير في بيكاديللي ، أو لنستمع في ركن المتحدثين."

ابتسم، ثم استرد هيئة الناظر وقال بسلطة: "اذهبا إلي السفارة السويدية، وتقدما بطلب للحصول علي تأشيرات دخول إلي السويد. ثم تقدما بطلب إلي السفارة البريطانية للحصول علي تأشيرات مرور عبر الأراضي البريطانية. لن يستطيعوا أن يرفضوا طلب اً كهذا . وسأكتب أنا إلي شخص ما في إنجلترا عليكما أن تتصلا به حالما تصلان

إلي لندن." كتب لنا عنوان هذا الشخص، وصافحنا مودعاً ومتمنياً لنا قضاء وقت ممتع.

في السفارة السويدية، منحونا تأشيرات الدخول بأدب جم، بينما أعطانا الموظف في السفارة البريطانية تأشيرات المرور عبر الأراضي البريطانية، مظهراً بوضح أننا لا ينبغي أن نبقي في بريطانيا أكثر من العشرة أيام الممنوحة لنا . "سأبقي لعشر سنوات لو أردت أيها الحقير الماكر ." قال فونت وراء ظهر الموظف.

كانت إدنا قد سبقتنا إلي أوربا، بعد أن دفعت كلفة سفرنا، علي أن تقابلنا في لندن. كانت في سويسرا في ذلك الوقت بصحبة والديها.

أمضينا أنا وفونت الجزء الأكبر من ليلة سفرنا جلوساً في غرفتي نتحدث. ولقد كونت العديد من الصداقات مع رجال ونساء آخرين، لكن أياً من هذه الصداقات لم تبلغ الدرجة من الحميمية التي كنا نتمتع بها أنا وفونت في ذلك الوقت. لقد قتل التعقيد العقلي الأوربي فينا شيئاً جميلاً وطبيعياً؛ قتله إلي الأبد وبغير رجعة. يبدو لي الآن أننا

فقدنا في أوربا أفضل ما كنا نمتلك. فقدنا المنحة التي وهبت لنا مع الولادة، شيء لا يمكن وصفه لكنه موجود تحت السطح، والأكثر من ذلك إنه فطري. وقد فقدناه إلي الأبد. ولأن من يعون كنه هذا الشيء لا يقدرون علي الاحتفاظ به، فقد فقدت نفسي الفطرية بالتدريج. لقد أصبحت شخصية في كتاب وصنعاً مبتكراً من صنائع المخيلة. أصبحت ممثلاً ومتفرج اً في مسرحية مرتجلة من تأليفي، مشاركاً ومتفرجاً في آن_ أصبحت شخصية روائية.

رحلنا أنا وفونت إلي لندن. إلي أوربا التي كنا نحلم برؤيتها، إلي ‘‘الحضارة’’ و‘‘الثقافة’’ و‘‘حرية الرأي’’ و‘‘الحياة’’. رحلنا ولن نعود أبداً، علي الرغم من أنه قدر لنا الرجوع إلي مصر.

أبحرنا من بورسعيد إلي تلبيري. كان أول ما فعلنا علي ظهر السفينة أن طلبنا خليطاً من بيرة إنجليزية الصنع. كان طعمها مائعاً، لكننا لم نبال. فقد كان يكفي أنها ما

اعتاد الإنجليز شربه. ثم، جربنا قائمة من مشروبات كنا نسمع بها ولم نتذوقها قط.

حالما وصلنا إلي تلبيري، ذهبنا لمقابلة إدنا في محطة أوستن، حسبما أتذكر. كانت تقف هناك في انتظارنا، جميلة جداً ومتأنقة. لا أذكر الكثير مما حدث في ذلك الوقت، لكننا كنا نشعر بالسعادة نحن الثلاثة. وكنا أنا وفونت نشعر بالامتنان الشديد نحو إدنا، فمجرد وقوفنا في شوارع لندن كان متعة لنا.

نزلنا في فندق قرب هايد بارك. في اليوم التالي كتبنا إلي دكتور دنجايت، الرجل الذي نصحنا ناظر مدرستنا القديمة بالتوجه إليه، فرد علينا من فوره داعياً إيانا لقضاء عطلة الأحد معه وأسرته في منزله في هامبستيد.

كان جيداً من إدنا ألا تتحدث إلينا عن السياسة في هذه الأيام الأولي لنا في لندن. الشيء الوحيد الذي فعلته آنذاك كان تقديم جريدتي ‘‘نيوستاتس مان’’ و‘‘جارديان’’ لنا. ذهبنا إلي العديد من المسارح، كما ذهبنا مرتين إلي البرلمان. كما قلت سابقاً، أنا لم أظن قط أن إدنا تحبني.

وخلال هذه الأيام الأولي في لندن تأكد لي ذلك، فقد كنت معتمداً كلياً عليها. كنت أتبعها بوداعة متمنياً أن تشعر نحوي بأكثر من المحبة والصداقة، لكن المرأة لا تحب إلا رجلاً يسيطر عليها، ولو قليلاً. كانت تتخذني حبيباً أحياناً، وكنت أنا من الحكمة بحيث لا أظهر لها حبي الشديد. ربما كان ذلك ما يجتذبها نحوي، فقد كان يضفي شيئاً من الغموض علي علاقتنا. فالنساء يخلطن أحياناً بين الفضول والحب.

يوم السبت، كنا نتناقش فيما ينبغي علينا فعله، وقررنا أنا وفونت أنه ينبغي علينا ألا نذهب إلي منزل الدكتور دنجايت خالين اليدين.

"لا تكونا أحمقين." قالت إدنا. "ليس عليكما أخذ أي شيء معكما. أنتما في إنجلترا الآن، وليس في مصر."

وافقناها، لكننا اشترينا بعض الزهور في طريقنا علي أية حال. كنا لا نزال نتمتع بفطرتنا السليمة في ذلك الوقت. كانت فطرتنا تملي علينا ألا نذهب خالين اليدين، فلم

نفعل. إذا قال لنا أح د "لا تكونا شرقيين في تصرفاتكما"، كنا لنتساءل "وكيف لنا أن نكون غير ذلك."

وقفنا راضين في طابور ننتظر الأتوبيس في بارك لاين.

"هاك يا حبيب" قالت المحصلة التي تبلغ الأربعين من عمرها، فشكرها فونت بلهجة سكان لندن_ كنا نحب أن نتحدث كما يتحدث اللندنيون، فقد كان ذلك يشعرنا أننا في لندن حقاً. كنا نحن الاثنين فقط نشغل الطابق العلوي من الحافلة، فأخذت المحصلة تتحدث إلينا.

"يا للفتاة المحظوظة." قالت مشيرة إلي الزهور.

"في الحقيقة، لقد ابتعناها لأجل رجل." قلت لها.

"لابد أنك تمزح."

"حسناً، إنها لأجل عائلة في الواقع."

"الزهور جميلة في كل الأحوال ومبهجة. واثقة أنها ستبهجهم كثيراً."

"أشكرك."

"أنتما لستما إنجليزيين. أليس كذلك يا حبيب."

"كلا. نحن مصريان."

"مصريان. تصور ذلك الآن. وهل يعجبكما الحال هنا؟"

"نعم، كثيراً."

"تصور أن أقابل مصريين الآن بينما ابني ستيف عائد لتوه من . . . حقاً لا اذكر اسم ذلك المكان. . . ."

"السويس."

"نعم، السويس. هو يقول إنه كان سعيداً كونه ذهب إلي هناك. لقد عاد من هناك في سمرة الهنود بفعل الشمس والسباحة. هو يقول إنه مكان جميل."

"سعيد أنه أعجبه." قال فونت.

"يجب أن تأتيا لشرب الشاي معنا الأسبوع المقبل. أنا متأكدة أن ستيف سيسره كثيراً التعرف عليكما."

"شكراً لك." قلنا نحن الاثنان معاً.

"يقول ستيف إنه لم تتح له الفرصة للتعرف بالسكان المحليين هناك بسبب تعليمات الجيش وما إلي ذلك. لذا فأنا واثقة أنه سيسر بمقابلتكما."

"شكراً لك." كررنا معاً.

"هل أمضيتما فترة كبيرة هنا، يا أحبائي."

"حوالي الأسبوع فقط."

"أتوقع أن تشعرا بالبرد هنا. يجب عليكما أن تتوخيا الحذر يا أعزائي. ألبسا شيئاً دافئاً قرب الجلد حت ى لا تمرضا. هذا منزلنا هناك، رقم 12. فلا تنسيا أن تحضرا يوم السبت، وربما نتوجه بعد ذلك إلي الحانة المجاورة لتناول الجين." قالت ذلك غامزة. كان اسمها السيدة وارد. كتبت لنا العنوان علي ظهر تذكرة، ثم أسرعت بالنزول إلي الأسفل. نزلنا من الأتوبيس في هامبستيد الغربية، ولوحنا لها.

قطعنا الطريق في صمت إلي هامبستيد عبر سويز كوتيدج. الأتوبيسات ذات الطابقين، والأسطح المائلة، وقطارات الأنفاق كانت كلها هناك. مشينا وتفرجنا وأحسسنا أن تدافع الناس في محطة هامبستيد يخترقنا. هامبستيد كانت تمثل إنجلترا أكثر من نايتسبريدج.

كان منزل الدكتور دنجايت شبه المنعزل يقع في شارع ضيق منحدر. قرعنا الجرس، ثم انتظرنا قليلاً. توقعت أن يفتح لنا الباب شخص شبيه بناظر مدرستنا.

"هل تتوقع أن يفتح لنا الباب كبير السقاة؟" سأل فونت.

"بالطبع. جييفز بنفسه سيصحبنا للداخل منادياً اسمينا بعربية ممتازة، ويسألنا إذا ما كنا نريد بوظة، أو أي شيء يشربه المصريون أمثالنا."

لكن، بدلاً من ذلك، سمعنا صريراً، انفتح الباب علي أثره بمفرده.

"ادخلا، ادخلا أيها الشابين." جاءنا صوت رجل من أعلي السلم. "علقا معطفيكما، واصعدا إلي هنا. هل وجدتما صعوبة في الوصول إلي هنا؟"

"لا، يا سيدي" صحنا معاً كتلاميذ المدارس. علقنا معطفينا، ثم صعدنا إلي الطابق العلوي. كان رجلاً طويلاً في انتظارنا أعلي السلم متكئاً علي الحاجز. كان يرتدي سترة قديمة من التويد، ضيقة وقصيرة جداً من الخلف، مخيط بها قطعة من الجلد تحت المرفق.

"حسناً، أيكما رام وأيكما فونت؟ سألنا.

رد فونت: "أنا فونت. لكنني استغرب معرفتك لهذا الاسم، فهذا الاسم يناديني به أصدقائي."

ضحك الدكتور دنجايت قائلاً: "ها. إن معي هنا سيرتكما الذاتية."

صافحنا بحرارة شديدة. "أنتما علي الرحب والسعة هنا. لا أريدكما أن تشعرا للحظة أنكما غريبان. تعالا وقابلا عائلتي." ثم لمح الزهور، فقال: "ها، هذه الزهور للماما؟ إن هذا للطف شديد منكما ! إنها في المطبخ الآن، سنذهب إليها بعد أن أعرفكما علي أبنائي."

كان هناك ثلاثة بنات في عشرينياتهم، وابن في حوالي الثلاثين يشبه أباه كثيراً."هذي بناتي جاين وباربرا وبريندا، وهذا ابني جون." تصافحنا جميعاً، ورحبوا بنا قائلين "أهلاً رام." "أهلاً فونت."

"الآن، تعالا لتقابلا الماما. لقد حرصت علي إعداد غداء تقليدي لأجلكما، وهي تتأكد من كونه علي أفضل ما يكون."

تبعناه إلي المطبخ. وضع يداً علي كتف كلٍ منا، ودفع بنا تقريباً إلي زوجته.

"ها هما، يا ماما"

كانت طويلة هي الأخرى، ونحيفة بعض الشيء. وكانت عينيها الزرقاوين تشعان بحيوية.

قالت السيدة دنجايت وهي تمسح يديها لتصافحنا: "ما أجمل هذه الزهور. إنه للطف بالغ منكما أن تفكرا في ذلك." صافحتنا وقالت إننا مرحب بنا في بيتها. بعد ذلك، رجعنا إلي حجرة الجلوس.

جلسنا أنا وفونت مكتفي الأذرع، خجولين بعض الشيء، نرد علي الأسئلة التي توجه إلينا. علمنا أن ناظر مدرستنا أخو السيدة دنجايت، وأنه طالما أخبرهم عن حبه للمصريين. "لكنه لسوء الحظ، يواجه صعوبة في تقريب وجهات نظره مع من لهم الكلمة في المدرسة". كان الدكتور دنجايت يقرأ هذا الجزء من خطاب ناظرنا إليه، الذي يخبره فيه عنا.

"آه." أكمل الدكتور دنجايت مغفلاً صفحة من الخطاب. "بالنسبة لمشكلة التأشيرات، لا أستطيع أن أعدكما بشيء. فأنا لا أريد أن أعطيكما أملاً، لربما خاب. لكن، يجب عليكما أن تضعا في الاعتبار أنه إذا ما رفض المسئولون تمديد إقامتكما، فعليكما أن ترحلا في الوقت المحدد."

أخفض الدكتور دنجايت الخطاب، وأحني رأسه موجهاً إلينا من فوق نظاراته نظرة تجمع بين التسلية والقسوة. بينما وقفت السيدة دنجايت في فتحة الباب تستمع إلي ما يقال.

"لو كنت مكانكما، ما كنت لأرحل طالما لا أريد الرحيل." كان جون من قال ذلك.

"لا تزرع هذه الأفكار الحمقاء في عقليهما، يا جون." قالت أمه. "نحن جميعاً سنفعل ما في وسعنا لإبقائهما، لكن عليهما ألا يفعلا ما يخالف للقانون."

"أوليس بقاء ثمانية آلاف جندي بريطاني في السويس ضد إرادة مصر، مخالفاً للقانون؟" قام جون وأخذ يمشي في أرجاء الحجرة ويداه في عمق جيبه.

"جون، من فضلك."

"واثق إن كل جندي لديه تأشيرة دخول مدفوع ثمنها وموثقة من السفارة المصرية. وإلا ما كان لهم أن يكونوا في السويس. فنحن الإنجليز لا نخالف القانون أبدا. إن هذا مبدأ نجيد استخدامه جيداً".

قالت أحدي الفتيات: "سنعمل جميعاً علي بقاءكما."

"حسناً، حسناً. علينا أن نناقش الموضوع بهدوء لنري ماذا علينا أن نفعل. أنا سوف أسأل نائباً عن العمال في البرلمان. . . ."

"نائبا عن العمال!" سخر جون. "أبي، إنك ترفض أن تري هؤلاء النواب علي حقيقتهم. هل نسيت سير. . . ."

قاطعه والده: "أنا لا أستطيع كذلك أن أطلب من الشيوعيين مساعدتهم. هل أستطيع؟" دفع جون بيديه أكثر في جيبيه وجلس.

هل يثور الإنجليز حقاً علي قرارات ساستهم الظالمة؟ أخذ فونت يحملق في جون بإكبار، وقد بلغ حاجباه ارتفاعاً كبيراً.

قالت بريندا: "لا أظنك تكلم الشيوعيين لأجلهما حتى لو كانوا يستطيعون المساعدة يا أبي." بريندا هي الابنة الصغرى، وتبدو مختلفة بعض الشيء عن شقيقتيها. كانت ترتدي ثوباً بسيطاً إنما أنيقاً. وكانت تصفف شعرها بطريقة بسيطة كذلك. علي عكس شقيقتيها اللتين كانتا ترتديان البنطلون وتربطان شعريهما علي هيئة ذنب الفرس. علي الرغم من أن هذه التسريحة لم تكن تناسب الشقيقة الكبرى، باربرا، إطلاقاً.

نظر إلينا الدكتور دنجايت وعلي وجهه ابتسامة اعتذار، وقال: "في هذا المنزل أربعة اتجاهات سياسية مختلفة، ويتوقع الجميع أن أساند كافة هذه الاتجاهات بحماسة وإخلاص. فجون مثلاً كان عضواً في الحزب الشيوعي حتى فترة قريبة، أما الآن فقد تحرر من الأوهام. أما بريندا، فهي مازالت شيوعية متحمسة، حتى أنها خرجت اليوم الأحد في الثامنة صباحاً تبيع جريدة العمال اليومية. زوجتي ليبرالية، وابنتي الأخريين تصوتان لصالح حزب العم ال. تجد في هذا المنزل أربع جرائد مختلفة:

‘‘الجارديان ’’، ‘‘الدايلي هيرالد ’’، و‘‘الدايلي وركر ’’، بالإضافة إلي أربع جرائد أسبوعية أخري: . . . ."

"لقد نسيت ‘‘التايمز’’، يا أبي." قال جون.

"آه، نعم. و‘‘التايمز’’ أيضاً."

قالت جاين بابتسامتها الكسولة: "أبي، إننا نضجر رام وفونت بهذه المجادلات." كان يبدو أنها لا تعبأ كثيراً بالسياسة، لكنها أبدت اهتماماً بفونت.

فقلنا معاً: "إطلاقاً."

قالت: "أنا ذاهبة لاحتساء شراب قبل الغداء، من يريد مصاحبتي؟"

لم يرد أحد. فقامت وجذبت ذراع فونت قائلة: "تعال يا فونت. لنتناول الشراب معاً، بينما تحدثني عن النيل والأهرام."

كنت أرغب بشدة في تناول الشراب. ربما ليزيح عني هذه الحالة من الخمول التي يحدثها الامتنان والخجل. لحسن الحظ، قال جون: "لم لا نذهب جميعاً؟ تعال يا أمي."

"لا يا عزيزي. لا أستطيع الذهاب. كما أني لا أريد لأبيك أن يشرب اليوم، فعليه أن يعمل بعد الظهر، والشراب سوف يجعله نعساً."

"لكنني سوف آخذ فونت إلي حانة أخري، فأنا لا أريد الاستماع إلي المزيد من مناقشاتكم السياسية." صرحت جاين.

"حسناً يا فونت، لقد نلت المراد، فقد أعجبت جاين." قال أحدهم.

ضحك فونت محرجاً.

"سأحاول إغواؤك يا فونت، ألا تحبني ولو قليلاً؟" قالت جاين.

"لقد أحببتكم جميعاً." رد فونت.

قالت السيدة دنجايت: "أوه، أليس هذا لطيفاً؟ والآن هيا اذهبوا جميعاً، ولا تفرطوا في الشراب. الغداء في الثانية."

نزلنا جميعاً إلي الطابق السفلي، فأخذ الجميع يستعد للخروج. هناك نوع من الوحدة المحببة حين تستعد مجموعة من الناس للخروج. دائماً ما أرحب بها بعد التوتر

وانعقاد اللسان الذي يصاحب التعرف إلي أحد لأول مرة. كأن تترك حفلة في أوجها إلي هدوء الحمام، فيزيد الضجيج في الخارج من إحساسك بالخلوة. لبست معطفي ببطء متسائلاً إذا ما كان التعرف إلي هذه العائلة وقبول ضيافتهم أمر ممتع. هذه اللحظة، حين كنت ألبس معطفي، كانت البداية_ أحسست لأول مرة في حياتي أن نفسي تنقسم إلي جزأين: جزء يشارك في الأحداث، بينما الأخر يتفرج ويحكم. لكن هذا الانقسام لم يكن تاماً بعد؛ كان الجزأين يبدءان الجذب في اتجاهين مختلفين.

ذهبت جاين وفونت إلي حانة أخري قائلين إنهما ربما ينضما إلينا بعد ذلك.

أشارت باربرا في طريقنا إلي الحانة إلي نافذة وقالت إنها تسكن هناك.

"ألا تقيمن مع والديك؟"

"لا. بريندا فقط تقيم معهما. جون يسكن في شارع باكر، بينما تسكن جاين في سويز كوتيدج." أربكني ذلك فقد كان المنزل واسعاً بحيث يسعهم جميعاً.

شربنا جميعاً البيرة. كانت إدنا قد أخبرتنا إن العرف في إنجلترا يقضي أنه إذا دعاك أحد لشرب البيرة، فينبغي عليك أن تبتاع له كأساً أنت الآخر. أحببت أن أحمل الكؤوس إلي البار وأقول: "أربع كؤوس من البيرة من فضلك."

سألت بريندا: "هل أنت حقاً عضو في الحزب الشيوعي؟"

"هل أنا *حقاً* عضو؟ نعم، أنا عضو في الحزب الشيوعي منذ أن كنت في الخامسة عشر."

"ما رأيك في عبد الناصر؟"

"عبد الناصر." رفعت كأسها لتشرب نخب عبد الناصر.

"بالرغم من أنه يسجن الشيوعيين؟"

قال جون: "صحيح. كيف تشربين نخب من يسجن الشيوعيين؟"

قالت بدون أي تردد: "أنا أشرب نخب أي شخص يحارب الإمبريالية."

"أرأيت! لهذا السبب تركت الحزب. يقول لك هاري بوليت أن تؤيدي عبد الناصر، فتؤيدي عبد الناصر." قال جون.

"عزيزي جون، أنا أعلم جيداً لم تركت الحزب." ذكرني هدوءها بإدنا.

"لقد أقررت الأسباب الصحيحة لمغادرتي الحزب."

"الصحيحة لا الحقيقية."

"ها! تجعلين هناك فرقاً بين ''صحيح'' و''حقيقي''؟ أقول لك، لهذا السبب تركت الحزب. فالتكتيكات ''الصحيحة'' والدعاية لا علاقة لها بالحقيقة."

كنت استمتع بما يدور حولي. ليس لأن ما كنا نتحدث بشأنه ممتع في حد ذاته، لكن لأنني كنت أجلس في حانة في لندن مع ''المثقفين'' الذين كنت أقرأ عنهم في الكتب، ولأن الفتيات جذابات، ولأن جون شخص محبب. كان طبيعياً أن أحاول أن أ قارن ما أعايش مع الكتب التي قرأتها، وأن أقول لنفسي ها أنت وسط ''الحياة'' التي كنت تحلم بها.

قالت باربرا لجون إنها تتمني لو يرجع إلي الحزب فقط ليضع حداً لهذه المشاحنات مع بريندا. لكنهما استمرا في الحديث عن الانتخابات القادمة، وإذا ما كان علي الشيوعيين أن يصوتوا لصالح حزب العمال. فازدادت المناقشة سخونة، حتى أن باربرا شاركت في الحديث.

كنت فوق السابعة عشرة بقليل حين صوت في الانتخابات لأول مرة. صوت بإبهامي. أقصد أنني غمست إبهامي، باختياري، في الحبر، ثم بصمت حيث قيل لي أن أبصم في خانة مقابلة لاسم المرشح. سألني فتي اسمه كمال بالفرنسية: "ألا تريد أن تقضي ليلة رائعة هذه الليلة؟" أومأت، فقال لي: "انضم إلينا إذاً، حيث يقدم أفضل أنواع الويسكي. وذلك في مقابل بصمة." لم أفهم تماماً ما قال، لكنني تظاهرت بالمعرفة.

كنت قد التحقت بالجامعة في ذلك الوقت مخلفاً ورائي ركود الحياة المدرسية. كانت الحياة قد بدأت بالنسبة لي في الجامعة: المظاهرات وما يتخللها من هتافات حماسية ومواجهات مع الشرطة، وسرقة المواد المتفجرة من المعمل.

الحياة أخيراً. كما أنني كنت ملتحقاً بصفوة الكليات، كلية الطب. لم يكن يهم في الواقع إذا ما كانت عربيتي مزرية، أو أنني كنت، طبقاً لما يمكن أن يكون عليه تقرير جامعة كأكسفورد أو كمبريدج، ضليعاً في الآداب والرياضيات لا في علم الأحياء. لم يكن يهم أنني انتزعت مكان كان يجدر بأحد غيري، يمتلك مؤهلات أفضل، أن يشغله. لم يكن يهم كل ذلك، فقد كنت أنا من الصنف المحظوظ، فقط لأن لدي وساطة لم أسع حتى إلي استغلالها. لابد أن والدتي أو إحدي خالاتي دبرت الأمر. المهم إنني "قد قُبلت في كلية الطب، يا عزيزي."

ولقد اغتلنا شخصاً يدعي زكي بك. لا أتذكر من كان يرأس الحكومة في ذلك الوقت، لعله كان النقراشي باشا، لكن زكي بك هذا كان رئيس البوليس. كان قد حضر إلي كلية الطب مصطحباً معه خمسين من رجال الشرطة المتعطشين للدماء ودبابة مستهلكة. بعد العديد من التحضيرات الميكانيكية والمشاورات، وجهوا مدفع الدبابة باتجاهنا فوق سطح مبني الكلية. ثم سمعنا صوت انفجار.

حاول بعضنا الإمساك بما قذفت به الدبابة، لكنه لم يصل إلي أيدينا، ولكن سقط فوق سيارة خالتي التي كنت قد أخذتها دون علمها وأوقفتها في الصباح إلي جانب مبني الكلية. جعلني ذلك في قمة الغضب، لأن خالتي ستعرف أنني أخذت السيارة نظراً لوجود ثقب كبير في سقفها. لذا، فقد شاركت في قذف قنبلة صنعت للتو فوق سطح المبني علي القوة بالأسفل، قضت علي زكي بك.

لا أذكر جيداً لمن صوتّ آنذاك، لكنهم قدموا لنا الويسكي والفول السوداني بعد أن أخذونا في سيارات الكاديلاك للجان لكي نصوت. باستثناء كمال، لم يكن أحد منا قد بلغ السن القانونية بعد.

لم أعرف أن زكي بك مات إلا حين عدت إلي البيت. كان قد أمر رجاله بفتح كوبري قصر النيل أثناء عبور مظاهرة طلابية، فقتل ستة طلاب غرقاً. نظمت له في اليوم التالي جنازة محترمة تضم حوالي نصف رجال الشرطة، بالإضافة إلي آلاف المدنيين. وحفلت صحف المساء بصور للموكب المهيب التي يضم بعضها وجوه

العديد من علماء المستقبل الواعدين من بينهم كمال. كان هؤلاء العلماء أنفسهم من صنعوا القنبلة في اليوم السابق.

وكالعادة أقفلت الجامعة لمدة شهرين قضاها معظمنا علي شواطئ الإسكندرية.

عندما فتحت الجامعة أبوابها مرة أخري، كان علي أن أنضم إلي أحد الأحزاب السياسية. كان هناك الوفد، الأخوان (المسلمون)، التنظيمات الشيوعية، والأحزاب المنشقة عن الوفد.

كان الوفد يدفع جيداً، بشرط أن تكون خطيباً أو منظم مظاهرات جيداً. كنا نسمع أنهم يوفرون لأتباعهم السيارات والشراب المجاني في كازينو الأريزونا أو الأوبرج، لا أذكر أيهما. وبطبيعة الحال لم يكن هناك مجال لانتسابي إلي الأخوان كوني قبطياً. كما أنه كان من الممكن أن يأمروك بإطلاق الرصاص بدم بارد علي أي شخص وفي أي وقت. وكان عليك أن تظل علي نشاطك حتى والجامعة مغلقة. كانوا يدفعوا وعوداً بالجنة في الآخرة والدنيا. كانت التنظيمات الشيوعية، علي الرغم من سرية نشاطها، الأكثر

احتراماً، ذكاءً، نشاطاً ، وهدوءاً كذلك. لم تكن هذه التنظيمات تدفع نظير عضويتها، بل كان العضو معرضاً في أي وقت للسجن مما يجلب البؤس والشقاء لأسرته. أما الأحزاب المنشقة عن الوفد، فقد كانت الأكثر شعبية. وكان وينضم إليها الاشتراكيون والفوضويون وأشباه المثاليين والتقدميون ومشجعو غلق الجامعات، بالإضافة إلي معظم أبناء الطبقة الوسطي.

لم أنضم إلي أي حزب، وعددت نفسي بين من ينذرون أنفسهم لقضية الجلاء. كنت أول من يرجع إلي البيت حين تبدأ الاعتصامات أو المظاهرات ضد الإمبريالية البريطانية.

حضر كمال إلي المعمل ذات مرة وعلي وجهه لحية نابتة، مما يعني أنه قد انضم للإخوان. بادرني: "أيها الكافر، هل تستطيع أن تسرق مفتاح مخزن المواد الكيميائية اليوم؟"

أجبته أن لدي امتحان في اليوم التالي، و أنه لا علاقة لي بالإخوان علي أية حال. أخبرني إنه علي رغم من أنه

قد انضم الآن إلي الإخوان، فإن هذه المهمة مسندة إليه من قبل التنظيم الذي كان منتسباً إليه قبل ذلك. ثم أخرج ورقة كتب عليها سبعة أسئلة، أخبرني إنها بين أسئلة امتحان الغد. بدأت أخبره إني أشكره، لكنني لا أحتاج إلي أسئلته. فقد كانت الأسئلة التي كتبها مختلفة تماماً عن تلك التي اشتريتها في اليوم السابق نظير خمس ة وعشرين جنيهاً. كما أنني سأحتاج ثلاثة أيام لأعد الإجابة عن هذه الأسئلة التي يعرضها علي. هناك خطأ علي ما يبدو، فالجوائز تعطي للطلاب التي لا تستحق.

سرت إلي قاعة الامتحانات في اليوم التالي مغتماً، فقد كنت بالكاد مؤهلاً للإجابة عن ثلاثة أسئلة من السبعة. لكني قوبلت ببشري احتراق قاعة الامتحانات وتأجيل الامتحانات لعشرة أيام علي الأقل.

ظهر وجه كمال كذلك في الصور التي نشرتها الصحف لجنازات النقراشي باشا والشيخ البنا مرشد الإخوان من بعده. قبل الثورة بقليل، أصبح كمال يمتلك سيارتين وفيلا علي طريق الهرم، بالإضافة إلي شقة في وسط البلد.

ثم رأيته ذات مرة بعد الثورة، كان يستقل ترام نمرة 6 مرتدياً بذلة بنية قديمة وحذاء قماشي خفيف، وكان يضع منديلاً حول رقبته ليحمي ياقته. حياني بحرارة قائلاً: "بارت بضاعتي." ثم أضاف بابتسامة "أيها الكافر."

عاد فونت وجاين من الحانة التي اختاراها. سألت فونت إذا ما كان يذكر كمال.

"كمال من؟"

"كمال حسن."

"كمال حسن؟ . . . آه، نعم. كمال حسن زميلنا في أول سنة بالجامعة. ماذا، هل هو هنا؟"

"لا، لا. لقد كنت فقط أفكر فيه." لكن فونت كان يبدو عليه الانشغال، ولم يكن يبدي كثيراً من الاهتمام.

"ماذا بك يا فونت؟" كنا نمشي معاً خلف الأخوة دنجايت في طريق العودة إلي منزل والديهم.

"لا شيء."

"بحق المسيح يا فونت. ها نحن هنا في لندن. فماذا هنالك؟"

"لا شيء."

"تبدو مشوشاً." سرنا في صمت لبرهة.

"أتعرف يا رام؟ هذا الجرح الذي أحدثه في إنجليزي لعين في السويس."

"نعم؟"

"كانت جاين تخبرني لتوها أن الإنجليز ليسوا بالسيئين حقاً. وأنه ينبغي علي ألا أصدق كلام الناس، أو الأجانب، عنهم. فأريتها ندبتي، وأخبرتها كيف حصلت عليها."

"حسناً؟"

"قالت إنها آسفة لأنني جرحت. ثم أخبرتني عن قريبة لها اختطفت واغتصبت عدة مرات علي يد مصريين في السويس، وعثر علي جثتها عارية قرب نبع.

"حسناً؟"

"حسناً؟ أليس هذا كافياً في نظرك؟"

"عم تتحدث يا فونت؟"

"أليس مرعباً أننا نستطيع القيام بهكذا أفعال؟"

"نحن؟ أجننت يا فونت؟ ماذا كانت تفعل هناك طالما تعلم جيداً أنها غير مرحب بها؟"

"هناك فارق كبير بين إزعاج القوات البريطانية في السويس وبين قتل امرأة."

لا أعرف لم أراد فونت إفساد يوم لطيف بهذا الهراء.

"إنني استغرب أن يستضيفونا بعد ما حدث." قال فونت.

"بعد ما حدث؟"

"اغتيال قريبتهم."

"تستغرب أن يستضيفونا؟ يجب أن تستغرب كوننا نتحدث معهم علي الإطلاق." كنت أزداد غضباً من فونت. "أنسيت كل من ماتوا في السويس؟ أم أنك ستصبح كابن خالتي منير؟"

"لا، لا. لا تكن غبياً، لكن . . . ."

وقف الآخرون ينتظرونا لنلحق بهم، فتوقفنا عن الكلام. لكن، للمرة الأولي، حدث صدع في علاقتي مع فونت.

غادرنا بعد الغداء، بعد أن اتفق فونت وجاين علي أن يتقابلا لتناول الشراب معاً في المساء. وكان جون قد تحدث إليّ لما يقرب من الساعة عن الطرائق التي يمكن أن ننتهجها لتمديد إقامتنا.

"حسناً، ما رأيك يا فونت؟" كان ما يراه فونت أنه إذا ما أتت الانتخابات القادمة بحزب العمال، فلن يكون هناك المزيد من المتاعب في السويس.

"لم أقصد ذلك، يا فونت. أقصد ما حدث اليوم: مقابلة آل دنجايت، وكل شيء."

"أعتقد أننا يجب أن نقرأ ''النيو ستاتس مان'' بإنتباه أكثر، فهي تعكس أراء العديد

من . . . ."

"بالله عليك يا فونت. أنا لا أتحدث عن السياسة. مجرد التواجد هناك لتناول الغداء والذهاب إلي الحانة، وكل ذلك."

"أخبرتني جاين إن السيد بيفن عادة ما يزورهم."

لم أتحدث بعد ذلك حتى وصلنا الفندق.

"ماذا عن جاين؟" سألته.

"إنها لطيفة. لكن بريندا من أعجبتني."

ذهبت إلي غرفة إدنا، واستلقيت علي فراشها. وضعت يديّ تحت رأسي وأغمضت عيني. تخيلت نفسي في حانة ممسكاً بكأس البيرة أخاطب العديد من أمثال جون وجاين وبريندا. كان خطاباً رائعاً حاشداً بالتعليقات الذكية والعبارات المقتبسة. أخذت أخبرهم عن وحشية الإنجليز، وعن البؤس الذي جلبوه لملايين البشر. فتغلبت عليّ مشاعري ودفعت بكأس البيرة بعيداً دون أن أمسها، بينما أنظارهم مشدودة إلي، يستمعون إلي إدانتي الثائرة لأفعالهم الجائرة بانتباه يشوبه الإحساس بالخزي: "إن الجنس الإنجليزي جنس متفرد حقاً. جنس يعد نفسه أكبر من أن

يشعر بإثم ما يفعله تجاه الشعوب الضعيفة، لكنه أصغر من أن يحرر نفسه من قيود الاستعمار التي يفرضها علي البشر ومن ثم علي نفسه. إن كل إنجليزياً يولد متمتعاً بقوة معينة: حين يريد شيئاً ما، فإنه لا يعترف لنفسه قط أنه يريد هذا الشيء. بل ينتظر ريثما تأتي إلي ذهنه، لا أحد يدري كيف، قناعة ما بأن من حقه الأخلاقي والديني غزو الشعوب التي تملك هذا الشيء الذي يريد، ومن ثم يحصل عليه. لكنه أيضاً جنس لا يعجز عن إيجاد الادعاء الأخلاقي الذي يغطي ما يقوم به. فحين يعجز عن إيجاد أسواق لبضائعه البائرة، يرسل المبشرين لتعليم السكان المحليين كتاب السلام، فيقتل السكان المحليون المبشرين، فيطير إلي هذه الشعوب بأسلحته وعتاده لنصرة المسيحية: يحارب من أجل المسيحية، ويغزو من أجل المسيحية، ثم يحصل علي السوق الذي يريد كمكافأة من السماء."

لم يكن هذا الخطاب من تأليف برنارد شو، بل تعبير مرتجل عن أفكاري. انتهي من خطابي، فاصمت ويصمت الجميع للحظة ينفجر بعدها الهتاف والتهليل. تدمع أعين

البعض، وتترجاني كل النساء أن أصبح حبيبهن. لكني أرحل مشمئزاً ووحيداً في ضباب الليل المعتم، يثقل قلبي كم الظلم الموجود في العالم. أعود مكتئباً إلي حجرتي القذرة الموحشة، فأجد إدنا في انتظاري ممتلئة بالحب، تندفع إلي ذراعي وتخبرني أنها استمعت إلي خطابي.

فتح باب الغرفة. دخلت إدنا، وجلست علي الفراش.

"ماذا فعلتم بشأن الإقامة، يا رام؟"

"جيد جداً، شكراً لك. ماذا عن إقامتك؟"

"أنا لا أواجه مشاكل بشأن الإقامة مطلقاً."

"لماذا؟"

"لأن أبي ثري كبير."

"لا. إنما لأنك يهودية."

"ربما."

"هل سمعت قط أن فرنسا أو بريطانيا رفضت إعطاء تأشيرة دخول أو إقامة ليهودي مصري؟"

"لا. لعلك علي حق."

"أتعلمين لماذا؟"

"لماذا؟"

أخرجت كتاباً من تحت السرير قام بتأليفه أحد الضباط المرموقين في الجيش البريطاني، وأخذت أقرأ: "بالإضافة إلي ذلك، فإن المواطنين اليهود سوف يساندون أي محاولة لإعادة احتلال البلاد من جانب بريطانيا." كان هذا سبباً إضافياً، من وجهة نظره، لاحتلال مصر.

"أنا لم أحضرك إلي هنا لتلتقط هذا الهراء العنصري." قالت إدنا.

لم تلفت "لم أحضرك إلي هنا" هذه انتباهي في هذه اللحظة.

"في الصفحة رقم ستين، ستجدينه يقول "أما المواطنون الأقباط، فسوف يكونوا أكثر من مرحبين."

"هناك الآلاف من هذه الكتب الغبية."

ثم تذكرت "لم أحضرك إلي هنا". في الظروف العادية، لم تكن هذه الجملة لتلفت انتباهي. لكن عقلي اليوم كان منشغلاً بتحليل الأمور.

"لم أحضرتنا إلي هنا؟"

"لأنكما كنتما تهذيان برغبتكما في زيارة إنجلترا لعام كامل."

"زيارة أوربا."

"أوربا، إذاً. لا تقلق فسوف تري الكثير منها قبل أن تعود إلي مصر."

"بكل تأكيد."

"حسناً." اكملت بعد تردد: "ربما كان عليكما استغلال الأيام القادمة جيداً، فربما اضطررتم للرحيل سريعاً."

"لا. فأنا أستطيع أن أمكث إذا أردت. أستطيع أيضاً أن استغل معارفي إذا أردت."

"حقاً؟ ولكننا لسنا في مصر، كما تعلم."

"قد تدهشين." كنت أري أنني أصبح بغيضاً، وكان هذا شيئاً جديداً علي. كنت دائماً غاضباً وساخطاً علي الأوضاع من حولي. لكن أن أتعمد أن أكون بغيضاً، كان شيئاً جديداً علي.

"ماذا هنالك، يا رام؟"

حسناً، لقد قابلت من يدعو ن مثقفين، فلم لا أستخدم أساليبهم؟

"لقد سئمت معاملتي كطفل تضمينه تحت جناحك."

كانت تعلق معطفها في هذه اللحظة. لمحتها تتصلب قليلاً، ثم واصلت تعليق المعطف قبل أن تأتي لتقف إلي جانب السرير وتقول لي: "آسفة، يا رام. أعتقد إنني حقاً أعاملكما بهذه الطريقة، لكنني لم أتصور أن تعيرا اهتماماً لهذه الأشياء." للمرة الثانية تشعرني أنني صغير النفس. كانت المرة الأولي حين عزوت كرهها للأغنياء أمثال منير إلي كونها "نزوة فتاة ثرية".

"ولم لا؟"

ترددت قليلاً، ثم قالت إنها لا تعرف كيف تفسر السبب.

"لم أنت غاضب؟"

لم أجب. أخرجت مشطها من حقيبة يدها، وأعطتني إياه. لقد أصبح تصفيف شعرها لازمة جنسية بيننا.

كان غريباً أن أتلقي مكافأة علي كوني بغيضاً، فقد أحبتني ظهيرة ذلك اليوم. هل هناك أروع من أن تمتلك المرأة التي تحب في ظهيرة أحد الأيام، ثم تنام وتصحو لتغتسل وتخرج معها يداً بيد؟

استقللنا معاً قطار الأنفاق إلي ألدجايت، ثم سرنا في الشارع التجاري نبحث بين الناس عن شخوص و. و. جاكوبس.

"كيف يرفضوا السماح لمصري يحب جاكوبس بالإقامة في إنجلترا؟"

قبلتني، وقالت إننا قرأنا أكثر مما ينبغي.

لم يعد فونت إلي الفندق تلك الليلة. عاد في الثامنة من صباح اليوم التالي.

"مرحا، مرحا، مرحا. ماذا فعلت يا فتي؟ لم أظنك قادر اً علي فعل ذلك." قلت له بلهجة هي خليط من لهجات بريطانية. كنت سعيداً في ذلك الصباح، فقد كانت إدنا متدفقة المشاعر في الليلة السابقة، وشعرت أنها علي وشك الوقوع في حبي.

"أنا و. . . . أنت تعلم."

"مع جاين؟"

"أنا أشعر بالخزي، يا رام."

"أنت لم تغتصبها، أليس كذلك؟"

"أتمني ألا تستخدم هذه الكلمة. أقصد أن أنام معها بعد أن استضافنا والدها."

"ها ها ها. أنت لست سوي فلاح متخلف. إدنا."

صرخت منادياً عبر غرفة الحمام. "تعالي، اسمعي هذا."

أتت حافية القدمين مرتدية منامتها، وقفزت إلي سرير فونت الخالي.

"ماذا؟"

أخبرتها.

"فونت الرقيق. أنت من يجدر بي أن أحبه. أنت لم تسيء إليهم في شيء. هي أرادتك."

أحمر فونت، الرقيق.

دخلت خادمة الغرف فجأة، فقالت حين وجدتنا: "أوه، المعذرة."

"لا عليك يا حبي." قلت لها: "ادخلي   ينقصنا رفيقة أخرى."

خرجت متمتمة "أدخلي، ها!"، ثم "عرب قذرين."

أغضب ما قالت إدنا وفونت بشدة، بينما انفجرت أنا ضاحكاً.

"لقد تغيرت، يا رام." قال فونت.

أعطانا جون دنجايت قائمة بما نستطيع فعله للحصول علي تصريح الإقامة. كان قد اتصل بصديق له علي صلة ما بوزارة الداخلية.

عندما غادرت مصر، كان محدداً أن أبقي خارجها ثلاثة أشهر فقط. لم فعلت ذلك؟ لا أدري تحديداً.   فقد أحضرت أوراق المدرسة والجامعة ودفعت بهم إلي أسفل حقيبة السفر.

"فونت." قلت له. "لست أدري ما دفعني إلي إحضار أوراقي الرسمية معي؛ قد تنفع في ظروفنا هذه. لكنك لم تحضر أوراقك معك، أليس كذلك؟"

نظر إلي لبرهة في صمت.

"نعم، يا رام، لقد أحضرته ا معي. لست أدري أنا أيضاً ما الذي دفعني إلي ذلك."

"فونت، نحن سوف نرحل في نهاية الثلاثة أشهر."

"لا تكن منافقاً."

كانت إدنا تنتظرنا بالأسفل. ذهبنا إلي مكتب الشئون الداخلية، قسم الأجانب في أولي المقابلات الكريهة والمهينة. إذا كان شخص ما علي وشك الوقوع في هوي الإنجليز، فكل ما عليه الذهاب إلي قسم الأجانب لتتبدد أوهامه.

انتظرنا لمدة ساعتين حتى حان دورنا فقط لمقابلة موظف مهذب سألنا عم نريد، وأعطانا رقماً لننتظر ساعة أخري أو نحو ذلك. لم يكن لنا أن نتذمر، فنحن قادمان من مصر. ما أثر فينا حقاً، كان التعبير الدامي علي أوجه الخمسين شخصاً المنتظرين معنا، وكانوا معظمهم من الإيرانيين والعراقيين واليونانيين والإيطاليين. لم نشعر إننا في مبني حكومي، أو في قسم شرطة حتى، وإنما في

مؤسسة، للا سبب علي الإطلاق، جعلها الله ليدخل إلي عقلك وقلبك إحساس بالدونية يمزقك إلي أشلاء. تحدثنا إلي يوناني وعراقي. كانت هذه هي المرة الثالثة التي يحضر فيها اليوناني إلي قسم الأجانب خلال أسبوعين. كان مهاجراً إلي أستراليا، لكن أوراقه لم تصل إلي القنصلية الأسترالية بعد. وفي كل مرة من المرات الثلاث، كانوا يمددوا الإقامة لعدة أيام مخبرين إياه ألا يتوقع تكرار ذلك. قال لنا: "إن لدي مالاً. فلم لا أبقي لمدة شهر؟" أما العراقي فكان ملتحقاً بكلية لندن للإلكترونيات. كان والداه اللذان اعتادا أن يرسلا له ثلاثين جنيهاً كل شهر، أصبحا يرسلان خمسة عشر جنيهاً فقط لمدة ستة أشهر الآن. اعتبر المكتب هذا المبلغ غير كاف لسد احتياجاته، لذلك رفض تمديد فترة إقامته، أو منحه تصريح للعمل نصف دوام. "لقد اجتزت ثلاثة أعوام من الدراسة. كما أحضرت خطابات من كل أساتذتي تؤكد إنني طالب ممتاز، لكن دون جدوى." جعلني الاستماع إليهم أشعر بالإحباط.

نودي علي رقمنا، وقادنا أحدهم إلي رواق به عدة أبواب. انتظرنا خارج أحد الأبواب، حتى نادي شخص من الداخل بلهجة ممطوطة "ادخل". دخلنا، وقلنا "صباح الخير" لشاب في حوالي الثلاثين ماداً جسده خلف المكتب.

"حسناً."

"لدينا تأشيرة مرور عبر الأراضي البريطانية، و. . . ."

"يكفي هذا. إذا كان لديكما تأشيرة مرور، نحن نسمح لكما بالبقاء لمدة عشرة أيام. إذا تأخرتما في المغادرة لمدة يوم أو اثنين، فلا مشكلة."

"لكن. . . ."

"لن أستمع إلي المزيد من المناقشات. من فضلكما غادرا الحجرة."

جذبت فونت خارجاً بسرعة قبل أن يقول أي شيء. في الخارج، أخبرت إدنا بما حدث، ثم ذهبنا مباشرة إلي حانة. أراد فونت أن يغادر البلاد في اليوم نفسه.

"إن لدي اعتراف." قلت لفونت. "لقد نصحني صديق جون المحامي بعدم التوجه إلي مكتب الشئون الداخلية.

قال إن موظفي المكتب أوقح من علي وجه الأرض. لكني أخذتك إلي هناك بمبادرة مني."

"لا يا فونت. لقد كنت أنا من نصحت رام بالتوجه إلي هناك." قالت إدنا.

كان هذا صحيحاً. فقد أخبرت إدنا الليلة السابقة إننا سوف لن نذهب، وسوف نرسل جوازات السفر بالبريد وبذلك نضمن البقاء في إنجلترا لثلاثة أسابيع أخري ريثما يردون علينا سواء بالإيجاب أو بالسلب. لكنها ترجتني أن أذهب قائلة: "إن ذلك جزء من تجربة السفر إلي إنجلترا نكم العزيزة، يجب عليك معرفة ذلك."

"أنا مسرور كوننا أتينا."

ذهبنا بعد الظهيرة إلي إحدي كليات لندن المهنية، سجلنا اسم ينا، ودفعنا مصر وفلت الفصل الدراسي الأول. ثم كتبنا خطاباً مهذباً ل لسلطات أرفقنا به جوازا سفرنا وشهادة من الكلية تثبت انتسابنا إليها، وأرسلنا كل هذا. بعد أربعة أيام، استلمنا مذكرة تعلمنا أن بإمكاننا البقاء في المملكة المتحدة إلي أن يتخذ قرار بشأننا.

بعد ظهر يوم السبت، تذكرنا أننا وعدنا بزيارة محصلة الأتوبيس وابنها ستيف. أرادت إدنا أن تأتي معنا، فقررنا، لا لسبب واضح، أن نقدمها علي أنها أختي.

كان اليوم مشمساً، فسرنا حتى بارك لاين مروراً بماربل أرتش وحتى كيلبرن عبر طريق إيدجوير. أصبحت أكثر ضجيجاً مؤخراً، وأصبحت أري في نفسي شيء جديد كنت أبغضه في أناس آخرين: نوع من الثقة بالنفس، هي في الواقع أقرب إلي الوقاحة. أظن من الطبيعي أن يشعر الرجل بالزهو حين يوقن أن امرأة ثرية وجميلة تحبه، لكن غروري كان غير طبيعياً. فقد شعرت بصدق إنني إذا ما أظهرت لإدنا التواضع والامتنان، فإنها سوف لن تبادلني الحب. فالناس يدعون أن من يزرع حباً، يجني حباً. لكن ذلك غير صحيح. حصاد الحب اللامبالاة.

أخبرتنا إدنا إن الكثير من الأيرلنديين يعيشون في كيلبرن. عند ذكر الايرلنديين، قفزت إلي ذهني عبارة "أسود وبني"، مما ذكرني بملمع الأحذية. كان من الممكن أن

نسير ثلاثتنا لساعات في هدوء وسكينة دون أن ننطق بكلمة. ثم تنبثق محادثة دون جهد، ثم تموت تلقائياً وبشكل طبيعي لا يعكر صفو علاقتنا. ربما لأن علاقتنا كانت تخلو آنذاك من أي دراما. كنت أتساءل لم، علي الرغم من حبي الشديد لإدنا، لم أكن أفضل أن أنفرد بها دون فونت. لا أذكر أننا انزعجنا يوماً من وجود فونت معنا. كان طبيعياً وكاملاً أن نكون ثلاثتنا معاً. لاحقاً، حين بدأت أتعمق في قراءة الأدب شديد التعقيد، عرفت أنني أشعر بعقدة أو خيال أو وله، أو أي مسمي من هذا القبيل ، أبوة تجاه فونت، وأن إدنا تشعر بالمثل تجاهنا معاً. وبالتالي، فهي تشعر بالذنب لأنها لم تحبنا نحن الاثنين بنفس الطريقة. إلي أخر مثل هذا الهراء الذي يعتنقه الأوربيون أحياناً. (بالطبع لم أعتقد في ذلك الوقت إن هذا هراء. بل كنت شديد الانبهار بما كنت أقرا.)

وصلنا إلي منزل السيدة وارد، وقرعنا الجرس. كانت تسكن وولدها ستيف طابقاً أرضياً. وكانت غرفة الجلوس مريحة ولطيفة حيث اشتعلت نار صغيرة في المدفأة،

وحيث يوجد راديو قديم إلي جانب العديد من البسط القديمة والمقاعد المريحة المهترئة مركزة حول دائرة الدفء. بالإضافة إلي العديد من الكتب ال دسمة والصور الموزعة بطريقة عشوائية، لكن حميمة، علي أرفف الكتب فوق المدفأة وعلي جانبيها.

"مسرورة جداً لأنكما تمكنتما من المجيء. ومسرورة لأنك أحضرت أختك يا عزيزي. كنت أخبر ستيف إنكما لابد نسيتما وعدكما بزيارتي. لكن، ها أنتم. وأنا مسرورة جداً أن أتيتم."

لقد رأينا العديد من أمثال ستيف_ مئات ومئات من أمثاله ذوي الوجه المنمش والشعر الزنجبيلي والأنف البارز المستقيم، والعيون الشديدة الزرقة. استغربت رؤيته في الملابس المدنية.

"مسرور برؤيتكم." حيانا، وأخذ معاطفنا ليعلقها. قدم لإدنا أفضل الكراسي، وحاول أن يشعرنا جميعاً بالراحة.

"منزلكما لطيف ومريح للغاية." قالت إدنا.

"شكراً لك يا عزيزتي. أحب دائماً أن أوفر جو اً مريح بالبيت، ولا شيء أكثر راحة من وجود نار بالمدفأة."

تساءلت لم لم نفكر في شراء الورود للسيدة وارد. ربما كان هناك سبب لاشعوري. أخذت أفكر فيم قد يكون وراء ذلك.

"كم مكثت في السويس؟" سأل فونت ستيف.

"كنت في عدن أولاً. بعض المشاكل هناك، سيطرنا عليها، ثم توجهنا إلي السويس لمدة شهرين، ثم إلي قبرص، اتخذنا بعض الإجراءات هناك، لا شيء هام، ثم رجعت إلي السويس لأربعة أشهر أخري."

"هل انتهت خدمتك في الجيش؟"

"أحب حياة الجيش، فهي تصنع منك رجلاً. لكن خمس سنوات تكفي، فلديّ ماما لأفكر فيها. ثم، أمل أن استقر وأتزوج."

قالت السيدة وارد: "كنت أود أن أقدم لكم الشاي يا أعزائي، فهو الأنسب في هذا الجو البارد. لكن ستيف قال

لي إنهم يفضلون القهوة في هذه المناطق، لذا اشتري بعضاً منها."

شكرناها وأخبرناها إننا نفضل الشاي. قالت لستيف أن يري إذا كان الماء يغلي.

"نعم، يا ماما." قال ستيف.

"سوف نخرج لتناول البيرة فيما بعد." قالت غامزة.

أثناء تناول الشاي، استمعنا إلي ستيف يحكي عن الحياة في السويس: عبارات مثل ‘‘المحليون سوف يسلخونكم، إذا لم تتوخوا الحذر’’، و‘‘المشي ليس آمناً بعد حلول الظلام. . . تعرفون العرب القذرين .’’ كان يخبرنا أشياء يراها مفيدة للمحافظة علي سلامتنا. في الواقع، كان يخبرنا أن نتوخى الحذر أثناء تواجدنا هناك. لم يخطر بباله أبداً، إننا من السكان المحليين الذين يتحدث عنهم. العرب القذرين والملونون بلاءً علينا، كما هو الحال مع فرقته الغالية. بينما كان يتحدث، كان شديد الحرص علي راحتنا: يصب لنا المزيد من الشاي، يقدم لنا الكيك، أو يشعل سجائرنا.

حضرت صديقته شيرلي، أثناء تناول الشاي. هي ليست رائعة الجمال، لكنها جذابة وأنيقة. كانت ترتدي سترة صوفية ضيقة تبرز أنوثتها، جوارب أنيقة، وحذاء عالي الكعبين. قالت هي أيضاً: "تسرني مقابلتكم" واحتست الشاي معنا.

وتشاركت إدنا وشيرلي في تنظيف الطاولة وغسل الصحون. بينما جلست السيدة وارد في مقعدها براحة وسعادة. لم يكن لنا، أنا وفونت، صلة بعد بتنظيف المائدة وغسل الصحون. شكرنا السيدة وارد علي الشاي.

"لا شيء يستحق الشكر، يا أعزائي."

ذهبنا جميعاً إلي حانة. سار فونت والسيدة وارد في المقدمة، يتبعهما ستيف وإدنا، ثم أنا وشيرلي. في الحانة، وجدنا رجلين يلعبان الشطرنج. تحدث أحدهما إلي شيرلي، ثم سألني إذا كنت أحب أن ألعب.

"نعم." أجبته. كنت متلهفاً لترك الآخرين، مهما بلغ ‘‘لطفهم’’ و‘‘طيبتهم’’ و‘‘كرمهم’’. كنت أشعر بالملل، وقد ابتدأت أنقسم إلي شطرين يخبر أحدهما الآخر

الحقيقة. كان لاعب الشطرنج شقيق شيرلي ويدعي فنسنت. أومأ فقط إلي الآخرين. ترك شريكه اللعب، فحللت محله. بدأنا اللعب من البداية. في منتصف اللعب، وكنا قد تناولنا ثلاثة أكواب من البيرة، كان علينا أن نتكلم. قد أكون مهوساً بالشراب. نعم، بالتأكيد لدي هذا الهوس . فأنا أري أن الناس معاقون بدون الشراب. لم يكن لدي أدني شك أنه بدون تأثير البيرة، ما كان لنا أنا وفنسنت أن نرغب في الحديث. لو لم نشرب البيرة، ربما كنا اكتفينا بلعب الشطرنج. ومن ثم افترقنا ومعرفتنا ببعضنا البعض سطحية، وما كان كل ما حدث بعد ذلك ليحدث.

أشعلنا سيجارتين، وتجاهلنا الشطرنج لبرهة. أولاً الخطوات التمهيدية، كما يسخن العدائين في السباق، ويجربون هذا الحذاء أو ذاك، ويخلعون السترات الخارجية: متي حضرت إلي لندن، ومتي أنوي المغادرة، وماذا يعمل، وهل يحب عمله؟ انتهينا من هذا، تقدمنا أكثر. لم يعجبه من رأي من المصريين، فما كانوا يبغون سوي قضاء وقت

مرح. لابد أنني ‘‘ثري جداً ’’ كي أقطع كل هذه المسافة لقضاء عطلة. هل كان يسخر مني؟ لا يهم.

كان شطري الذي يراقب الأحداث يوافق علي هذه المحادثة كمشهد افتتاحي. لكن بعيداً عن ذلك، شعرت غريزياً أن فنسنت كان أصدق من جون دنجايت. كنت أعرف أنني أستطيع أن أتفوه أمام عائلة دنجايت بالكثير من الحماقات المستهلكة، و أنهم سوف يدعون الاهتمام الصادق، وسوف لن يسخروا. ثم أتضح لي فجأة أنني كنت أحكم علي الإنجليز كإنجليز أولاً، ثم كبشر. كان فنسنت متحرراً من أي نزعة عنصرية. لم يكن يساري أ، وكذلك لم يكن معادياً لليسار. لم يكن واحداً من خريجي المدارس العامة، كذلك لم يكن واحداً من خريجي المدارس الغالية. لم يكن إنجليزياً من أصل هندي، كذلك لم يكن واحداً من الإنجليز الذين يعيشون في أسبانيا. كان فنسنت ميرفي، ولا شيء غير ذلك. (ثم اثبت الوقت أنه الوحيد من بين كل من قابلتهم في إنجلترا الذي ابقي علي صداقتي حين كنت مفلساً وأعاني المتاعب.)

أشارت إليّ إدنا أن أنضم للآخرين، فتجاهلتها. كان قد اتضح لي ماذا علي أن أفعل، وقد صممت علي فعله، حتى ولو أظهرت الوقاحة. وظننت أنه كلما تماديت فيما أفعل، ازداد انجذاب إدنا إليٍٍ.

"لا." أجبت فنسنت. "أنا لست ثرياً. في الواقع، أنا معدم تماماً. لكن لدي خالات وأخوال وأبناء خالات أثرياء. علي كل حال، هذه الرحلة يتحمل تكلفتها ثري يهودي دون أن يعلم، علي ما أعتقد."

"أنت ثري إذاً: أقارب أثرياء، ملابس باهظة الثمن. أنت ثري إذاً."

"أنا ثري إذاً. ماذا في ذلك؟"

"آه، لا شيء. دورك لتلعب."

"لا. أنا ثري. أكمل."

نظر إلي للحظة بما ظننته ابتسامة تعال.

"أغلبية شعبكم هناك تتضور جوعاً. هل سمعت قط بالفلاحين؟"

"نعم هذا صحيح. إن شعبنا يتضور جوعاً، أليس من العار أن يتمرغ أقاربي في الثراء؟"

"أليس كذلك؟" وافق ساخراً.

"نعم. إنه لعار." قلت ساخراً أنا الآخر. "ماذا عنك؟ لا أقارب أثرياء لديك علي ما أعتقد؟"

"أنا؟ علي الإطلاق."

"أليس لديك أي أقارب أثرياء؟ حسناً، أؤكد لك أن لديك الكثير من الأقارب الأثرياء. بعض أقاربك من أثري أثرياء العالم. إن كل قاطني المنازل الريفية الفخمة والشقق المترفة في ماي فير من أقاربك. إن كل من يجوبو ن الشوارع في سيارات الرولز رويز، وكل من يمتلكون عدة أرصدة في البنوك من أقاربك الأثرياء. أليس من العار أن لديك كل هؤلاء الأقارب الأثرياء بينما نصف سكان أفريقيا، التي تمتلكونها، يتضورون جوعاً؟ أليس من العار أن سرق أقاربك كل ما تمتلك جاميكا وتركوا نصف سكانها يتضورون جوعاً؟" بدأت أسخن وأخذت أمتع نفسي. "أنت مثقف جداً وتعلم الكثير عن الفلاح المصري. ألا تعلم شيئاً

عن السكان المحليين في كينيا أو روديسيا أو عدن، أو الأسوأ من ذلك ربما، في جنوب أفريقيا. أم إنك ستخبرني أن جنوب أفريقيا لا يمتلكها أقاربك الأثرياء؟ لأنها كذلك. لو أن أقاربك الأثرياء لا يعقدون الصفقات مع أصحاب الثراء الفاحش هناك، لما جرؤ هؤلاء علي جلد النساء السود العزل. ألا تعلم أن أقاربك الأثرياء سوف يبعثون بك إلي جنوب أفريقيا خلال لحظات، إذا قطع السكان المحليون بعضاً من رقاب البيض هناك. لكن، الفلاح المصري من يقلقك. أليس كذلك؟ إن الفلاح المصري يعاني ما يعاني الآن بسبب حكم أقاربك الأثرياء، آل كيتشنر وشركاهم، له لمدة ستين عاماً. فمهما يحدث له الآن، لن يكون أسوأ مما عاناه علي يد أقاربك الأثرياء."

عبس فنسنت في بادئ الأمر. لكن حين انتهيت من خطابي، كان يبتسم ابتسامة واسعة. كان ثمة تواصل قد حدث بيننا.

"سأشتري لك كأساً من البراندي." اتجه نحو البار، وعاد حاملاً كوبين من البيرة بالإضافة إلي البراندي.

"أسأت الحكم عليك. سامحني."

"مهما فعلت." قلت ناظراً إلي رقعة الشطرنج. "بإمكاني سحقك بوزيري الأسود."

"ماذا؟" قال مدعياً الاهتمام. "هل تقول لي أن بيادقي لا تحمي ملكي؟"

"إنهم مشغولون للغاية في محاولة لإيجاد الأعذار للطبيات. كما أنهم مفلسون أخلاقياً في حالتهم الراهنة. لا جدوى منهم."

"ماذا عن العساكر؟"

"أنا أهاجم الميسرة. عساكرك لا طائل من ورائهم: فالأيسر قد تحرك كثيراً جهة اليمين بحيث لا يستطيع العودة إلي المعركة. أما الأيمن فهو مسرور بالبقاء في مربعه ولا يعي حتى أنك مهدد."

"وماذا عن أحصنتي؟"

"إنه ا. . . ." رددت ببطء محاولاً إيجاد رد مناسب، فلاحظت أنها خارج الرقعة. "خارج المعركة. فهذه قضية أخلاقية، وليست قضية قوة."

"هنا أنت مخطئ. راقب هذا." حرك طابية إلي الأمام، فتغير ميزان القوة إلي صالحه.

"اللعنة." صحت. "نعم. ستيف وارد." انفجر فنسنت ضاحكاً.

"هل تحدثت إلي هذا الغبي؟"

"دعتنا أمه بلطف لتناول الشاي."

"إن للسيدة وارد شخصية محببة."

"قابلناها في الأتوبيس في أحد الأيام، فدعتنا لتناول الشاي معها. فابنها ستيف لم يقابل ‘‘السكان المحليين’’ في السويس، علي ما يبدو. بالمناسبة، هل مشي يوماً في شوارع السويس؟"

"لم تسأل؟"

أخبرته عن نصيحته لنا، فأخبرني إن ستيف لم يضع قدماً خارج المعسكر. كان فنسنت قد علم ذلك عن طريق أخته شيرلي.

"لقد كان يردد ما ألقي إليه من تحذيرات." قال فنسنت.

"ما الذي يجعل شاباً كستيف يرتدي الكاكي ويوجه مدفعه إلي العرب القذرين أو غير ذلك؟" سألت.

"لقد أخبرتك أنه غبي. لكن، أظنك ستخبرني أن الجندي المصري ليس غبياً هو الآخر؟"

"بحق المسيح. إن الجندي المصري لا يملك منزلاً جميلاً به مدفأة تحيط بها الكتب، أو صديقة ترتدي حذاء عالي الكعبين، أو مالاً ليشتري البيرة، أو ‘‘حضارة ’’ يتخلى عنها لينضم إلي حياة الجيش البائسة."

"هذا بالضبط ما أخبروه أنه يحارب لأجله. فهو يعتقد إن بيته مهدد."

"بالله عليك يا فنسنت! أنت تعلم جيداً أنه لا يعرف لم يحارب. هو فقط يشعر بالفخر كونه يرتدي زياً عسكرياً، ويحارب باسم صاحبة الجلالة، ويري ‘‘المتوحشين ’’ عظمته."

"أعتقد أن ستيف وارد الوحيد الذي يعلم لم يحارب."

"لم لا نسأله؟" اقترحت عليه.

نظرت إليهم حول الطاولة المجاورة. كان علي وجهي إدنا وفونت تعبير من يقوم بواجب معين. كانوا ينظرون إلي السيدة وارد من آن لآخر ويبتسمون. ستيف يبدي الاهتمام بمن حوله دائماً، ويوزع سجائره علي الجميع. بينما تتبادل إدنا وشيرلي القليل من الكلمات من حين لآخر. كانت السيدة وارد من يبدو أنها تمتع نفسها كون ابنها وزوجته المستقبلية حولها يهتمون براحتها ويقدمون لها الجين.

"ذهبنا أنا وستيف إلي المدرسة معاً." قال فنسنت. "هو يعرف أنني أنعته الغبي. كما أعرف أنا أنه يعتبرني جباناً وخائناً. لقد فعلت كل ما بوسعي للتهرب من الجيش، حتى أنني أدعيت الصمم."

"لماذا؟"

"آسف لتخييب أملك. كنت أدرس بالمراسلة للحصول علي شهادة في هندسة التليفزيون، وبانتظاري وظيفة جيدة. لو أن الجيش كان ليدفع لي خمسة عشر جنيهاً أسبوعياً،

كنت لأرتدي أي زى يختارون، وأصوب مدفعي في أي اتجاه يحددون."

فكرت: لو ذهبنا الآن لنسأل ستيف لم يقاتل، أنفتح أمامنا، هنا في هذه الحانة، عالم جديد من الشخوص والأصوات والأمزجة والكلمات. شعرت برغبة في المشاركة والفرجة معاً. لكن منظر السيدة وارد وهي تحتسي شرابها بسعادة جعلني أعدل عن إفساد أمسيتها. وافق فنسنت معي، لكنه قال إنها عادة تغادر قبل الآخرين. قلت أنه علينا أن ننضم إليهم، فتردد فنسنت لبرهة. قال إن شيرلي استحلفته ألا يضايق ستيف. لكننا بعد برهة تركنا الشطرنج وانضممنا إليهم.

اعتذرت منهم لانفصالي عنهم حالما وصلنا، موضحاً أنني دائماً ما أضعف أمام رقعة الشطرنج. كنت أسخر. لم أكن أعرف ماذا يحدث لي. أحسست أنني أريد أن أفقد أعصابي وأفضح شيئاً ما. لكن ما هو؟ لم أعرف علي وجه التحديد. ربما اعترفت لاشعورياً واجتاحني القرف من هذا الرياء: ما الذي جعلنا أنا وإدنا وفونت نذهب إلي منزل

السيدة وارد، ونقبل ضيافتها، ونشعر بالملل، إذا لم يعكس سلوكنا ماهيتنا؟ والأسوأ من ذلك، ربما، كان معرفتي أننا عندما نتركهم ونعود إلي فندقنا، سوف نقول ''كم كانت ممتعة زيارتنا للسيدة وارد. '' الحقيقة إن السيدة وارد شخص لطيف. لكن الحقيقة أيضاً، إننا شعرنا بالملل. فلم نتظاهر بالاستمتاع؟ أو حتى بالاهتمام؟ نحن لم نتظاهر بذلك أمام بعضنا البعض وحسب، لكنا كنا نحاول خداع أنفسنا كذلك. قد أقول ذلك الآن، لكني آنذاك لم أفهم تماماً ما الذي يزعجني ويدفعني لسلوك غير طبيعي.

غادرت السيدة وارد الحانة بعد قليل. شكرناها مجدداً علي دعوتنا للشاي، وصمم فونت علي توصيلها للمنزل. شعرت ببرودة إدنا نحوي، لكنني كنت قد بلغت حداً من الثقة والاعتداد بالنفس لم يجعلني أهتم. استدرت لشيرلي، وبدون أي قصد مني، همست في أذنها إنني لم أقابل من تفوقها جاذبية منذ زمن بعيد، ثم تجاهلتها تماماً بعد ذلك. هذه، كما ظننت، البداية الصحيحة: أن تثير اهتمام المرأة، ثم تتجاهلها، وتتركها تسعي إليك ولو لإرضاء فضولها.

لست أدري كيف تبلورت لدي هذه النظريات حول كيفية التودد إلي المرأة، رغم قلة خبرتي في مجال العلاقات المعقدة بين الرجل والمرأة. لابد أن الرجل يمتلك الغريزة التي توجهه للإتيان بالفعل المناسب ، والتي تكون متطورة لدي بعض الرجال أكثر من غيرهم.

عاد فونت، فأخذنا نتحدث سوياً. واستغرقت إدنا وفنسنت في محادثة جانبية، بينما بدا أن لستيف مثانة ضيقة لأنه استمر في النزول إلي الطابق الأسفل.

"هاللو فونتي ونتي." قلت لفونت. "ها نحن ذا نشرب البيرة في أرض بيللي بنتر، وفنسنت هو ويليام براون في شبابه، وصاحب النزل هو ويني بوه، وعلي هذه المائدة بالذات كتب السير روجر دي كوفيرلي حماقاته الأنيقة. ألست سعيداً؟"

"ما الذي يجري لك يا رام؟" قال فونت. "أنت تتغير بسرعة بحيث يصعب عليّ التعرف فيك علي صديقي."

"أنا فقط أقضي وقتاً ممتعاً، يا فونت. اسمح لي أن أتابع." استدرت إلي شيرلي. التقطت قفازيها اللذين وقعا

علي الأرض، وقلت لها إن رائحة شعرها تذكرني بزهرة نادرة في مصر.

"أنت شرير جداً." قالت شيرلي.

"شرير؟ " تظاهرت بالغضب. "أنت امرأة جميلة جداً. تعرفين ذلك. أنا أدرك أنك مخطوبة لشخص آخر، لكن يجب أن تتذكري أنني لست أوربياً معقداً، لذا لا أستطيع أخفاء مشاعري. بما أنك جميلة، فمن الطبيعي أن أعجب بك. لا أملك أن أتظاهر أنك أية امرأة."

"أنا آسفة. لم أقصد أن أجرح مشاعرك." استدرت إلي فونت متظاهراً بالغضب.

"بحق المسيح، يا فونت. أنا حقاً أمتع نفسي." أخذت الكؤوس الفارغة، وعدت بمجموعة أخري مليئة بالبيرة، واشتريت لشيرلي كأساً من الشيري."

"كيف عرفت أنني أحب الشيري؟" سألتني، فلم أجب واستدرت إلي فونت.

"ماذا هنالك يا فونت؟ أنت من يتصرف بغرابة. لم لا تمتع نفسك؟ لم لا تمتلئ بالنشو ة حتى الحافة؟ لم لا تقع في الحب؟ لم لا تفيض نفسك سعادة؟"

"لا تتمادي كثيراً، يا رام."

"بحق المسيح، يا فونت. هل تذكر ذلك اليوم قبل العطلة الصيفية؟ لقد كنت تخبرني كم هو كريه الذهاب إلي الإسكندرية كما نفعل كل عام، وممارسة كل ما كنا نقوم به لسنوات. والآن، ها نحن أولاء في لندن، لكنك صامت وتعيس."

"أنا لست تعساً. أنا أمتع نفسي علي طريقتي الخاصة. علي الرغم من كوني لم أعرف حتى الآن كم هي مختلفة طريقتي عن طريقتك."

جرعت البيرة من كأسي. هل كنت حقاً أتمتع بوقتي؟ الأسئلة التي بدأت أطرحها علي نفسي كانت لتقتلني، فكرت. لم لا أفعل ما أفعل دون هذه الأحكام؟ لم لا أعود كما كنت قبل خمسة أسابيع في مصر؟

"هل أنت غاضب؟" سألتني شيرلي.

نظرت إليها، ثم أمسكت بيدها تحت الطاولة. كنت بالطبع أمتع نفسي. كان ستيف قد نزل إلي الطابق الأسفل للمرة العشرين تقريباً. لم يبد عليه السرور، رغم أنه لم يدر بالطبع ما كان يجري بيني وبين شيرلي.

"حسناً. هل نسأله؟" سأل فنسنت.

"إذا أردت." أجبته.

"ماذا يجري؟" سألت شيرلي. عصرت يدها وأخبرتها إننا ننوي سؤال ستيف كم قتل من العرب القذرون."

"فنسنت." صاحت. "دع ستيف وشأنه." ضحك.

"إدنا." قالت شيرلي. "أرجوك أقنعي فنسنت ألا يضايق ستيف."

"بالطبع هو لن يضايقه. وعلي كل حال، بالتأكيد يستطيع ستيف العناية بنفسه."

"لكنه لا يستطيع. فهو يستشيط غضباً، ثم يظل لأيام يكرر علي مسامعي أن أخي لا يصلح أن يكون إنجليزياً." أغرقنا جميعاً في الضحك.

عاد ستيف وجلس قريباً من شيرلي، التي سارعت إلي سحب يدها من يدي. راقبته يضع ذراعاً متململة حولها، فلم تعترض علي الإطلاق. كنت موقناً أنها لا تحبه.

"كيف كان طعم البيرة في السويس؟" سألت ستيف. فبرغم كل شيء فقد استضافنا في بيته، وسيكون من غير الإنصاف الاتفاق ضده. إلا أنه كان مسئولاً عما حدث.

"كنا نشرب البيرة التي يتناولها العرب القذرين."

"ما رأيك بالعرب القذرين، يا ستيفي؟" سأل فنسنت.

"اخرس يا فنس." قالت شيرلي، ثم استدارت إلي ستيف. "ألا تري أنك تسيء إلي ضيوفك؟"

"أسيء إليهم؟" تساءل ستيف حائراً فعلاً.

"لا أعتقد أن إدنا وفونت ورام يحبون نعتهم بال عرب القذرين." أوضحت شيرلي.

"بربك! أنا لم أنعتهم بمثل هذا."

قالت إدنا بسرعة: "طبعاً لا. شيرلي فقط تجر رجلك. دعونا ننتهي من شرابنا، وسأدفع أنا ثمن الشراب التالي."

قال فنسنت: "لا أحد يجر رجلك. لكنك مصر علي وضع قدمك في الخية."

صاح ستيف: "عم تتكلمون؟ ما دخل هؤلاء الناس هنا بالعرب القذرين؟"

صراح فنسنت: "ها قد وضعت قدمك الأخرى."

"ستيف." قالت شيرلي. "أنا أعرف أن عقلك غليظ، لكني لم أتصوره بهذه الغلظة. أنت تشير إلي المصريين بصورة عامة بقولك العرب القذرين. حسناً، إن إدنا وفونت ورام مصريون."

"بربك! أنا لم أقصد أن أسيء إليهم علي الإطلاق. أنا. . . ." حاول ثلاثتنا التخفيف عنه.

"ما أقول أننا كلنا بشر." قال ستيف.

"هذا صحيح." أجبناه.

"ليس هناك فرق بين إنسان وآخر." تابع ستيف.

"باستثناء أنا وأنت." سخر فنسنت، لكننا تجاهلناه.

"أتدرون؟ سأخبركم بمن سبب المتاعب." قال ستيف.

"أخبرنا." قال فنسنت.

"إنـهم اليـهود الملاعين."

ترددت ضحكة فنسنت في أرجاء الحانة، لكنه نجح وسط قهقهاته أن يقول لستيف: "لقد أدخلت رأسك ذاتها الآن."

همس لي فونت إنه ينبغي علينا أن نوضح إن إدنا ليست شقيقتي طالما إن فنسنت يعلم بالفعل.

قلت لشيرلي إن إدنا يهودية، فقالت بدورها لستيف.

"كيف يسبب اليهود المتاعب هناك؟" سألت إدنا ستيف.

"اسمعي، أنا لم أكن أعلم إنك يهودية. لا تنسي أننا خضنا الحرب الأخيرة لأجلكم."

كان دوري كي أضحك.

"لا.لا. لقد تعرض اليهود للاضطهاد فترة طويلة قبل أن تعلنوا الحرب." قال فونت بلهجته القوية، ومضي يتحدث عن ميونخ وما مضي من أحداث.

"أوه، أخرس يا فونت." قلت له.

"لماذا يخرس؟" سألت إدنا بهدوء.

"هل تعتقدين أن في الإمكان إقناع ستيف بما هو صائب وما غير ذلك؟" سألت بدوري. "ألم تقر أي تاريخ الحرب العالمية الأولي، وكيف أن لينين نشر الأسباب الخفية وراءها، ومع ذلك أقدم الملايين من أمثال ستيف علي ذبح بعضهم البعض جرياً وراء النياشين ووراء شرف وهمي، ولم يتوقفوا ليسألوا إذا ما كانوا يفعلون ذلك لأجل الشرف أم لأجل الوقود؟ ألم تقرئي لساسون وروبرت جرايفز؟"

"دعونا نتحدث عن شيء آخر." اقترحت شيرلي.

"اصمتي يا شيرلي." قال لها فنسنت، ثم توجه إلي إدنا مخاطباً: "لقد ألقمت المعرفة لهذه الفتاة كما تلقم الأم طفلها الطعام. جعلتها تقرأ من الكتب ما ينير عقلها وروحها، لكنها تريد الزواج من هذا الغبي ‘‘لأنه حسن السلوك ويعمل بجهد ’’." قلد فنسنت طريقتها ساخراً. "تجعلني أشعر بالغثيان."

"أنا أفضل منك ألف مرة." صاح ستيف ووقف مهدداً. وقفت أحاول تهدئته. قلت له أن يجلس ويكمل شرابه، ولا داعي للشجار.

"فلتذهب إلي الجحيم أيها العربي القذر." صرخ بي.

جلست أنا، فهبت شيرلي واقفة صارخة به: "إذا لم تعتذر حالاً، فلن تراني بعد ذلك أبداً."

صرخ هو الآخر: "حسناً. فلتنحازي إلي صف أخيك الجبان هذا وهؤلا ء العرب القذرين واليهود."

ذهبت إلي الحمام، وتباطأت قليلاً بعد أن قضيت حاجتي أنظر إلي المرآة وأفكر في لاشيء.

كان ستيف قد غادر الحانة حين عدت، فأخذت شيرلي يدي في يدها حالما جلست.

"دعونا نذهب وراء ستيف." كنت أنا من اقترح.

"لا." ردت شيرلي مداعبة يدي.

كانت يدينا متعانقتين تحت الطاولة، وكنت آمل ألا يلاحظ أحد ما يجري. فكرت فيم سيكون رد فعل إدنا لو

عرفت بما يجري. وفكرت أيضاً فيم سيكون رد فعلي أنا لو رأيت إدنا وفنسنت متشابكي الأيدي. لا شيء، فكرت. كنت ضائعاً في التفكير في كل هذه الاحتمالات، عندما لاحظت أننا جميعاً ثملون. كنا نجلس زائغي الأعين صامتين.

"دعونا نذهب للرقص." اقترحت. "دعونا نتناول المزيد من الشراب ونتشاجر ونصل إلي عقدة الرواية علي طريقة أبطال همنجواي في أسبانيا. هيا يا إدنا. دعونا نعيش."

"حسناً." قالت وشدتنا جميعاً لنقف. أفقنا من حالة الذهول التي كنا نعانيها. ذهب فنسنت ليحضر سيارته الأوستن القديمة.

قلت لفونت: " لم لا تتصل ببريندا دنجايت لعلها تأتي معنا." أشرق وجهه للفكرة، وأخذنا نبحث عن رقم هاتفها معاً. سمعت فونت يتحدث إلي الدكتور دنجايت أولاً ويسأله إذا ما كان باستطاعته أن يأخذ بريندا للرقص. ثم تحدث إلي بريندا واتفقا علي أن نأتي لنأخذها بعد عشرين دقيقة.

قلت لفونت "فونت، دعنا نذهب سريعاً إلي البار ونتناول كأساً معاً." نظرت إلي فونت بينما نحن نتناول البيرة، وأدركت للمرة الأولي كم أحبه. فكرت في أننا معاً منذ الطفولة، وأننا أقرب لبعضنا من أي أحد آخر في هذا العالم. ما الذي يجعلني أفكر في ذلك الآن؟ ربما لأنني أشعر أنني أنجرف بعيداً عنه، لست أدري لماذا.

"ماذا بي، يا فونت؟"

"لقد أصبحت منافقاً، يا رام."

"عندما تركتكم لألعب الشطرنج مع فنسنت، كنت أشعر أنك وإدنا منافقان لأنكما تدعيان أنكما تقضيان وقتاً ممتعاً بينما الحقيقة غير ذلك. وأنني أنا لست منافقاً لأنني شعرت برغبة في لعب الشطرنج وفعلت ما أردت. ثم شربت قليلاً وألقيت علي مسامع فنسنت خطبة عن فظائع الإنجليز. لكن غضبي كان ادعاء لأنني كنت أتمتع بالقيام بذلك. ثم بدأت أتودد إلي شيرلي للا سبب علي الإطلاق، ربما غير رغبة أنانية. بحق المسيح، أنا حتى أستخدم كلمة ‘‘أنانية’’. ثم استمتعت بالسخرية من ستيف، علي الرغم

من إحساسي بالأسف عليه، وعلي الرغم من كوني لا أحمل له أية ضغينة."

"لقد أصبحت أنانياً، يا رام."

"حين كنا في مصر، لم نتحدث قط عن النفاق والأنانية. هاتان الكلمتان أصبحتا تلعبان في حياتنا دوراً لم تكونا لتلعباه قبل الآن." ثم انشطرت مرة أخري إلي نصفين: نصف يشاهدني أتحدث إلي فونت ويسمعني أقول ‘‘قبل الآن ’’. لست أدري لم أحدثت ‘‘قبل الآن ’’ هذا الانشطار في. نسيت خوفي من الانجراف بعيداً عن فونت، أنا حتى لم أنصت إلي ما كان يقول.

عرجنا علي بريندا، أخذناها ثم توجهنا إلي الرقص في قاعة هامبستيد تاون، علي ما أعتقد. كان هناك مقاعد متناثرة في كل أركان القاعة، وبطريقة ما انفصلنا عن بعضنا: فنسنت مع إدنا، فونت مع بريندا، وشيرلي معي. في البداية استمتعت كثيراً بالرقص. لكن بعد برهة، انحصر الأمر إلي مجرد احتضان جسد مختلف وتقبيل أذنها وسماع لهاثها. شربنا المزيد من الخمر وتصرفنا

كالأحبة. وبعد، لن يكون هناك عقدة همنجوية علي ما يبدو. شعرت بالنعاس. وجدت إدنا وأخبرتها أنني سأوصل شيرلي إلي منزلها ثم أذهب إلي الفراش.

تناولنا القهوة أولاً في بار اسبريسو. جلست شيرلي تحت إضاءة حمراء جعلتها تبدو صغيرة للغاية وموفورة الصحة. تحدثنا معاً بمودة وحميمية. كان الجو المشحون بالمشاعر في المرقص قد غادرنا تاركاً فينا ألفة وراحة في صحبة بعضنا. سألتني عن إدنا، فقلت لها إنها صديقة مخلصة لي ولفونت. أخبرتني عن حياتها في البيت، وعن ستيف وفنسنت. كان والدها سكير اً مما أضطر أمها إلي أخذ طفليها وتركه، فقط لتقع في حب شاب أيرلندي يدعي بادي. كان عاطلاً مزمن اً، فعانوا من بعض الأوقات العصيبة. شجع ب ادي، الذي كان مفكراً علي طريقته الخاصة، فنسنت علي التقدم في الدراسة، أملاًً أن يوصله ذكا ؤه إلي الجامعة. ثم اندلعت الحرب وضاعت آمال فنسنت في إتمام تعليمه لأن بادي الذي رفض الانضمام إلي الجيش البريطاني زج به إلي السجن عدة مرات. لكن

فنسنت تغلب علي تلك الصعاب، ودرس هندسة التليفزيون، وحصل علي وظيفة جيدة بالرغم من كل شيء. حاول فنسنت جاهداً أن يساعد أخته علي رفع مستواها التعليمي، لكنها كانت قانعة بالبقاء كطابعة. كانوا يعرفون ستيف منذ الطفولة. كان ستيف صادقاً ومستقيماً، ولأن بيتها كان يعج أحياناً بالمشاجرات بين فنسنت وبادي مما يجعله لا يطاق، فقد تركت نفسها تنجرف إلي الارتباط بستيف.

شعرت بالرضا وأنا جالس هناك أستمع إلي شيرلي. لست أدري علي وجه الدقة ما الذي أعجبني في فنسنت وشيرلي. كنت أنسي معهم أنني غريب عنهم وأنني مصري وهم إنجليز. علي عكس ما كان يحدث مع آل دنجايت فمهما حاولوا، لم أشعر قط أننا ننتمي إلي نفس العالم. استعدت نفسي القديمة وأنا أجلس مع شيرلي تلك الليلة. لم أكن سوي رام الذي ولد في القاهرة، والذي يحب القراءة والشراب. كنت أشعر بالراحة مع شيرلي وفنسنت؛ الراحة التي لا أحسها سوي مع فونت. سألتني شيرلي إذا ما كنت أحب إدنا، فأجبتها بالإيجاب.

مشينا، يداً بيد، إلي حيث تسكن في سانت جون وود. تكلمنا بيسر، وأخبرتها إنني آسف لما حدث مع ستيف، واعترفت لها بمسئوليتي عما حدث. في جانب من الطريق وجدنا بعض أعمدة المصابيح ممدة جانباً في انتظار من ينصبها، أخذت شيرلي تتقافز فوقها محاولة حفظ توازنها ومستندة علي من حين لآخر كي لا تقع.

قالت: "أنا أحب أخي كثيراً. وأعرف أن ما يقوله عن ستيف حقيقي. هو سيكون زوجاً طيباً، لكن سيضجرني العيش معه. يقول لي فنس إنه سيظل يذكرني إنني أشعر بالملل." قفزت من فوق ال عمود وقالت: "أعلم أنك كنت تغازلني مغازلة عابرة في الحانة، لكنني شعرت بالإثارة علي أية حال. وهو إحساس لم أختبره قط مع ستيف."

انعطفنا إلي الشارع الذي تسكن فيه شيرلي. أمام بيتها تحرك ظل، وقبل أن أتبين ما هو، تلقيت لكمة علي أنفي، وأعمتني الدموع التي عادة ما تسقط إذا ما أصيب الأنف.

"سأقتلك أيها العربي القذر." صرخ ستيف. أخذ أنفي ينزف فملت للوراء كي أوقف النزيف. حتي في تلك

اللحظة، لم أشعر بأي غضب نحوه، فقد كنت أدرك أنه ثمل.

"ستيف، إذا لم تذهب فوراً، سأنادي بادي." قالت شيرلي.

"سأقتل هذا الأيرلندي أيضاً." صرخ ستيف.

قلت لنفسي: لو أني أشعر بالغضب، لكنت طرحت هذا الستيف. لكنني لا أستطيع أن أضرب أحداً إلا إذا كنت غاضباً منه فعلاً.

"أتدري لم أنت بغيض؟ ذلك لأنك تستطيع أن تتشاجر وتقتل دون أن تكون غاضباً بحق. أنا لا أستطيع أن أرد لك اللكمات فقط لأنني لا أشعر بغضب تجاهك."

فتح باب وخرج منه شخص قوي البنية حافي القدمين ويرتدي سروالاً وفانلة داخلية.

جرت شيرلي نحوه: "بادي، قل لستيف أن يعود لمنزله، فهو ثمل."

"أيها الأيرلندي اللعين." صرخ ستيف.

سحبتني شيرلي إلي الداخل. وجدت نفسي أقف معها في المطبخ حيث يشتعل موقد مفتوح الباب، وحيث بسطت حشيّة علي الأرض حيث كان بادي ينام علي الأرجح. سمعنا جلبة، ثم دخل بادي.

قال بادي بلهجة أيرلندية كنت اسمعها لأول مرة: "يجب ألا تخرج الآن، فستيف في حالة مزرية." كان بادي شخصاً وسيماً أبيض شعر رأسه.

"رام مصري." قالت شيرلي.

"أنفك ينزف. أقول لك الآن، لا تدع إنجليزياً يلمسك، فقد أخذوا ما يكفي من بلادكم. لقد رأيت الكثير وأنا طفل. أذكر مرة في كورك. . . ."

قاطعته شيرلي: "أخبره بذلك في وقت آخر." ثم قالت لي: "تعالي إلي حجرة الجلوس."

قلت له طابت ليلتك، ثم تبعت شيرلي إلي حجرة الجلوس. كان أنفي قد توقف عن النزف، وجعل فقدان الدم رأسي تصفو، وجعلني أشعر بالخفة والانشراح.

قالت شيرلي: "هذا هو بادي. ما رأيك فيه؟"

قلت مقلداً لهجته: "يعجبني."

"نحن نتشاجر بلا هوادة. لكن علي الرغم من كونه خنزير عديم الفائدة، إلا أننا نحبه كثيراً أنا وفنسنت. سأذهب لأحضر بعض الأغطية." قالت همساً: كنا نهمس بالرغم من عدم وجود داعي لذلك. غريب كيف يهمس الناس غريزياً لمجرد وجودهم في الظلام. فنحن لم ن شعل نور الغرفة.

"سأعود إلي الفندق." أخبرتها.

"الحافلا ت توقفت. لكن إذا أردت، باستطاعتك أن تنتظر فنسنت ليقلك إلي المنزل." حالما قالت ذلك سمعنا صوت توقف سيارة فنسنت، ثم صوت حديثه مع بادي. قرع الباب، ثم دلف إلي الداخل.

"أهلاً يا رام." قال ضاحكاً بخفة. "سمعت أنك ذقت اللكمة الإنجليزية. كيف حالك؟"

"بخير." قلت ضاحكاً أنا الآخر.

"أرجو ألا تكره ستيف لأجل ذلك، فهو حقاً فتي مهذب."

"بحق المسيح، أنا لا أكره هـ مطلقاً. أنا حقاً خجل مما حدث."

"دعونا لا نتحدث عن ستيف الآن. فنس، هل لك أن تقل رام إلي الفندق؟"

"نعم. لكن لم لا يبيت رام هنا؟ سأحضر البيرة ونتحدث لبعض الوقت."

"حسناً." وافقت.

أضاء المصباح، ثم أطفأه مرة أخري. كان مصباح قوي، وكان الضوء القادم من الشارع ينير الحجرة بضوء خافت يريح الأعصاب. أحضر فنسنت البيرة والكؤوس.

"فلنسأل بادي أن ينضم لنا." اقترحت.

"آه، يا عزيزي. حسناً." قالت شيرلي.

جلست علي الأريكة، في مقابل بادي الذي استقر علي مقعد ذي مسندين، بينما افترش فنسنت وشيرلي الأرض. أسندت شيرلي ظهرها إلي رجلي. جلسنا حتى الرابعة فجراً نتحدث وندخن ونشرب البيرة. أخبرتهم عن الفلاح المصري، وكيف أنه مازال يعيش كما اعتاد أن يعيش منذ

آلاف السنين: الطريقة التي يبني بها منزله هي هي، حتى الطريقة التي يسقي بها الزرع من ماء النيل لم تتغير. ثم شعرنا بالنعاس، فذهب كل من فنسنت وبادي إلي فراشه، بينما ذهبت شيرلي لتحضر الأغطية. قبلتها بشغف، ثم خلعت ملابسي واستلقيت بعد أن غادرت.

لقد قضيت وقتاً ممتعاً بالفعل. لكن، هناك شيء ناقص. العقدة الروائية. هناك نهاية تامة واحدة لكل شيء، هي الموت. لكن هناك نهايات جيدة كذلك. بالرغم من كل ما حدث في ذلك اليوم، وبالرغم من أن اليوم انتهي نهاية طيبة بذلك الحديث الممتع في الظلام إلا أنني لم استطع أن أتخلص من الإحساس بخيبة الأمل التي دهمتني وأنا أرقد هناك. ثم سمعت الباب يفتح، وشعرت بجسد شيرلي الد افيء بالقرب من جسدي. كانت هذه النهاية الجيدة. بالرغم من أننا لم نكن نحب بعضنا، وبالرغم من أننا لا نشتهي بعضنا، إلا أن مجرد النوم جنباً إلي جنب وتبادل القبلات والمداعبات وضع اللمسة الأخيرة الجميلة لليوم.

وأدركت كيف يصل بعض الرجال إلي الاكتفاء حتى مع الرجال أمثالهم.

أخطأت حين ظننت أن مداعبة جسد شيرلي كان عقدة الرواية أو ذروة الأحداث. فقد كانت للأحداث ذروة أخري تحققت حال رجوعي إلي الفندق. تسللت من منزل شيرلي مبكراً دون أن أوقظ أحداً. ذهبت إلي حجرة إدنا حالما وصلت إلي الفندق.

"لقد خنتك." أخبرتها.

"أعلم."

"ألا تشعرين بالغيرة؟"

"أتريدني أن أشعر بالغيرة؟"

"أريدك أن تشعري بها بضراوة، وأن تهددي بالانتحار وتبكي وتصرخي، وأن. . . . أليس هناك كلمات أخري تعني البكاء والصراخ؟ . . . وتهيلي التراب علي نفسك. إدنا، ماذا كانت قصة الناس الذين هالوا التراب علي أنفسهم في الكتاب المقدس؟"

"لست أدري."

"إدنا، ما هذا؟ ما الذي يحدث لي؟ أنا مصري، وقد عشت في مصر طيلة حياتي، ثم فجأة آتي إلي هنا، وبعد ثلاثة أسابيع فقط من الإقامة هنا، أنجرف إلي هذه الحياة الغريبة حيث أقابل فتاة وأري أنه من الطبيعي أن أذهب معها إلي الفراش في نفس البيت الذي تقطنه أمها وأخوها وبادي، وأجد أنه من الطبيعي أنهم يجدونه طبيعياً أن تنام هي معي طالما أنها تريد ذلك. هذه الأشياء لا تحدث في مصر. إذاً، كيف آتي هنا وأعيش هذه الحياة المختلفة تماماً، ومع ذلك أحس أنني كنت أعيش هكذا طيلة حياتي؟ ماذا سيحل بي حين أعود إلي مصر؟ هل سبق لك أن قابلتي أصدقائي يحي وفوزي وجميل؟ أنا لن أعتذر عن قضائي الليلة مع شيرلي. أنت لا تحبينني، وأنا لا أشعر بالذنب لما فعلت. أنا مرهق لأني لم أنم جيداً، ربما لذلك أقول الحقيقة. اسمعي يا إدنا، أنا لا أريد منك أن تنسبي إلي صفات ليست لي. أنا فقط أحب أن أقامر وأن أشرب

الخمر وأن أمارس الحب. ومهما يكن ما أفعل، فأنت يجب أن تعلمي الحقيقة."

"لقد قلت لك قبل الآن إنك لم تعرف المصريين قط. المصريون ليسوا قاطني القاهرة والإسكندرية. أنا أكره هؤلاء كما أكره والديّ."

"ماذا أكون أنا إذاً لو لم أكن مصرياً؟"

"أنت من تكون: شخص ولد في مصر، وتعلم في مدارس إنجليزية، وقرأ الكثير من الكتب، ويمتلك مخيلة خصبة. لكن هراء أن تقول إنك هذا الشخص أو ذاك، أو إنك مصري."

"وماذا عنك يا إدنا؟"

"لا يمكن التعميم بشأني أنا الأخرى. باستثناء إنني ولدت يهودية. لكن الفرق بيني وبينك إنني أعرف المصريين وأحبهم."

"إدنا، تقولين إني مثقف و إني أمتلك مخيلة خصبة. لكنني أيضاً أ متلك من الذكاء ما يجعلني أدرك أنك لا تحبينني."

"للمرة الثانية تقول إننـي لا أحبك."

"أتساءل لم صادقتني أنا وفونت. ولم كنت معنا بهذا الكرم؟ سأخبرك بصدق، إن فونت شخص لطيف، ولا أستغرب محبتك له. لكن بالنسبة لي، فمنذ وضعت قدمي في لندن، تغيرت شخصيتي تماماً. أو ربما، ظهرت شخصيتي الحقيقية فجأة. فأنا لست لطيفاً ولا رقيقاً. بل علي العكس، أعترف، فشخصيتي غير محببة، لأننـي متحذلق ومتكبر. لذا، استغرب كونك لا تقولين لي ذلك في وجهي. ربما تشعرين بالمسئولية لأنك من أحضرنا إلي هنا. لكنني أعفيك من أية مسئولية. تكلمي يا إدنا، أرجوك. دعينا من التعقيدات والحديث المزدوج المعني، ولنخبر بعضنا الحقيقة. فلتحدثيني عن نفسك."

أقفلت عينيها ورقدت بلا حراك لبرهة. خلعت حذائي وتكورت في مقعد بمسندين.

بدأت تحكي: "يعود وجود عائلتي في مصر إلي خمسة أجيال؛ أنا أول شخص في العائلة يتحدث العربية. في صغري، كان لدي مربية يونانية اسمها روزا متزوجة

من شرطي مصري. اعتاد والداي السفر في رحلات طويلة، وتركي في عناية روزا، التي كانت تأخذني للعيش مع زوجها وعائلته في قرية صغيرة. في البداية، كنت أتقزز من قذارة المكان حيث يشاركنا السكني الدجاج والبقر. وكان يزعجني افتقار المكان للرفاهية. لكن مع تكرار ذهابي إلي القرية، أحببت كل شخص هناك. لم يكونوا ليقبلوا هدية دون مقابلتها بأخرى تزيد عليها عشرة أضعاف، مهما كانوا فقراء. أحببت طريقة عيشهم؛ أحببت استيقاظهم مع شروق الشمس وكدهم المضني حتى غروبها، الذي يأذن لهم بالعودة إلي بيوتهم اللبنية أو الإخلاد إلي النوم في الحقول. أحببت الكرامة التي يمتلكها الفلاحون، والتي يجهلها من لم يعاشرهم. أحببت طريقتهم التلقائية في مساعدة بعضهم البعض، وتحملهم لمسئولية اليتامى الكثيرين هناك. في منزلي، اعتاد والداي وأصدقاؤهم الإشارة إلي أي شخص يتصف بالفجاجة وسوء الخلق علي أنه ''فلاح''. كنت أنمو وحيدة، لا أجد بين

معارفي، يهوداً كانوا أو أوربيين أو مصريين، من أعتبرهم أصدقاء."

"كان لزوج روزا أخ يماثلني في العمر. كان اسمه عادل، وكان له عينان بنيتان واسعتان يحيطهما أهداب كثيفة. لم يكن ليحدثني، أو ليقبل مني الهدايا. اشتري له أخوه قميصاً وبنطالاً ذات مرة، لكنه لم يلبسهما أبداً في وجودي. كما أنه كان يصر علي البقاء حافياً حين أكون هناك. اعتدت أن أراقبه من خلف النافذة كل صباح يغتسل تحت طلمبة القرية. حين بلغت الرابعة عشر، كنت أحبه بكل كياني."

"في الثامنة عشر، كنا نعيش في الإسكندرية. كان زوج روزا قد انتقل للعمل في الإسكندرية هو الآخر. وكان قد أفلح في إلحاق عادل بالعمل في الشرطة. أخبرتني روزا أنه لم يقبل رشوة أبداً، مثلما كان يفعل الآخرون الذين كانوا مضطرين لذلك. في هذا الصيف، منحت نفسي لعادل. كنت أتمني أن أتزوجه، وأن أهبه كل ما حرم منه في حياته. لكنه رفض. كانت روزا تمنحني الأمل، فقد كانت تخبرني أنه يهمس باسمي أثناء نومه".

كانت تتكلم ببطء: تنطق كل جملة علي حدة، وتتوقف كثيراً في المنتصف.

"فجأة، أخذني والداي إلي أوربا. كان من المفترض أن أعود بعد شهرين، لكنهما ألحقاني بإحدى الجامعات، وعادا من دوني. كتبت مئات الخطابات بالعربية إلي عادل، لكنه لم يجب قط. أدركت أن السبيل الوحيد أمامي هو محاولة نسيانه." سكتت.

"عدت بعد انقضاء عامين. بعد أشهر قليلة علي انتهاء الحرب بين مصر وإسرائيل في 48 ." سكتت ثانية، لتأخذ نفساً عميقاً .

"بمساعدة أصدقائهما المصريين، تمكن أبواي من رشوة الأشخاص المناسبين لتقديم عادل للمحاكمة بتهمة ''إغوائي''. رفض عادل أن يدافع عن نفسه، فسجن لمدة أربعة أشهر. كل ذلك حدث بينما كنت أنا في أوربا. لم أشك أن أبي اكتشف أمر عادل. حين عدت إلي مصر، وجدت أن روزا قد صرفت من خدمتنا. وحين وجدتها بعد

جهد، أخبرتني بكل ذلك. كما أخبرتني أن عادل مات في الحرب مع إسرائيل".

‘‘كفي.’’ أردت أن أقول لها. ‘‘كفي. أنا لا أرغب في سماع هذه الأشياء. قد أهتم أكاديمياً بدراسة السياسة والظلم، إذا أردتِ، لكن ابعدي عني هذه الأشياء الحقيقية. أنا لا أمانع في القراءة عنهما، لكني ابعدي عني حكاياتك.’’

"ماذا فعلت يا إدنا؟"

"انضممت إلي الحزب الشيوعي. عملت كالعبيد لأجل الحزب. أردت أن أفني حياتي الشخصية، وأن أصبح فقط عضواً في الحزب. تعرفت من خلال الحزب، الذي طالما كان نشاطه سرياً في مصر، علي صفوة المجتمع: مصريين، يهود، ويونانيين. بالطبع اكتشف أمرنا. تدخل أبي بأمواله مرة أخري، وهرعت إلي إنجلترا. ثم قامت الثورة، فهرعت عائدة إلي مصر لأعمل وأحارب لأجلها لكن، من يرغب في مشاركتي؟ فأنا يهودية."

بقيت صامتاً بدون حراك لمدة طويلة.

"هل نمت، يا إدنا؟"

"لا، يا رام."

شعرت بالبؤس. تذكرت وقاحتي وادعائي ‘‘فلتبكي’’ و‘‘تصرخي’’ أردت أن أنزف تحت قدميها حتى الموت ندماً وأسفاً. علمت في تلك اللحظة أنه حين يكون الموقف حقيقياً وصادقاً، لا يكون هناك مجال للانقسام ومشاهدة المرء لبعض نفسه يمثل ما هو غير حقيقي.

"لقد رأيتكما أنت وفونت لأول مرة منذ أحد عشر عاماً." قالت. "كنت في حوالي الحادية عشرة. كانوا يحتفلون بذكري ميلاد منير. كنت أقف مع الكبار، ورأيتك أنت وفونت تتركون الأطفال الآخرين لتلعبوا مع ابن البستاني وتعطوه كمية هائلة من الكعك خبأتموه في جيوبكما. كنت أتساءل لم أخذتما تضعان كل شيء تجدانه علي الطاولة في جيوبكما. كنت أتذكر هذا المشهد في كل مرة أذهب إلي القرية بصحبة روزا. ثم رأيتك في بيت خالتك ذلك اليوم الذي أحدثت فيه تلك الجلبة. هل تفهم الآن لم كان من الطبيعي ألا أريد أن أفقدكما أنت وفونت؟ كنت سعيدة جداً

خلال ذلك العام الذي قضيناه معاً في القاهرة. كنت صادقاً ومخلصاً. كنتما كذلك أنتما الاثنين.

تلا ذلك فترة أخري من الصمت.

"أنا أيضاً كنت سعيداً قبل المجيء إلي هنا." أجبتها. "كان طبيعياً بالنسبة لي أن أكون غارقاً في حبك حتى أذنيّ. بالنسبة لي، أنت ملاك خصني، لسبب أو لآخر، ببعضٍ من نفحاته. أنا أكن لك الكثير من الاحترام. وصدقيني، أنا ممتن لك كثيراً كونك سمحت لي بحبك."

"رام."

"نعم."

لم تجب.

"ماذا هنالك، يا إدنا؟"

"أنا لست ذلك الملاك الذي تتخيله."

ابتسمت دون أن أجيب. كانت هذه المرة الأولي التي تستخدم فيها إدنا الأكليشيهات التي يستخدمها المحبون، لكني تجاهلت ذلك.

"أخبرني بم تفكر".

"تعرفين كم من الكتب قرأت؟ حسناً، بطريقة أو بأخرى، كان ذلك مجرد قراءة. أقصد، إنني لم أربط بين ما كنت أقرأ وبين الحياة الواقعية. لا. أعني إنني لم أتخيل أبدا أن أكون مجرد ‘‘شخصية’’ . . . . أنا لا أصيغ أفكاري بوضوح. أعني إن ما قرأت كان مجرد قصص بالنسبة لي، و. . . ."

"أفهم تماماً ما تعني، يا رام."

"حسناً، ثم بعد أن أتيت إلي هنا، أو ربما قبل أن آتي، أدركت لا شعورياً أنني أنا أيضاً بإمكاني أن ‘‘أحيا’’. لا أعبر بشكل جيد عما أشعر. أعني إنه لا يوجد عذر ولا مبرر للطريقة التي بدأت أتصرف بها. ربما كانت هذه شخصيتي الحقيقية علي أية حال. لكنني قلت ذلك قبل الآن."

"لا. هذه ليست شخصيتك الحقيقية."

"علي أية حال، يا إدنا، لقد قررت أن. . . ." لم أكن قد قررت شيئاً قبل الآن، لكنني وجدت نفسي أخبرها بذلك. "أغادر الفندق غداً."

"إلي أين تذهب؟"

"لا أدري بعد. لكنني سأحاول إيجاد غرفة رخيصة في مكان ما. ربما في الجانب الشرقي. وسوف أتابع دروس الكلية، مهما تكن. أعتقد أنهم يدرسون الرياضيات أو الكيمياء، أو شيئاً من هذا القبيل. هذا خير ما قد أفعل الآن، أن أحاول أن أجد نفسي."

"عزيزي رام. هل أنت واثق أن استئجار غرفة في الجانب الشرقي ليس جزءاً من كتاب قرأته؟"

"ربما كان." أجبتها.

ابتسمت بدون أية سخرية.

"تعال إلي هنا." قالت.

جلست في مقابلتها علي حافة السرير. جذبتني إليها، وضمتني إلي صدرها بقوة.

"أنا أحبك، يا رام."

"أنا أيضاً أحبك." أخبرتها. "كثيراً."

أبعدت ذراعيها عني وسألتني إذا كان معي ما يكفي من المال.

"نعم." أجبتها.

سررت إذ لم أجد فونت في غرفته. حزمت أمتعتي، وتركتها للحمال. كانت إدنا تتكفل بدفع أجرة الفندق. كان معي أحد عشر جنيهاً متبقية من الخمسين التي كانت بحوزتي حين وصلت لندن.

"هل أنت ملون؟" سألت. نظرت إلي يديّ لأري إذا ما كنت ملوناً. طالما قرأت عن ذلك حين كنت في مصر، لكنني لم أقابل ذلك في الحياة العادية. أنا لم أفكر في هذا قط، أكنت ملوناً أم لا. (فيما بعد، ذهبت إلي إحدي المكتبات، ومن خلال قراءتي اكتشفت أنني أبيض.)

"لست أدري." أجبتها.

كانت امرأة سمينة تمسك ممسحة في يدها.

"الأمر لا يتعلق بي يا سيدي. لكنهم أخبروني أن أخبرك، إذا ما كنت ملوناً، إن الغرفة استأجرت. أنت تبدو أبيض بما فيه الكفاية، لكن لا أحد يعلم".

"أنا مصري".

أخبرتني أن أنتظر قليلاً، ودخلت وأغلقت الباب خلفها.

"مصري يا سيدتي. هل الأمر علي ما يرام؟" سمعتها تهتف.

فتحت الباب بعد برهة، وأشارت لي بالدخول. كان هذا في شمال كينسايتون. كنت قد حصلت علي العنوان من لافتة معلقة في أحدي محطات مترو الأنفاق.

رحبت بي امرأة رقيقة الشفتين من خلال أنفها الطويل، وأشارت لي بالجلوس.

"أنت طالب، علي ما أعتقد. لقد أمضيت بعض الوقت مع زوجي، الكابتن تريفورد، في مصر، حيث قابلنا عدداً مدهشاً من المصريين شديدي الذكاء في نادي الجزيرة الرياضي."

كنت أنيق الملبس، يبرز من فتحة جيبي العلوي منديل شديد البياض، وفي يدي أمسك قفازين من جلد بني لامع.

"هل تعرف آل كمال؟" سألتني. "السيدة كمال، صوفي، كانت صديقة عزيزة لي."

"أعرفها. هي ابنة عمي."

"ما أروع ذلك!" صفقت السيدة تريفورد يديها. "صوفي شخص رائع."

"إنها خنزيرة."

"استميحك عذراً؟"

"قلت أن ابنة عمي صوفي ليست سوي خنزيرة."

"حقاً؟ أعتقد إننا نتكلم عن شخصين مختلفين."

"هل تعرفين الدكتور خيري وزوجته؟"

"نعم. كنا نلعب البريدج معهم، وذهبنا إلي فيلتهم الرائعة في. . . ."

"حسناً، إنهم أيضاً خنازير."

"يجب أن تفهم يا سيد . . . سيد. . . ."

"فونت." أجبتها.

"يجب أن تفهم يا سيد فونت أنني والكابتن قررنا أن نؤجر الغرفة فقط من قبيل الواجب الاجتماعي."

"ممتاز." قاطعتها قائلاً ببساطة واعتداد. "يجب أن تمنحاها للساكن إذاً بدون إيجار."

"أوووه هاااا هااااا." ضحكت من خلال فتحتي أنفها. "لا نستطيع ذلك في الواقع. هااا هااا. وكذلك يا سيد فلنت." أكملت من حيث قاطعتها. "يمكنك أن تحتفظ بنكاتك لنفسك."

"نعم، يا سيدة تريكلفورد. هااا هااا. هل تعتقدين أن عشرة جنيهات. . . في الأسبوع

طبعاً. . . مبلغ كافٍ؟"

قفزت من مكانها مؤكدة علي كفاية المبلغ، بالرغم من أن الأمر لا يتعلق بالمال. كما أنه يسعدها أن تسدي صوفي صنيعاً. وبيني وبينها، إن صوفي فعلاً قد تكون . . . .

"خنزيرة." أكملت لها. "لن أري الغرفة الآن، لكنني سأرسل الحقائب مع سائقي. هل يوجد جراج للسيارة؟ فهي بنتلي."

غادرت المنزل، لكنني، بطريقة ما، لم أشعر بنشوة الانتصار. بعد السير لمدة يوم كامل في الجانب الشرقي، وجدت أنه يروق لي العيش هناك علي أية حال. في اليوم

الثالث، وجدت حجرة في منزل يقطنه ميكانيكي وأسرته في باتيرسي. كانت حجرة صغيرة تحوي سرير مستشفي، حوضاً، منضدة، وكرسياً، ولا شيء آخر. لكن الجيد أنه كان لها مدخل خاص، كما أن إيجارها كان رخيصاً. علي أية حال، فقد كان ''للعيش'' بها رونق خاص. بالطبع فإن من ''يعيش''، بالمعني الذي أقصده، لا يعرف أنه ''يعيش'' إلا حين يتوقف عن ''العيش''.

لم أتصل بفونت أو إدنا إلا بعد أن استقر بي المقام في تلك الحجرة في باتيرسي. ثم ذهبت لأراهما، وكان بحوزتي فقط خمسة جنيهات متبقية.

وجدت فونت يحزم أمتعته، وكان مشمئزاً مني. علي الأقل، كان يمكنني أن أخبره بمغادرتي للفندق. أما عن مغازلتي لصديقة ستيف ونومي خارجاً تلك الليلة، فإن ذلك مقزز حقاً. كلما يفكر أننا ذهبنا إلي بيتهم وتقبلنا ضيافتهم ثم حاولت أن أسرق منه فتاته، يشعر بالغثيان. إنني بذلك لا أختلف عن المصريين الطفيليين الذين لا شاغل لهم سوي ملاحقة أية تنورة دون أي وازع من ضمير. لم يعبر

فونت عن رأيه في المصريين الأثرياء من قبل. أخبرته أن ستيف ربما قتل المئات والمئات من النساء والأطفال الفقراء الأبرياء في عدن وقبرص وأماكن متفرقة من إفريقيا. فإذا كان يعتقد أنني سأشعر بوخز الضمير تجاه ستيف، فهو مخطئ. لم يصدقني، لكنه احتفظ بما قلت في عقله حتى يفكر فيه ملياً في وقت لاحق.

"هل إدنا في غرفتها؟"

"تركت إدنا إنجلترا بالأمس."

يدرك المرء مدي حبه حين يعتقد أنه خسر من يحب. ومع الأسف، كثيراً ما يقع في الحب حين يدرك أن من يحبه لا يبادله المشاعر.

"لا تقلق." قال فونت. "ستعود قريباً."

"لم غادرت، يا فونت؟"

"لا أعلم."

"هل كانت غاضبة؟"

"لا. لكنها قالت إننا ينبغي ألا ننسى أننا مصريون، وينبغي لنا أن نعود في وقت ما."

"بحق المسيح يا فونت، أنا أحبها."

وجه إليّ نظرة من نظراته المعتادة، وقال لي إنني أظهرت حبي هذا بطريقة غير تقليدية.

"لا تكن غبياً، يا فونت. إن ما حدث مع شيرلي ليس له علاقة بحبي لإدنا."

"اعذرني، فأنا لم أصل بعد لمستوي التعقيد الذي وصلت أنت إليه."

"أوه، أخرس يا فونت."

بعد برهة، أراني خطابين أحدهما من مكتب الشئون الداخلية.

سيدي العزيز،

أكتب إليك بتوجيه من مكتب الهجرة لأعلمك أن الطلب المقدم من سياتكم لتمديد إقامتكم في المملكة المتحدة قد لا يتم اعتماده دون تقديمكم، في خلال أسبوع، ما يثبت أنه لديكم الدعم المادي الكافي.

خادمكم المطيع. . . .

(لقد وصلني العديد من الخطابات من هذا الخادم المطيع. كان أخرها خطاباً أرسله رداً علي خطاب شخصي أرسلته إليه أخبره فيه أنه ليس بالخادم المطيع علي الإطلاق.)

الخطاب الثاني كان من ديدي نكلا في باريس تخبرنا فيه أنها ستأتي إلي لندن الصيف المقبل، وتريدنا أن نجد لها شقة ''معقولة الإيجار''. ديدي نكلا بوسعها أن تشتري قلعة للصيف، إذا ما أرادت.

"كم من المال بحوزتك، يا فونت؟ "

"خمسة عشر جنيهاً."

"إذاً، لدينا نحن الاثنان ثمانية عشر جنيهاً. لن يعتبر مكتب الهجرة هذا المبلغ كافياً لأي شيء."

"تركت لنا إدنا تذكرتين إلي مصر."

"أنا لن أستخدم تذكرتي."

"وأنا لن أفعل كذلك."

استلقيت علي الفراش، ريثما ينهي فونت حزم أمتعته. ارتفع حاجباه لأعلي، ثم لأعلي، ثم هبطا لأسفل، ثم ارتفعا ثانية.

"إلي أين ستذهب، يا فونت؟"

"سأبحث عن غرفة." قال بينما حاجباه مستمران في الصعود والهبوط.

"ماذا هنالك، يا فونت؟"

"أنظر، يا رام. لقد تركت إدنا معي ثلاثمائة جنيهاً في حال احتجنا إليها. لقد أنفقت علينا من المال ما يكفي حتى الآن. أنا لن ألمس سنتاً من هذا المال. لكن بإمكانك أن تفعل ما تريد."

"ما أريد هو أن ألمس كل سنت من هذه النقود. ماذا تعني النقود بالنسبة لإدنا؟ فلديها أطنان منها. فلم لا نلمسها؟"

"فلتفعل ما تشاء." قال ذلك وأدار لي ظهره متظاهراً بانشغاله بحزم الأمتعة.

"ما خطبك، يا فونت؟"

"ما خطبي أنا؟"

"ما خطبك؟ هل تعتقد أني جاد بشأن النقود؟ بالطبع أنا لن ألمس هذه النقود أنا الآخر."

"اسمع، يا رام. لقد تغيرت منذ أتينا إلي هنا. أنا ما عدت أعرفك."

"حسناً." تنهدت. "لدي خطة جيدة. يمكننا أن نستغل المال بشكل غير مباشر."

"ماذا تعني بشكل غير مباشر؟"

"أصغ إلي، يمكننا أن نودع النقود البنك في حساب باسمي . . . ."

"افعل ما شئت."

"صه. إذا قلت شيئاً الآن، سأقتلك." صرخت به. "نودع النقود البنك في حساب باسمي، ونحصل من البنك علي إيصال بالمبلغ. ثم نسحب النقود ونودعها بنكاً آخر في حساب باسمك، ونحصل من هذا البنك أيضاً علي إيصال. وهكذا يكون معنا ما يثبت أنه لدينا ‘‘الدعم المادي الكافي’’.

أعجبت الفكرة فونت، بالرغم من أنه اجتهد في عدم إظهار ذلك. أمرته أن يعتذر لي ويعترف بأنني أذكي وأخلص وأنزه وأحب إنسان عرفه. كان قد أنهي للتو إغلاق حقيبة ملابسه بعد عشر دقائق من القفز فوقها ومحاولة إحكام الغطاء، فأعدت فتحها عندما رفض أن يكرر ما قلت. تدافعنا بمودة، وعدنا صديقين من جديد.

"دعنا نقامر."

"من، أنا وأنت؟"

"لا تكن غبياً. دعنا نلعب البوكر، أو شيئاً من هذا القبيل، مع أناس أثرياء." لكننا بالطبع لم نكن نعرف أية أثرياء. لذا، اقترحت أن نذهب إلي سباق الخيول. لكن، كان علينا أن نجد حجرة لفونت أولاً. كنت في مزاج حسن في ذلك اليوم. ربما لأن إدنا ذهبت. بعد التغلب علي الصدمة الأولية لرحيلها، شعرت بالحرية. ولكن علي أية حال، فهي عائدة.

أخذنا حقيبة فونت، وذهبنا إلي إحدي الحانات لنتدبر خير وسيلة لإيجاد حجرة له.

علي الرغم من إرسالها النقود لنا، لم تتصل إدنا أو ترسل خطابات لمدة سنة كاملة. وحين عادت في نهاية المطاف، استعدنا علاقتنا كحبيبين. ولكنها رفضت الزواج مني، كما رفضت إعطائي أسباباً لذلك. وتغيرت شخصيتي حقاً. في ذلك الوقت، وصلت ديدي نكلا إلي لندن، وبقيت معنا ثمانية أشهر. الغريب أنه علي الرغم مما حدث بيني وبين وديدي نكلا، فإنني حين أفكر في لندن لا أفكر مطلقاً فيها.

الجزء الثالث

" قد يضحي المرء بالمشاعر التي يمتلكها،

لكن، هل يستطيع أن يضحي بمشاعر لا يمتلكها؟"

جيروديه

فتحت عيني في الصباح علي صوت المؤذن الجميل مختلطاً بصوت حفيف سعف النخل بالخارج، والجلبة التي يحدثها صاحب المقهي أثناء إخراجه للطاولات علي الرصيف المقابل لمقهاه. حتى تلاعب الظلال علي مصراعي النافذة المغلقة بدا متناغماً مع صوت الأذان.

نداء جميل آت من المئذنة العالية يخبرنا أن ''لا إله إلا الله''، ويخبرنا من يكون نبي الله. من قد يتسلق هذه الدرجات ليؤذن إذا ما قامت ثورة حقيقية. لا أحد. أفكار حزينة. نعم، تنهدت، نداء جميل لكنه كان دائماً ما يوصف بالعويل في البلدان ذات الثقافة التي كنت ألعقها كالجرو.

نظرت إلي إدنا النائمة تبدو ندبتها أكثر وضوحاً في ضوء النهار وشعرها منفوش فوق الوسادة. لقد وصف سومرست موم الحب علي أنه مقدرة شخصين علي استخدام فرشاة أسنان واحدة. حب فرشاة الأسنان؟ قربت رأسي من رأس إدنا، فاجتاحني عبير أنفاسها بما يحمل من ذكريات. تأثير الرائحة عادة ما يعلق بالذاكرة أكثر من تأثير السمع أو الرؤية. قليلاً ما قضينا الليل بأكمله معاً. كان هناك ثمة تباعد من جانب إدنا لم أستطع التغلب عليه. كما لم أستطع يوماً أن أعتبرها أمراً مسلماً به في حياتي. لم نكن نتبادل العناق علي سبيل العادة، وبقيت مشاعري تجاهها علي حالها.

يبدو أن أجسادنا وأنفسنا ممتلئة بالسموم تتلوي بداخلنا كالأفاعي ترغب في الإفلات. أفاعي الجنس والحب والمشاعر والإحباط تتلوي وتتلوي وتطل برأسها من آن لآخر. نحاول إغراقها في الشراب والشهوة، ونكبتها علي طاولات المقامرة وفي ملاعب كرة القدم، لكنها تطل من جديد وتعذبنا بضغوطها. من آن لآخر، يبدو أنها جميعاً تفلت فتعطينا فسحة قد نسميها سعادة أو رضا أو حتى سكينة. شعرت بالخفة والسلام كأن كل أفاعيّ قد انكمشت أو غادرتني لبرهة. حتى لحمي بدا أنه يلتصق أكثر بعظامي. كالنساك الهنود الذين ينشدون حياة خالية من الأفاعي.

إذا ما تركت أفكارك تسرح في لحظات كهذه، فهي تعلو فوق تفاهة الحياة اليومية وعاديتها وتبدو كأنها تحملق في العالم من أعلي بتباعد، وحتى برفق. مما قد يمنحك رؤية صافية وجلية للمشهد أسفل كما يحدث حين يصفو عقلك بين نوبات السكر.

هذه النظرة الفوقية التي قد تشمل في مداها العالم بأسره، تركزت فقط علي إدنا. وبتبصر مخيف، أدركت أنه قد يكون علينا أن نفترق. رأيتها ممزقة بين قوميات وأعراق وأحداث سياسية وثورات وديكتاتوريات، وبصفة خاصة بسبب مثاليتها الغامضة. ضممتها برفق بين ذراعي واعياً لضحالتي وتفاهتي في مقابل عمقها وإخلاصها.

فتحت عينيها. بقينا متلاصقين ننظر إلي بعضنا لبرهة.

لا يقرب أي كلام أو شرح بين عاشقين أو صديقين مثلما يفعل الصمت.

"أرجوك أن تذهب، يا رام." همست.

ارتديت ملابسي بهدوء وخرجت إلي حيث كانت تنتظرني سيارة يحي التي استعرتها بالأمس والتي قدناها إلي الأهرام.

أخذت السيارة إلي يحي، ثم عدت إلي المنزل ماشياً.

"ألم تنم الليلة هنا؟" سألت أمي.

"لا."

"أين، إذاً؟"

"كنت مع يحي."

بعد برهة سألتني عم يفعل يحي الآن.

"مازال في الجامعة." أجبتها.

"حقاً؟ ألم ينه دراسته بعد؟"

"لا."

"غريب حقاً. كم قضي في الجامعة؟"

"عشر سنين."

"بالطبع هم أثرياء جداً. أمه كانت معي في المدرسة، أتعلم؟ كانت المشرفة تصر علي وضعنا في عنبرين مختلفين، فقد كنا مشاغبتين جداً حين نكون معاً. كانت محظوظة جداً بالطبع، فوالد يحي رجل محترم جداً. أوربا كل عام، والعشيقة الجميلة تلو الأخرى." أخذت تهز رأسها بتقدير.

"ذهبت لرؤية خالتي نعومي بالأمس."

"آه، يا رام؟" قالت بالفرنسية. "أنا مسرورة جداً لأنك ذهبت لرؤيتها. لقد كنت أتمني دائماً أن تكونا صديقين

أنت ومنير. لقد أصبح شخصاً هاماً. هذا الولد ذكي حقاً. ثم، عليك أن تفكر بالمستقبل الذي ينتظرك إذا ما ساندتك خالتك بنفوذها. ألا ترغب في رؤية نفسك سفيراً في إحدي دول أوربا؟ لديك كل المؤهلات لذلك: طويل ووسيم وتتكلم اللغات، وفوق كل ذلك بالتأكيد تعليمك الإنجليزي. فالرجال أمثالك نادر وجودهم هذه الأيام." ثم قالت إنها تأمل ألا أكون قد ذهبت لزيارة خالتي خالي اليدين، فضحكت.

" كان أبوك مراعياً جداً في مثل هذه الأمور. علي الرغم من أنه لم يكن من وسطنا. لقد كنت صغيراً جداً بحيث لا تستطيع أن تتذكر منزل والدي والرفاهية التي كانت تحيط بنا، الخدم السودانيين في لباسهم المنشي يحيط بوسطهم شريط أحمر. حتى خالتك نعومي لا تعيش في نفس المستوي الذي تربينا فيه.

أشعل كلانا سيجارة.

"وماذا أخبرت خالتك؟"

"سألتها أن تقرضني ألف جنيه."

"ألف جنيه؟ لم تحتاج مثل هذا المبلغ؟ هل عدت إلي المقامرة؟"

"لا."

"لم إذاً؟"

"أوه. لست أدري. أريد أن أعيش في أوربا لبعض الوقت."

"تعقل يا بني. أنا لا ألومك بالطبع؛ فأين الحياة المفتوحة علي العالم التي كنا نحياها؟ بالطبع إذا أنت التحقت بالسلك الدبلوماسي. . . ."

تركت الغرفة وذهبت إلي الشرفة لبرهة، ثم عدت مرة أخري.

أكملت أمي: "كما كنت أخبر ميمي بالأمس الولد قد سافر إلي الخارج ويجد صعوبة في العمل هنا كأي شخص أخر."

"لا أعتقد أنه بإمكاني أن أصبح سفيراً لمصر لدي بريطانيا؟" سألت أمي.

"لم لا؟ من هو سفيرنا هناك الآن؟"

"لا أحد."

"لا؟"

"لا."

"لم لا؟ بالطبع لا يمكنك أن تصبح سفيراً هكذا مباشرة، فأنت صغير السن جداً."

"ياللأسف." أجبتها ثم توجهت إلي غرفتي، واستلقيت علي الفراش.

أخبرني كرولوس، خادمنا، أن الإفطار جاهز. كرولوس قبطي مثلنا وقد عمل لدينا لمدة خمسة وعشرين عاماً. يحمل كرولوس كل الصفات المميزة للأقباط: الخبث والاحتيال الدائم، المداهنة، حتى وجهه ذو العروق النافرة عند الجبهة يفضح هويته القبطية. هو دائماً ما ينحني للأمام قليلاً كأنه يلتهم الأرض.

"ازي مراتك، يا كرولوس؟"

انحني أكثر وقال إنها مريضة جداً. بارك الرب في لسؤالي عنها.

"وأولادك؟"

الرب يحفظني. هو يحاول أن يوفر المال اللازم لكي يعرضهم علي الطبيب.

"هأجيب حد من أصدقائي الأطباء يشوفهم." أخبرته.

مستحيل. فالناس أمثاله يذهبون إلي الأطباء الزهيدي الأجر.

"أنت مش هتدفع أي شيء." أخبرته.

هز رأسه ومشط السجادة بيده.

"وأنت، عيان أنت كمان؟"

المنقذ يعلم: هو لا يفكر بنفسه، فهو سيموت قريباً علي أية حال.

نحن الأقباط لدينا هاجس المرض. غادرت الفراش، وذهبت إلي أمي.

"لا تبدين بصحة جيدة." قلت لها.

"أعلم. فأنا لم أستعد صحتي بعد الجراحة."

دخنت لبعض الوقت بعد تناول طعام الإفطار. ومن ثم لم أعرف ماذا أفعل بنفسي. درت ثلاث مرات حول حجرتي، ثم ذهبت إلي الشرفة، ثم إلي حجرتي، ثم إلي

غرفة الجلوس حيث تجلس أمي. بدون أي داعٍ أو مقدمات قالت إنها ضحت بحياته لأجلي.

"أعلم." أجبتها.

"لا تستطيع أن تتصور. . . ."

"أستطيع ، يا مامي. أعرف أنك ضحيت بحياتك لأجلي."

"منذ. . . ."

"أعرف. منذ أن تزوجتِ."

أمي لم تحب زوجها، وتري أنها تزوجته فقط لتمنحني أباً محترماً. حقيقة أنها أنجبتني بعد عامين من الزواج تبدو لها خارج الموضوع. فأنا مسئول عن الوضع برمته.

"شكراً، يا مامي."

استحممت، وارتديت ملابسي بعناية. هناك ترزي في مصر القديمة تتعامل معه عائلتي منذ سنين. أذهب إليه، أختار القماش، أحصل علي البدل، وبطريقة ما تسدد الفواتير دون أن أدفع مليماً.

"إلي أين أنت ذاهب؟" سألتني أمي.

وقفت أمام الباب أهز مفاتيح المنزل في جيبي. لم أكن أعلم وجهتي.

"إلي النادي." حزمت أمري.

هناك شيء ما يميز هذا النادي. شيء تحسه بمجرد دخولك من البوابة واتجاهك ناحية مبني النادي مروراً بمساكب الزهور المعتني بها جيداً علي الجانبين، وأعمدة المصابيح المصممة خصيصاً تلقي بضوئها عليك، الحجارة البيضاء التي تصف الطريق، موقف السيارات، ملعب الكروكيه حيث يجتمع كبار السن للعب. تخيل كونك عضواً في مكان حيث يلعب كبار السن الكروكيه. هذه السهولة، هذا الانزلاق من مكان إلي أخر، إلي مباني النادي وعبره إلي حمام السباحة حيث الأعضاء يتحركون كالنسيم وحيث النساء الأنيقات يطفن هنا وهناك كمنحوتات متحركة.

الغريب حقاً، أنه في الأيام الأولي للثورة انهالت الاتهامات علي هذا النادي كرمز للاستغلال، وتم التحفظ

علية من قبل لجنة ما. حسناً، إن كل الأعضاء مازالوا أعضاءً مع إضافة بعض العناصر العسكرية. أستخدم كلمة ‘‘أعضاء’’ هذه عن عمد، لأن الوافدين العسكريين اكتسبوا هذه السمة الأثيرية المميزة للأعضاء من ‘‘طواف كالنسيم’’.

مشيت تجاه مبني النادي واضعاً يدي في جيبي. تجاوزتني سيارة مرسيدس جميلة، ولوح لي أحدهم من داخلها. لوحت في المقابل، فكلنا نعرف بعضنا البعض؛ نعرف كل شيء عن بعضنا البعض، ونعرف كم من المال والأطيان يمتلك بعضنا البعض. وكلنا نتزوج بعضنا البعض: الأعضاء المسلمون يتزوجون من المسلمين، والأقباط يتزوجون من الأقباط.

"صباح الخير، يا رام."

"صباح الخير، يا سيدي." لم نتصافح. لو كنا نحمل المظلات أو نرتكز علي عصي، كنا وقفنا في ميل عمودي، ومن يشاهد عن بعد يري زهرتي تيوليب

تتأرجحان بعض الشيء في لقاء قصير. وبما أن كلانا كان خالي اليدين، وقفنا مبتسمين واضعين يدينا في جيبينا.

مشكلتي أنني أحب ذلك. أحب أن أضع يدي، بارزة قليلاً، في جيبي. كما أحب أن أرتدي صدار تحت معطفي، وأن أبرز منديلي قليلاً من جيب المعطف. أحب ذلك، وأعي أنني أحب ذلك.

"كيف حالك؟"

"بخير. شكراً لك. كيف حال اللايدي تانيل؟"

"سعيدة جداً بعودتها هنا. فهي تعشق هذا البلد، وتعتبره موطنها." لقد فقدت عذريتي علي يدي اللايدي تانيل، وكذلك فعل الكثيرون من أعضاء النادي. تأخذك إلي بيتها عندما تبلغ السادسة عشر، أو ما إلي ذلك، كي تعلمها اللغة العربية كما كانت تقول. وبينما تموت أنت حباً وإثارة، تكون هي في قمة الحيوية والتشويق. ثم تجد نفسك في السرير معها، فتتحول من فورها إلي لوح من رخام وتقول لك: "ألم يكن ذلك لطيفاً؟" فتصدم صدمة مروعة.

أنا أتحدث الإنجليزية بغير لكنة. لكن علي الرغم مني، بينما أتحدث إليه، شاب كلامي لكنة لندنية وجدت صعوبة في التخلص منها. غريب.

"قضينا أمسية رائعة في منزل خالتك." قال محدثي.

"رائع."

خالتي تري أنه من المناسب لمنير اتخاذ اللايدي تانيل ‘‘عشيقة’’. (أتحفظ علي استخدام كلمة عشيقة للإشارة إلي اللايدي تانيل لأنك لا تتخذها عشيقة. أنت فقط تنام معها.) هكذا إذاً. أمسية ساحرة في فيلا الهرم. بالطبع لم يسبق لمنير أن لمس اللايدي تانيل. حفلات عشاء! بحق المسيح، هذا الولد غبي. فاللايدي تانيل تلتقط من تريد. حسناً، أنا أحبها علي أية حال.

"هل تصوت لصالح حزب العمل؟" سألته فجأة.

"عذراً؟"

"هل تصوت لصالح حزب العمل؟" كررت.

" يا عزيزي، أنا لم أكن قط مهتماً بالسياسة."

"السويس." قلت.

"أوه، كانت هذه هفوة."

"خمسة وعشرون ألف مصري ماتوا." قلت مبالغاً.

"كل هذا العدد؟ أوه. لعنة الله علي الحرب." قال ضاحكاً. ضحكت أنا أيضاً، ثم افترقنا.

كلمة ''مصر'' تحضر إلي ذهنك، علي ما أعتقد، صورة فلاح عائد إلي بيته بعد المغيب حاملاً فأسه علي كتفه، وابنه خلفه يسوق بقرة. حسناً، إن مصر مكان حيث كبار السن يلعبون الكروكيه. لست أدري لم أثرت في مسألة الكروكيه هذه فجأة، فقد مررت بهذه الساحة آلاف المرات قبل الآن ولم أفكر قط في ذلك. جلست علي مقعد خشبي أشاهد بعض الناس يلعبون. واحدة منهم كانت ميمي التي ذكرتها أمي هذا الصباح. كل النساء اللاتي يحملن اسم ميمي وتاتا وسوسو في وسطي يكبرن ويتزوجن ويكبر أبناؤهم ويتزوجون، لكنهن يبقين الصغيرات ميمي وتاتا وسوسو. أما ميمي هذه فطويلة وتتميز بأقدام مسطحة تجعلها تمشي كالجمل. أتخيلها تنحني علي الأرض تقبلها في أية لحظة. كما أن لها تفاحة آدم بارزة أيضاً. ذهبت

ميمي مع أمي، وكذلك وكل المدعوات ميمي وتاتا وسوسو، إلي أحدي المدارس الداخلية الفرنسية . في صغري، كنت معتاداً أن أصطحب السائق لإحضار بنات خالاتي من نفس هذه المدرسة. كانت هذه المدارس تتبع نظاماً صارماً جداً، وعليك أن تذكر رقم التلميذة السري من خلال فتحة صغيرة قبل أن يفتح الباب فتحة بالكاد تسمح بخروج الهيئة السوداء الشاحبة للتلميذة التي تبدأ في وضع مساحيق التجميل قبل الوصول للسيارة.

"كوكو." صاحت ميمي علي ولوحت بيدها.

"كوكو." أجبتها. لقد كنت أصيح منذ تعلمت الكلام، لكنني الآن أصيح وأنا أعي نفسي جيداً وأعي أنني أجلس هنا وأصيح. هذا بسبب مقالة قرأتها في ‘‘النيو ستايتسمان’’ عن مشاكل الري في الهند. كيف تقرأ مقالة في ‘‘النيو ستايتسمان’’ عن مشاكل الري في الهند، ثم تجلس هنا تصيح.

"كوكو." صحت مجدداً.

"هو ابن أخت. . . ." سمعتها تترجمني إلي رجل يحمل مضرب كروكيه. تأملته يحمل مضربه بشكل شبه أفقي بسبب كرشة. كان عليه أن يمسك بالمضرب ناحية أحد جانبيه كي يتمكن من الوصول للكرة. قد تتصل ميمي بأمي مساءً وتقول لها: "لقد لعبت الكروكيه اليوم. . . كم كان ذلك ممتعاً."

طوحت ميمي برأسها تجاهي، ثم تبعتها.

"يا مجرم." قالت بطريقة لاهية. "أنت تسبب لأمك القلق بسبب هراؤك السياسي."

"تبدين جميلة في هذا السروال، يا ميمي."

"إذاً، لن تناديني الخالة ميمي بعد الآن، يا مجرم. لو كنت أصغر عدة سنوات، لكنت أقمت معك علاقة. اشتريته من كيركا. انتظر حتى تري الملابس الجميلة المستوردة حديثاً من إيطاليا، يا رام. ملابس تجعل ما كنا نلبس حتى الآن يبدو مزرياً. تعال والعب معنا. هل تعلم من يكون هذا القادم نحونا؟" همست لي بهويته أثناء تقدمه.

"ها ها ها ها ها." قال بهدوء واضعاً ذراعه فوق كتفي هازاً إياي قليلاً. ثم شد أذني قائلاً: "أنا صديق عزيز لخالتك. ها ها ها ها."

"إنه شخص ساحر." قالت ميمي.

تسلقت الدرج إلي مبني النادي. في الحال غمرتني تلك الرحابة بالراحة. بإمكاني الذهاب مباشرة عبر المدخل إلي حمام السباحة، الشرفة الكبيرة، أو أهبط الدرج إلي حيث الملاعب والمربيات الأجنبيات، أو أنعطف يميناً حيث غرف لعب البريدج والاسترخاء. وقفت لا أعرف ماذا أقرر. كان بإمكاني من حيث أقف أن أري أن هناك مباراة بولو علي وشك البدء. يجب علي لاعبي البولو أن يبقوا ظهورهم مستقيمة. راقبت أحدهم يختبر ركبة حصانه: ركع علي إحدي ركبتيه كأنما يصلي، ومد ذراعيه بإشارة ملوكية. هل نتكلم عن الفلاح وولده الذي يسوق البقرة خلفه؟ دوق إدنبره، كلهم.

شعرت برغبة في تناول البيرة المثلجة والفول السوداني المملح بجانب حمام السباحة. ثم أدخن سيجارة، ثم أتناول

المزيد من البيرة والفول السوداني. بإمكاني تحقيق رغبتي، علي الرغم من أنه ليس معي أية نقود. لكنني أعرف جيداً كيف سأشعر بعد ذلك، أعرف جيداً الإحباط والتقزز من النفس.

أخذت أراقب السباحين. ليس هناك زى رسمي للسباحة في النادي. لكن إذا لم يحمل ما ترتديه، رخيصاً كان أو غالي الثمن، شعار معين لامرأة تتأهب للغطس، فإنك لست عضواً أصيلاً في النادي. أذكر أن إحدي بنات خالاتي حصلت علي بزة سباحة خيطت خصيصاً لأجلها، فإذا بها تأتي بشعار قديم وتخيطه فوقها. هذه هي مشكلتي، أتدري. ها أنا أقف هنا أشعر بالتفوق وأحكم علي هؤلاء الناس، ثم أتذكر أن بزة سباحتي أنا الأخر تحمل شعار ‘‘الصفوة’’. أتذكر أنني كنت ألعب الكروكيه، وأنني إذا ما لعبت البولو، فسوف أحرص علي إبقاء ظهري مستقيماً أنا الأخر. لا. لن أشرب اليوم بكل تأكيد، فكرت.

"رام بك. بيدوروا علي لاعب رابع في قاعة البريدج."

لقد كبرنا أمام أعين خدم النادي، لذا فهم ينادوننا بأسمائنا الأولي مضافاً إليها الألقاب المناسبة كبك وباشا.

"مين هم، يا حسن؟"

"ابن خالتك منير واثنين ستات أمريكان." قال حسن.

"مين هم، يا حسن؟"

"جداد، يا رام بك." ثم أخبرني أنهما جميلتان جداً. علي أن أتوخي الحرص، فأنا إن خسرت، لن يكون بمقدوري السداد.

"مين في البار النهاردة؟"

"علي." ذلك سيء. فهو يرفض إقراض أحد شيئاً من صندوق النقود.

"النصف بالنصف." قال حسن، ونقدني خمسة جنيهات. "لكن بالله عليك يا رام بك لا تلعب كشريك لمنير أفندي." ها. إن ''أفندي'' أقل لقب شرف في مصر.

أخر مرة شاهدت منير كانت في نادي ليلي، ولقد تجاهلنا بعضنا البعض. اختفي حسن بينما مشيت أنا بتؤدة ناحية قاعة البريدج.

"هاي، رام. كيف أحوالك؟" نادي ابن خالتي منير. "أنا بالتأكيد مسرور لرؤيتك. نحن في حاجة إلي رابع. هل تميل إلي الانضمام إلينا؟"

"أميل. بشكل أفقي." كانت تلك ملاحظة غبية، لكن هناك شيء ما في منير يدفعني إلي قول وفعل أشياء غريبة عن طبيعتي. استفزتني لكنة منير الأمريكية كالمعتاد. لكن ألم أكن أتحدث بلكنة منذ قليل مع زوج اللايدي تانيل؟ تظاهرت أنني لم ألحظ السيدتين اللتين بصحبته. كانتا جميلتين وأنيقتين بطريقتهما الأمريكية المستقلة. بدا إلي أنهما من أصل أسكندنافي. فالنساء اللاتي باستطاعتهن الاعتناء بأنفسهن يبدو أنهن يتخلين عن جزء من أنوثتهن. أذكياء إلي حد ما، علي الرغم من كونهن لا يعترفن بهذا الحد. لكنهن جذابات للغاية.

قالت إحداهن التي تكبر الأخرى بقليل: "أنا كارولين، وهذه سو. الآن دعنا نتفق منذ البداية علي طريقة اللعب." لم أحبها.

"أنا رام." صافحت كلتيهما، ولسبب ما بدا ذلك غريباً.

"جميل أن نلعب معاً مجدداً، يا رام. ماذا. . . ؟"

"ويسكي."

"هذا الشاب ابن خالتي."

تجاهلت منير قائلاً: "أنا سوف أقسم الورق."

"لم لا؟" قالت كارولين.

"سوف يتفق الشريكان علي اللعب."

"أنا وسو سنكون شريكتين."

"نحن سوف نقسم." أصررت، فقد كان هناك حرب دائرة بيني وبين هذه الكارولين. بدا لي من الغريب أنه كان هناك عصر حيث كان الرجل من التهذيب بحيث يقبل أيدي النساء ويأخذ علي عاتقه تحقيق رغباتهن وكأنها أوامر. علي الرغم من أن بعض الرجال شديدي التهذيب مازالوا يأخذون بهذه التقاليد المستعارة والتي ترحب النساء

كثيراً بإتباع الرجال لها. لكنني أعلم أن أمثال هؤلاء الرجال تحتقرهن النساء الأوربيات والأمريكيات. لست أدري لم أفكر في هذا الآن، لكن من خلال خبرتي، فإن مثل هذا العداء في بداية تعارفي بالنساء يجذبهن كثيراً بحيث تنتهي العلاقة بما هو أكثر من مجرد تعارف.

"علي كم نلعب؟"

"جنيه مقابل مئة." قالت كارولين.

جنيه في مقابل مئة. لقد راهنت من قبل علي جنيه في مقابل مئة، لكن ذلك كان لعباً حقيقيا، فأطوي أكمامي وأشرب القهوة بينما العديد من الناس يشاهدون. فجأة أحسست أن الخمسة جنيهات في جيبي لا تساوي أكثر من خمسة قروش.

"بالطبع، فهذا هو المعتاد." قال منير. الكاذب. لكنه يحب أن يخرج دفتر الشيكات ويوقع علي شيك. نظر إلي. هو يعلم أنه سيضطر أن يدفع خسائري في حالة خسرنا.

"لا بأس." قلت.

وجدت نفسي أشارك منير اللعب حتى صرخ: "هذه الأوراق استخدمت من قبل." فأحضرنا مجموعة جديدة، وانتهزت أنا الفرصة فقسمت مجدداً وشاركت سو اللعب. كانت تلعب بمهارة عفوية اكتسبتها علي الأرجح بعد طول ممارسة، لكنها تجعلك تتساءل إذا ما كانت صاحبتها تمتلك أية مخيلة. لكننا ربحنا الثلاثة أدوار الأولي.

صرخت كارولين للمرة الثالثة: "مووني، لقد فوت دورين." ضاعفت رهاني، فخسرا مرة أخرى.

أعلن منير انسحابه من اللعب.

"مووني، أنت من أردانا!"

"بالتأكيد أنا فاقد التركيز."

كنا قد شربنا كثيراً أثناء اللعب. فحين تطلب كأساً من الويسكي وأنت بصحبة منير، فإن النادل لا ينفك يملأ الكؤوس كلما فرغت محتوياتها. كانت أصوات رواد حوض السباحة تصلنا خافتة في قاعة البريدج. تستطيع دائماً معرفة مكان حوض السباحة من خلال الأصوات الآتية منه، فضحكات الأطفال لها صدي مميز. الشمس القوية

في الخارج في مقابل العتمة والبرودة النسبية والهدوء في القاعة، والويسكي_ كل ذلك مقترناً بجمال سو وكارولين_ كان من الممكن أن يكون لطيفاً ومكتملاً لولا أن كارولين كانت تسلخ منير لخسارتهم بينما لم يحاول هو أن ينفي تهمة التقصير التي توجهها إليه عن نفسه. انفجرت ضاحكاً.

"أنا مسرورة لأنك تجد ذلك ممتعاً." خاطبتني ببرود.

"فعلاً." أجبتها.

"حسناً."

"نعم."

عم الصمت المكان، وحتى منير الذي ثمل لأنه لا يشرب كثيراً في المعتاد أحس بالخطر. لكن بدون توقع، ابتسمت كارولين وابتسمت أنا وأصبحنا أصدقاء. أقول لكم، فالأمر غريب مع النساء الأوربيات والأمريكيات.

"سألعب مع منير الدور القادم." قلت.

"أتمنى أن تستطيع تحمل التكاليف."

"في الحقيقة، أنا لا أستطيع." فجأة ناسبني أن أكون فقيراً. حتى أنني تمنيت لو كنت معدماً ولا أجد ما آكله. لكن في هذه الحالة، ما كنت أستطيع الدخول إلي النادي. ففيما عدا النادي، الفقر ليس ممتعاً علي الإطلاق.

"لا أصدقك." قالت كارولين. لكني أصررت علي ما قلت.

"سأسأل موونـي. موونـي هل ابن خالتك فقير؟"

"هو بالتأكيد يعرف أنه إذا ما أحتاج أي شيء ما عليه سوي أن يسألني."

كنا قد توقفنا عن اللعب أثناء الحديث، وكنا علي وشك استئناف اللعب حين حضر رجل طويل وبدين في أربعينياته ووضع يديه علي كتفي كارولين. كان يرتدي نظارات طبية وكان أصلع.

"أهلاً." حيته. "هل تعمل هذا المساء؟"

"أعتقد ذلك. نحن نعاني بعض المشكلات مع رجل يدعي. . . أبراكادابرا، أو شيء من هذا القبيل." قال ذلك

مخرجاً بطاقة من حافظته. "أعتقد أنني سوف أحتاج إلي عونك، يا مووني." أعطي منير البطاقة.

"عبد الحكيم." نطقها منير بطريقة تنم عن كونه هو الآخر يجد صعوبة في قراءة الاسم.

"جاك. هذا رام، ابن خالة منير." صافحني جاك بقوة، وقال إنه مسرور جداً بلقائي. ولأنه أعجبني، فهو يبدو لطيفاً، فقد قلت له: "أنا أيضاً مسرور جداً بلقائك، يا سيدي." خاطب أمريكياً بيا سيدي، يقع في غرامك.

"هل تعمل مع منير؟"

"لا."

"جاك زوجي." قالت كارولين.

"هل تعمل هنا؟" سألته خائب الأمل لأنني لم أكن أدري أنهما متزوجتان، فلم يكن في يديهما محابس زواج. "ظننت أنكما سائحتان."

"جاك في مهمة تقصي حقائق." قالت كارولين.

"هل زوجك في نفس المهمة." سألت سو. هزت رأسها، ثم قالت بعد برهة: "أنا لست متزوجة."

"سو أختي." قال جاك. "ومنذ قرأتا سنوحي المصري أرادتا القدوم إلي هنا."

نادي منير النادل، فطلب جاك كوكاكولا. كانت الورقة التي تحمل نتائج اللعب ملقاة بإهمال علي الطاولة مع أوراق اللعب، وفي أية لحظة قد ينظف النادل الطاولة ويرمي بها.

"ما الحقائق التي تتقصاها، يا سيدي؟"

"ناده جاك." قالت كارولين.

"جاك." رددت.

"حسناً، نحن مجموعة من الناس ننتقل من بلد إلي آخر، نعيش كما يعيش أهل البلد، نشاركهم حياتهم اليومية، لنعلم رأيهم في الولايات المتحدة، وكيف نستطيع تعميق وتقوية صداقتنا مع هذه الشعوب." سحب كرسياً وجلس عليها واضعاً ذراعه علي ظهر كرسيّ ووجهه قريب من وجهي مؤكداً علي كل جملة من جملة القصيرة المرتبة. تذكرت أن أمريكيين من طائفة مورمون طرقا بابي في لندن ذات يوم محاولين إقناعي، بنفس العبارات القصيرة المرتبة،

أن الرب عبارة عن ثلاثة كيانات منفصلة. . . أو العكس، لست أذكر تحديداً.

"هذا لطيف حقاً. هل تكفل الحكومة هذا المشروع؟" سألته.

"بشكل غير مباشر، في الواقع. لكننا كونا اللجنة ومولنا المشروع بأنفسنا."

"أتمني أن تستمتع بإقامتك بيننا."

"لقد لقينا ترحيباً وكرم ضيافة تفوق كل توقعاتنا. سيسعد الناس في الولايات أن يعلموا أننا كونا الكثير من الصداقات في هذا البلد، مصر."

"أنا مسرور لسماع ذلك."

"لقد قابلنا العديد من الناس اللطفاء."

لم أكن أرغب في البعد بالحديث عن الطاولة ومحتوياتها، فمازالت مسألة ورقة النتائج والمال الذي كسبته معلقة.

"هل تلعب البريدج، يا جاك؟"

"نعم. هذا قاسم مشترك آخر بين شعبينا. فنحن لدينا العديد من الهوايات المشتركة. فنحن نلعب ألعاب الورق نفسها ونتكلم بنفس اللغة."

"هل تلعبون الكروكيه في الولايات؟"

"في الواقع، لا أستطيع أن أدعي أننا نلعب هذه اللعبة. لكنني لا أري داعي ألا نفعل في المستقبل."

"سيكون ذلك قاسم مشترك إضافي." قلت.

"بالتأكيد."

طويت الورقة التي تحمل نتائج اللعب، ثم فضضتها، ثم طويتها مرة أخري. عم الصمت القاعة لبرهة، مما يعني أننا قد نغادر بين لحظة والأخرى.

"ما مشكلة الرجل الذي ذكرته لتوك؟"

"هذا الرجل أبراكادابرا." اتسعت ابتسامته لهذه النكتة، ثم فجأة ارتسم الجد علي وجهه وقال: "الآن، لا تسيء الحكم علي. إنه لخطأ لعين ألا أستطيع أن أنطق اسم الرجل بشكل سليم، لكنني لم أقصد أن أتحدث عنه بقلة احترام."

"بالطبع لم تقصد ذلك."

"حسناً، هذا الرجل مختص بالعلاقات العامة فيما يختص برئيس مصر. وأنا أرغب في الحصول علي صورة فوتوغرافية لي وأنا أصافح رئيسكم."

باستطاعتي أن أتخيل الصورة التي قد يضعها في كتاب يحتل مكاناً في العديد من المكتبات الأمريكية حول العالم وتحتها تعليق: المؤلف يصافح الرئيس.

"دعه لي." قال منير.

"دعه لمنير." رددت. ثم سألته أين يقيمون، فقال مع مووني.

"لابد أن يكون ذلك مفيداً جداً بالنسبة إلي تقصي الحقائق." قلت "أن تقيم مع عائلة مصرية."

"نعم، حقاً. أكتب ملاحظاتي بينما أنا أقيم مع الناس الذين أتيت كي ألاحظهم."

"ممتاز." قلت، ثم سألته كيف يجد مستوي الدخل مقارنة مع مستوي الدخل في الولايات المتحدة.

"في الواقع، هناك الكثير من المغالطات فيما يقال عن هذا البلد. الناس في بلادي سوف يندهشون حين يطلعون

علي ما جمعت من حقائق خلال إقامتي مع خالتك وابنها. سأعطيك مثالاً شخصياً علي ما أقول." كانت عينيه مفتوحتين علي سعتهما، وفمه يلامس أذني طيلة الوقت، بينما يطلعني علي الحقائق التي جمعها أثناء إقامته لدي خالتي مشيراً بإصبعه تأكيداً علي ما يقول. "لدينا، في لوس إنجيلز حيث نعيش، خادمة وطاه فقط. علي زوجتي، كارولين، أن تقوم بالكثير من الأعمال المنزلية بنفسها. أما هنا، فالزوجة لا تقوم بأي عمل، بل لديها بستاني وسائق وطاهيان وخادم يقوم بالأعمال المنزلية الأخرى." كان ينظر إلي منير ينتظر تأييده، فيومئ الأخر بحكمة موافقاً.

"أنت تقوم بعمل جيد، يا جاك." قلت بلهجة أمريكية. ثم وقفت مغادراً، وأخبرتهم إنني سأسبح قليلاً وربما لا أراهم فيما بعد، لذا أرغب في تحصيل المال الذي كسبته الآن. "لقد خسرت ستين جنيهاً، يا كارولين." وضعت الورقة النتائج أمامها.

"جاك، هل لك أن تعطي رام ستين جنيهاً؟"

"طبعاً. لكن كم يساوي هذا المبلغ بالدولار؟" بينما أخرج منير قلمه المصنوع من الذهب، وأخذ يحسب كم يساوي ذلك بالدولار. ثم أخرج دفتر شيكاته المغلف بالجلد، وكتب شيكاً لسو. أعطاني جاك ورقة بمائتي دولار. كان ذلك المبلغ يزيد عن قيمة الستين جنيهاً التي تدين لي به زوجته، لكنه يوافق ما حسبه منير بقلمه المصنوع من الذهب.

"هل يرغب أحدكم في السباحة؟" قلت محاولاً استقدام سو.

"نعم." قالت كارولين، ثم قامت معي مودعة الآخرين.

"هل لديك لباس سباحة؟" سألتها

لم يكن لديها واحد، بينما كان ينتظرني لباسي الذي احتفظ به في خزانة في النادي. وقفنا لبرهة نشاهد السابحين والرواد الذين يتناولون طعام الغذاء والشراب حول الحوض.

"أف. أحس برغبة كبيرة في السباحة."

"لا تقلقي، سوف أحضر لك لباساً." طلبت منها أن تنظر حول الحوض وتدلني علي فتاة تماثلها في القياس، فأشارت إلي فتاة مستظلة تقرأ.

"سأعود بعد لحظة." قلت لها، واتجهت ناحية الفتاة.

"لولا. افعلي معروفاً وأقرضيني زى سباحتك."

"رام. كنا نتحدث عنك بالأمس."

"لا يهمني. كما أني أعرف ما كنتم تقولونه."

"ماذا؟"

"إن واحدة منكن لن ترضي أن تتزوجني."

"حسناً، أنت تعرف ذلك، يا رام. لكن واحدة قالت. . . ."

"نعم، نعم. فيكي دوس قالت إنها لا تمانع أن تتزوج رجلاً مفلساً لأنها مثقفة. وهي مثقفة فقط لأنها عاشت لسنتين في الحي اللاتيني ومروج سانت جيرمان."

قالت بالفرنسية: "أف، أنت غير عاطفي. علي أية حال من المرأة التي معك؟"

"إنها أمريكية." تفحصتها لولا.

"هل هذه أجمل مني؟"

"لا يهم من الأجمل. هي علي الأقل ليست عذراء لعينة مثلك."

هذا الأمر يقتلهن. الفتيات في النادي جميعهن منفتحات جداً، لكنهن جميعاً عذراوات، ويبقين كذلك حتى يتزوجن. وذلك يقتلهن. حتى فيكي دوس عذراء.

"وقح." قالت ضاحكة. "ها هو مفتاح دولابي. لكنها في الغالب ستكون سمينة جداً علي بذلتي." كنت علي وشك مغادرتها عائداً إلي كارولين حين قالت: "لا أريد أية آثار منوية علي بذلتي."

"أفضل أن تحبي وتبقي آثار منوية علي بذلتك من ألا تحبي علي الإطلاق." أجبتها.

"ربما. لكنني لا أريد أية آثار علي بذلتي دون أن أحب." ضحكنا معاً، ثم عدت إلي كارولين.

بعد أن سبحنا قليلاً، تناولنا طعام الغذاء إلي جانب حوض السباحة. تناولنا البيرة المصرية مع شرائح اللحم، وكان حسن، الذي أقرضني الخمسة جنيهات، من قدم لنا

الطعام. سألتني كارولين لم هو يبتسم بحبور هكذا، فأخبرتها عن الخمسة جنيهات.

"أفهم من ذلك أنك فقير؟"

"نعم."

"جاك يمتلك مطعمين في لوس إنجيلز. كنت نادلة في أحدهما." يبدو أنها هي الأخرى وجدت أنه سيكون لطيفاً أن تكون فقيرة في هذه اللحظة.

وهكذا، فكرت، ها نحن قد تناولنا الويسكي ومتعنا أنفسنا ساخرين مما حولنا. وها نحن نتناول الغذاء إلي جانب حوض السباحة برفقة امرأة جميلة وبحوزتنا مائتا جنية. كما أن فيكي دوس لن تقول لا."

"أين ذهبت بأفكارك، يا رام؟"

أفترض، مجرد افتراض، أنني لم أقابل إدنا يوماً، وأنني لم أسافر إلي أوربا، هل كان الزواج من فيكي دوس أو من لولا الظريفة والعيش في شقة جميلة وامتلاك سيارة وقضاء معظم الأوقات بالنادي ولعب الكروكيه ليضحي فكرة سيئة. وحتى الآن، هل هذه بالفكرة السيئة؟ أليست هذه حياتي

علي أية حال؟ ألن يكون ذلك امتداد للحياة التي عشت منذ مولدي. ووجدت نفسي، للمرة الأولي منذ عودتي إلي مصر، أفكر في ديدي نكلا.

"أتتنهد؟"

"حسن." ناديت. "كأسين كبيرتين من الكونياك، من فضلك."

"لقد شربنا ما يكفي. أنت معتاد علي الشراب كما أري."

"لا."

"تبدو حزيناً."

نظرت إليها. كنا قد تغازلنا قليلاً في الماء: أمسكت يدها، فضغطت علي يدي في المقابل. أخذت يدها بين يدي وقبلتها.

"أنت ظريف."

"شكراً."

كان حسن قد استبدل إحدي ورقتي المائة دولار بالجنيهات، وكنت قد أعطيته عشرين جنيهاً ليحتفظ بها لنفسه.

اقترب منا منير بخطي غير ثابتة، وصاح بالعربية: "سكتتنا له دخل بحماره. زوجها ينتظرها بالداخل، وأنت تتناول الغذاء معها هنا. سكتتنا له دخل بحماره."

كانت طاولتنا تشرف مباشرة علي حوض السباحة. وقد وقف منير أثناء صياحه ملاصقاً لحافة الحوض بحيث أن أقل دفعة قد تفقده توازنه فيقع في الماء، فأعطيته هذه الدفعة. سمعت ضجة سقوطه في الحوض، ورأيت ربطة عنقه تتبعه إلي الماء. نظرت حولي، ثم هربت. جبان. لن أكون أبداً سفيراً، ولا حتى في واحة.

وجدت سيارة أجرة خارج النادي مباشرة. سألت السائق كيف تسير الحياة معه، فقال إنه لا يشكو شيئاً. قلت له: "أقصد بعد الثورة وكل ده."

"أقول لك. كان زبائننا قبل الثورة من المناطق الراقية فقط، أما الوقت فضباط الجيش كمان يركبوا معنا. يعني الوقت عندنا الناس الراقية والجيش كمان." وكما أعلم فإن

الجيش منتشر في كل مكان من القاهرة. لا، هو لا يشكو من شيء.

"جميل."

"أيوة، الأمور مش وحشة قوي. عموماً الواحد يقبل اللي يعطيه ربنا."

طبعاً. أما إذا لم يكن هناك رب، فلا يأخذ أحد شيئاً. هناك عدل في الكون علي أية حال. كنت ثملاً بعض الشيء.

"أنت كاثوليكي متدين."

"أنا؟ أنا مسلم، واسمي محمد علي اسم الرسول."

"دا قصدي. أنت مسلم كاثوليكي متدين."

"الظاهر إنك شارب حاجة."

"أنا. أبداً."

"صعب تلاقيه اليومين دول."

"صحيح."

"وغالي جداً."

"أيوه."

"لكن، لو عايز، أقصد لو نفسك فيه، ممكن يعني. . . ."

"لا."

"صنف كويس. تمام زي اللي كان قبل الثورة."

"لا." أجبته. لم أكن مهتماً. طالما دخنت الحشيش، لكنني لم أكن يوماً بمفردي. كما أنني لم أذهب يوماً بحثاً عنه. لكنه متاح إذا ما أراد أحد شرائه.

مددت يدي إلي جيب سترتي كي أنقده أجرته، فلامست يدي رزمة النقود التي نسيت وجودها. جعلني تذكر النقود انشرح.

صعدت إلي نادي البلياردو وسألت فونت إذا كان يرغب في اللعب معي.

"لا. يجب أن أذهب للتسوق. راقب المكان حتى أعود."

هبطت إلي الطابق الأول، وسألت فارينيان إذا كان يرغب في لعب مباراة بلياردو معي.

"علي ما تراهن، الاحتراف؟"

"جنيه للنقطة."

"عظيم." صاح. كنا علي وشك مغادرة المحل، حين جاء دوروماين ركضاً من الغرفة الخلفية. تلا ذلك واحدة من المجادلات الأرمينية العاطفية التي أحب سماعها. في أخر الأمر اقترعا واستقر الأمر علي أن دوروماين من سيلاعبني، الذي راهن كذلك، مقابل جنيهاً، علي أنه سيكسب المباراة. فاقترح فارينيان أن يعطي الرابح الخاسر الجنيه علي سبيل التعويض. تبادلا الإهانات مازحين، وأتي فارينيان بحركات وأصوات بذيئة. في الأخير، صعدت ودوروماين إلي النادي.

"البروفسور يشكل الوزارة؟" سأل دوروماين.

"ذهب للتسوق." أجبته منسقاً الكرات فوق الطاولة.

خلع معطفه وأدخل ربطة عنقه من بين أزرار قميصه، وأخذ يجرب بعض الضربات علي طاولة أخرى.

"في أي جامعة تعلمت لعب البلياردو؟" سألني.

"في تركيا." أجبته.

هناك مجموعة من الأتراك الأعضاء في نادي البلياردو ممن اعتاد دوروماين وفارينيان تبادل المزاح الثقيل معهم.

"الله." قال أحد الأتراك ذات مرة مخاطباً دوروماين.

"كنت لتصلح لصنع المقانق الشهية. لقد وصلني للتو بعضها من أنقرة، رائحتها تبدو تماماً كرائحتك. أُخذ الدهن من الدوروماين الأم، قامت جدتي بإذابتها."

رد دوروماين: "لا. والدتي في البيت. كانت تعاني من الإمساك لمدة طويلة، حتى بنينا لها مسجداً صغيراً في الشقة، فقد كانت معتادة علي فعل ذلك في تركيا."

"نقودك، يا صاحب السعادة." قال دوروماين الآن.

أخرجت رزمة النقود ووضعتها علي إفريز النافذة، ففعل مثلي. غطي طرف عصاه بالطباشير وتفحصه، رسم صليباً علي صدره متمتماً شيئاً بلغته، ثم رسم علامة أكس علي الطاولة ليجلب لي سوء الحظ.

"أبدا أنت." قال.

"لا. أبدا أنت."

من المستحيل إحراز النقاط من الضربة الأولي لأن الكرات تكون مازالت متجمعة في مكان واحد.

"قبطي." قال باصقاً في منديله. جلس مظهراً عدم الاهتمام بالمباراة. فعلت مثله، فوضعت عصاي علي الحامل ونظرت من النافذة. فجأة تظاهرت بأنني أري فارينيان وأدعوه إلي الصعود لمشاركتي اللعب."

صرخ دوروماين شيئاً لم أفهمه، واندفع ناحية النافذة قائلاً: "نقترع."

"موافق."

فاز هو وبدأت أنا اللعب. في منتصف المباراة عاد فونت.

"علي ماذا تراهن؟" سأل فونت.

"جنيه للنقطة." نظر إلي عدد النقط، كنت أنا متفوقاً بفارق أربعين نقطة.

"هلا صنعت بعض *الباس*، يا فونت؟"

"*باس*، *باس*. لم لا تسميانها بيرة كباقي الناس؟" سخر دوروماين الذي كان متضايقاً من خسارته.

"*الباس* هي بيرة المثقفين." أجبته.

"عذراً، عذراً." قال منحنياً حتى الأرض."أنا لم أقرأ كتابك الأخير. هل سيترجم إلي الأرمينية؟" توجه بالسؤال إلي فونت.

"بالطبع أنت تعلمت حروف الهجاء." قلت لدوروماين.

"نعم. وأرجو ألا يغير البروفسور شيئاً منها في كتابه."

ضحكت، بينما جلس فونت علي إفريز النافذة يراقب المباراة.

"أنا أخسر أربعين جنيهاً." قال دوروماين لفونت. "وأود أن أكتب أطروحة تتناول عدم لعب البلياردو مع الأقباط الذين يدعون الثمالة. زمزمادريان دوروماين، دكتور في البلياردو في خدمتك." انحني ثانية أمام فونت ماداً يده خلفه، ظناً إنني لم ألاحظه، وحرك الكرة السوداء إلي الأمام بما يعادل سبع نقاط، أي سبعة جنيهات. لكن، كان عليه أن يسقط كرة حمراء قبل أن يستطيع إسقاط السوداء. كانت الكرة الحمراء قريبة بحيث يسهل إسقاطها، فأزحتها للخلف عندما أزاح دوروماين الكرة السوداء إلي الأمام.

"والآن،" قال دوروماين مغطياً طرف عصاه بالطباشير، "مهرج البروفسور الخاص. . . ." بتر كلامه حين لاحظ التغير في وضعية الكرة الحمراء. وقف ساكناً لبرهة، ثم جلس علي كرسي جلدية محدقاً في. "لقد أبعدت الكرة الحمراء." قال مشيراً بإصبعه تجاهي.

"نعم." أجبته.

توجه إلي فونت: "أنا لم أذهب إلي الجامعة، ولا شهادات لدي. ذهبت إلي مدرسة متواضعة، وأنا رجل فقير، لكنني لا أغش. لا. أبداً." هز رأسه مؤكداً نفيه.

حدق فونت في. "رام هل غششت؟"

"نعم."

كان فونت يجلس بجوار رزمتي النقود، فأخذهما وأعطاهما إلي دوروماين. وضعهما دوروماين في جيبه، ولبس سترته. بقيت جالساً. اتجه ناحية الباب ونظر إلي، لكنني لم أتحرك.

"مصري قذر." قال ضاحكاً. "كنت لأفعل ذلك أيام فاروق، لكنني الآن أخاف." أعاد إلي نقودي، ودفع لي

الأربعين جنيهاً التي يدين لي بها حتى الآن، ثم أعاد الكرة السوداء إلي مكانها الأصلي. فوضعت الكرة الحمراء في مكانها واستأنفنا المباراة التي انتهت بعد عشرين دقيقة. دفع لي ثلاثين جنيهاً أخرى قبل أن يغادر لاعناً حظي بلغته. أقفلت الباب خلفه.

"فونت، هل تعتقد حقاً أنني قد أغش؟"

"نعم." أجاب.

كنت قد تشاجرت مراراً مع فونت منذ عودتي، وكان ذلك يعني انقطاعي عن الذهاب إلي نادي البلياردو لأسبوعين أو ثلاثة.

"أتدري؟ إن حالك كحال من يشتري راديو معطوب لأنه يهوى الصمت."

"ماذا تقصد؟"

"فسر ذلك بنفسك."

"ماذا. . . ؟"

"أقصد ماذا تحسب نفسك فاعلاً إذ تجعل من نفسك أضحوكة بالعمل هنا، بينما تصدر أحكاماً مترفعة علي

أخلاقي. لم لا تستجمع نفسك وتجد لنفسك وظيفة محترمة و. . . ."

"وماذا تفعل أنت عوضاً عن الكلام؟"

"أنا لا أتحدث عن نفسي."

"ولم لا تجد أنت لنفسك وظيفة؟"

"أنا لدي وظيفة."

"ماذا؟"

"أنسي الأمر." قلت متضايقاً إذ بدأت بشجار جديد معه، بينما تظاهر هو بالانشغال بترتيب كرات اللعب.

إذا حصل علي وظيفة لا ''يضعه'' فيها أحد كخالتي قد يحصل علي عشرين جنيهاً كما يحصل الآن من جميل. لدينا عدد هائل من المهندسين والمحامين والكيميائيين والفيزيائيين العاطلين عن العمل، أو الذين يعملون في وظيفة ما لدي الحكومة مقابل عشرين جنيهاً، فيجلسون طوال النهار بلا عمل. يقدم إليهم عروض هائلة من أمريكا الجنوبية والسودان وغانا وتركيا، وحتى من ألمانيا، لكنهم لا يستطيعون الحصول علي جوازات سفر،

ولا يسمح لهم بالسفر. لست أدري لم، إذا ما كانوا بدون عمل. لكن ذلك ليس سبب تعطل فونت، علي أية حال.

"فونت، ماذا تريد بالضبط؟"

"أخرس." كما قلت سابقاً، هو لا يعرف ماذا يريد. ذهبت خلف البار لأخلط بعض *الباس*. كان هذا المساء إجازة لفونت، فأخذ يغلق كافة الأبواب.

"خذ." أعطيته قدحه المليء بخليط البيرة. "فونت، هل تعلم من فعل تلك الفعلة الشنيعة بإدنا؟"

هز رأسه نافياً.

"يا الله، أرغب في قتله."

"أنت؟" سخر فونت. "أنت حتى بقيت في إنجلترا بينما كان الإنجليز يقذفون بورسعيد."

"وكأن عودتك غيرت الكثير. لم لا تسخر من يحي كما تسخر مني، فهو لم يعد من باريس حيث كان يقضي عطلة أثناء الهجوم؟"

"يحي؟ وهل أنت مثل يحي؟"

"لا. أنا مثقف مثلك."

ثم قد تبدأ إحدي المهاترات التي تعبت منها وضقت بها؛ هذه الطبقات من الطين التي تساعد فقط في دفن فونت ورام القديمين في قبرينا المعلقين بين عصور من الحضارة. "أنا لم أقل قط إنني مثقف." "لا، لكنك تحسب نفسك واحداً."

قلت مغيراً الموضوع.

"دعنا نلعب البلياردو، يا فونت."

"ما هذه الوظيفة التي تكلمت عنها؟" سأل بعد برهة.

أنتمي إلي منظمة سرية يرأسها الدكتور حمزة، والد جميل، الذي يجمع المستندات والصور، التي تثبت ما يحدث في معتقلاتنا السياسية من انتهاكات، في ملف ينوي تقديمه للأمم المتحدة. والدكتور حمزة، كما قلت سابقاً، من ذلك الطراز الفرنسي التعليم الذي يؤمن بحقوق الإنسان. الغريب في أمر تلك المعتقلات أن ملاك الأراضي والرجعيين من المعتقلين الذين يعارضون النظام القائم ويتمنون عودة النظام الملكي يعاملون معاملة أفضل

وتصدر ضدهم أحكام مخففة. أما باقي المعتقلين من الشيوعيين وأنصار السلام مع إسرائيل الذين يرون أنه لا مستقبل اقتصادي لمصر بدون ذلك السلام، فإنهم يعاملون معاملة قاسية ويعذبون بضراوة. لكن المشكلة تكمن في أن الدكتور حمزة لم يقم بأية خطوة حتى الآن ولم يقدم الملف الذي أعده بالرغم من أنه أصبح يحوي من المستندات ما فيه الكفاية لإدانة النظام الحاكم.

أما عما أقوم أنا به، فأذهب مرة في الأسبوع لمقابلة ضباط شرطة، يفترض أنهم أصدقائي، فيسلموني مغلفاً يحوي صوراً وتقاريراً يكتبها المعتقلون، مقابل مبلغاً من المال. ولكن ينتابني إحساس رهيب بأن الصور ما كانت لتكون بهذه الدموية ما لم ندفع جيداً في مقابلها.

"ما تلك الوظيفة؟" ألح فونت في السؤال.

"لا شيء."

لم أرغب يوماً في حدوث شيء مأساوي في حياتي. لكن منذ. . . حسناً، منذ لندن وكل ذلك وأنا أتجه إلي

الأشياء المأساوية وكأنني قد سلبت الإرادة. المضحك في الأمر أن ملايين الناس يواصلون حياتهم العادية، يشاهدون التلفاز ويغنون ويترنمون علي الرغم من كونهم قد فقدوا أخاً أو أباً أو حبيباً في حرب ما. والأغرب من ذلك، إنهم يتأملون متمالكي النفس أخواناً وأحبة لهم آخرين يذهبون في حرب أخري. لكنهم لا يروا المأساة الكامنة في ذلك. بين حين وأخر، قد يقرأ أحدهم كتاباً، أو يشرع في التفكير، أو يهزه شيء ما فيري حينئذ فقط المأساة المحيطة به من كل اتجاه. أينما ينظر يجد معالم هذه المأساة، ويجد الأمر مأساوياً أن لا يري الناس هذه المعالم كما يراها هو. فيصبح كفونت وإدنا، أو ينضم إلي حزب ما، أو يقضي حياته سائراً خلف اللافتات حتى تصير حياته في حد ذاتها مأساة صغيرة. كم أكره المآسي.

"لا شيء." كررت لفونت. "فلنلعب مباراة بلياردو، يا فونت." أحياناً نتمتع أنا وفونت بلعب مباراة هادئة دون

مراهنة؛ نلعب كصديقين قد يمازحان بعضهما بشأن طريقة اللعب.

"هل لديك طعام في المطبخ، يا فونت؟"

"نعم، اصنع بعض *الباس* حالما أحضّر شيئاً ما."

ذهب إلي المطبخ ورجع محملاً بصينية عليها العديد من الأطباق: بندق، وفول سوداني، وبصل مخلل، وجبن أبيض، وكرفس. حسنت *الباس* من مزاجنا.

"في صحتك، يا فونت."

"في صحتك، يا رام."

أضاء فونت النور فوق طاولة البلياردو، فطوينا أكمامنا، واخترنا عصي للعب غطينا أطرافها بالطباشير، وغطينا أيدينا بالمسحوق. كان الظلام والبرودة يعم بقية الصالة حيث أغلق فونت النوافذ مما أضفي علي الطاولة الخضراء والكرات الملونة جواً مريحاً للأعصاب.

ضرب فونت مثلث الكرات، فتفرقت الكرات الحمراء.

"أنت لاعب ماهر. ياردة واحدة فقط إلي اليسار كانت ستمكنك من إسقاط بعض الكرات."

حاولت أن أسقط كرة حمراء سهلة نسبياً، لكني لم أفلح. قال فونت إنه سيصنع طاولة بليارد ذات زوايا أوسع كي أخذ راحتي في التصويب. كنا نحمي في اللعب، حين سمعنا ضجة خارج النادي وقرعاً شديداً علي الباب.

"بوليس. افتح."

"كيريا لايسون." لا أعرف ما يعني ذلك القول تحديداً، كذلك فونت. لكننا كثيراً ما سمعنا كبار القساوسة يتغنون بذلك في الكنائس المصرية. كانوا يتغنون بما يشبه ذلك القول، فيرجّع قولهم أربعة صبية أرثوذكس قبيحة. توصلت أنا وفونت إلي تصور مفاده أن هذا الغناء بين مجموع القساوسة والصبية ما هو إلا مباراة تنس تجري أمام أعيننا وأن هذا القول ما هو إلا كرات التنس التي يتقاذفونها. أصاب فونت ذات مرة مغص من كتمه الضحك علي مشهد مماثل. كان القس يترنم مرة "بكيريا لايسون" بينما يمكنك تصور الصبية الأربعة يتسابقون لردها إليه، فتفلت منهم وتتخبط في أركان الكنيسة. كان هذا القس بالذات ماهراً جداً في الاحتفاظ "بالكيريا لايسون" وبلبلة الصبية.

ذات مرة حضر ليتحدث إلينا بعد القداس، فقال له فونت بالإنجليزية: "مباراة جيدة، يا سيدي." فكدت أموت من شدة الضحك.

لا أعرف لم قلت "كيريا لايسون" حين سمعت "بوليس" علي الباب. ربما لأن مشاعري الدينية لم تتعد الضحك من "كيريا لايسون"، ولأن المرء يتطلع إلي الله حين يكون خائفاً.

أمسكت برأس فونت، وغطيت فمه بيدي.

"اسمع، أنت لا تعرف مكاني." قلت هامساً قبل أن أفلته. "امنحني المزيد من الوقت قبل أن تفتح الباب حتى أقفز من النافذة."

"افتح، يا فونت. افتح أيها الوغد وانظر ماذا أحضرنا."

ميزت صوتي جميل وفوزي، فجلست أمسح العرق المتصبب من جبهتي. ثم ذهبت خلف البار وصببت لنفسي كأساً كبيرة من الكونياك، بينما ذهب فونت ليفتح الباب.

"أحضرنا لك هدية، يا فونت." صاحا ثملين. كان برفقتهم ثلاث مومسات يونانيات إحداهن فتاة تدعي إيلينا وتعمل في بار فندق باريس. أمسكا بفونت ودارا به راقصين. كانت الفتيات ثملات كذلك. تمددت إحداهن فوق طاولة بلياردو ورفعت تنورتها لأعلي، بينما أخذت أخري عصا بلياردو متظاهرة بأنها رجل فارغ الصبر. رآني جميل، فجري نحوي: "راموس، راموس." أخذ زجاجة خمر من خلف البار وذهب بها إلي الفتيات.

جلست خلف البار، وصببت لنفسي كأساً أخرى من الكونياك. كانت هذه المرة الأولي في حياتي التي أختبر فيها مثل ذلك الخوف، لا بل الرعب. كانت هذه التجربة بمثابة لطمة قوية علي وجهي. كأنني كنت ثملاً طيلة حياتي، ثم أفقت فجأة.

"رام."

"ماذا؟"

"ما بك؟"

"لا شيء."

"إن يدك ترتجف."

"لقد قلبت *الباس* معدتي. أريد أن أتقيأ."

جلس فونت يحدق بي وحاجباه مرفوعان حتى جبهته.

"لم أردت أن تهرب حين سمعت كلمة "بوليس"؟"

"أهرب؟ كنت فقط أمزح متظاهراً بأنهم حقاً من الشرطة وأنهم جاءوا يسعون خلفي."

ظل يحدق بي. أحياناً تثور مشاعرك فتجد نفسك فجأة غاضباً أو عاطفياً أو حزيناً. أردت في هذه اللحظة أن أربت ظهر فونت.

"لم لا تأخذ إحدى الفتيات إلي غرفتك، يا فونت؟"

"رام، هل أنت متورط مع منظمة ما، أو في شيء خطر؟"

"لا."

"رام، هل أنت عضو في الحزب الشيوعي؟"

ضحكت.

"رام؟"

"فونت، خذ إيلينا واذهب إلي المنزل." أخرجت رزمة النقود وأعطيته بعضها. "خذ إيلينا واذهب. خذ زجاجة خمر معك وتمتع بوقتك. أعرف أنك لم تحصل علي امرأة منذ أشهر."

لقد أراد أن يذهب، لكنه كان خجلاً. في إنجلترا، كان فونت يشاطر المرأة أفكاره وجسده. أما هنا فذلك مستحيل.

صببت له كأساً من الكونياك.

لابد أن هكذا أوقات تذهب بعقل فونت، حين يتذكر بريندا دنجايت. كان الزواج يلوح في الأفق قبل أن تطيح حرب السويس بكل هذا.

بدأت أهدأ وأستعيد نفسي. كان جميل في المطبخ بصحبة إحدى الفتيات، وفوزي نائماً علي أحد المقاعد، بينما جلست إيلينا والفتاة الأخرى تأكلان وتشربان من زجاجة الكونياك.

كنت أعرف إيلينا هذه عندما كانت طفلة، فهي ابنة إحدى الخياطات التي اعتادت أمي وخالاتي الذهاب لهن. اعتادت أمي أن تصحبني معها حين كنت صغيراً لمنازل

هؤلاء النسوة اللاتي، علي اختلاف أسمائهن وجنسياتهن، ماريا أو تالما أو جانو أو جورجيت، يونانيات أو أرمينيات أو مالطيات أو حتى فرنسيات، كان لديهن دائماً حوالي الأربعة أطفال، كائنات صغيرة شاحبة تلعب علي الأرض. كانت الخياطات تقمن بعمل جانبي كصناعة ''الحلاوة''. كما أنهن يعرفن طرقاً تتبعها المرأة كي تنجب صبياً لا فتاة، أو العكس، أو كي تتجنب الإنجاب علي الإطلاق. وكان كل شيء متشابهاً في بيوت هؤلاء الخياطات: ماكينة الحياكة البالية والدبابيس وقطع القماش والخيوط في كل مكان، بالإضافة إلي مغناطيس كبير علي شكل حدوة فرس. وبينما كانت أمي تجرب الأثواب، أو تصرخ وتتلوى ألماً بفعل ''الحلاوة''، كنت أنا أتلهي بجذب الأشياء بالمغناطيس.

"أين أبوك؟" سألت إيلينا ذات مرة بينما كنت أحاول جذب المقص بالمغناطيس.

"أي واحد فيهم؟"

"قصدك أيه أي واحد؟ أبوك."

"أنا عندي كتير."

"يا سلام؟" أجبتها مندهشاً، لكنني تمكنت أخيراً من جذب المقص.

مرة أخرى، ذهبت لأخذ ثوب أمي الذي كانت تحيكه أمها كميل، أتذكر اسمها، فسألتني: "عندك كم أب؟"

"ولا واحد. لكن عندي أربع أمهات."

"مش ممكن!"

"أنا عندي أربع أمهات. عايزة تطلعي أيه لما تكبري؟"

"خياطة. وأنت؟"

"مش عارف. ممكن فارس." قررت أنني أريد أن أصبح فارساً، فركبت ذراع الأريكة وأخذت أسوطه.

"تعال، هأوريك حاجة."

تبعتها خلف الستارة، فخلعت سروالها ورفعت تنورتها. نظرت إليها ولمستها بالمغناطيس، ثم ذهبت إلي بيتي.

نظرت إلي إيلينا تعب الكونياك من الزجاجة. هي لم ترني حتى الآن. وحين تفعل، ستنكس رأسها خجلاً، وتصافحني قائلة: "مسيو رام."

كان فونت يختلس النظر إلي إيلينا عبر المرآة. هناك شيء في الظهيرة المصرية الدافئة يعد بمثابة عذاب بالنسبة إلي الشبان. سبق واختبرت ذلك التوق أنا أيضاً. بعد المدرسة، وبعد تناول طعام الغذاء حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، بينما أمي مستلقية في غرفتها والشقة معتمة بعض الشيء، تطن هذه الحرارة في أذاننا، فنستلقي أنا وفونت، كل في سريره، نتلظى. نتقلب فوق الملاءات البيضاء الدافئة نحاول أن نجد بقعة رطبة من السرير نمدد فوقها أجسادنا المتململة المحمومة. نكون قد أرضينا بطوننا، ونشتهي بشدة أن نرضي حواسنا الأخرى بمشاركة امرأة هذا الدفء. أما إذا كنا محظوظين، فيغلبنا النعاس.

"كم من المال لديك، يا فونت؟"

"خمسة عشر قرشاً." كنا نجمع ما معنا، وغالباً ما نقترض بعض المال من كرولوس، الذي يعلم بالضبط سبب حاجتنا إلي المال، مقابل فائدة خيالية. ثم نتسلل من أمام غرفة نوم والدتي التي تتلظي هي الأخرى، المسكينة أرملة في الثلاثين من عمرها. أحياناً كانت حركتنا توقظها

وهو فعل فظيع ترتكبه في حق أحدهم في الظهيرة المصرية. "أنت عديم الإحساس." "لم؟ ماذا فعلت؟" "أنت أناني." "لم؟" "لا أستطيع أن أعود إلي النوم." "لم أكن أعلم أنك نائمة." "ماذا تريد علي أية حال؟" "لا شيء." لكنني أكون قد استللت مفاتيح السيارة، فأنا لم أكن قد بلغت السن المناسبة للقيادة، ثم نخرج أنا وفونت. "سأقود." "لا، بل أنا سأقود." "لا، بل أنا من سيقود." "حسناً، قد أنت." بعد أن نقرر بشأن ذلك ونقلع، يتسلل إلينا ذلك التوتر والانقباض في المعدة الذي يشبه ما نختبره عند الدخول إلي قاعة الامتحانات. ثم نبدأ بالبحث الذي قد يستغرق ساعات. "هذه هي." "لا، هذه لن ترضي." "لا، هذه واحدة غيرها." "حسناً." لكن قبل أن نكف عن الجدال ونتجه نحوها، تأتي سيارة أخرى وتأخذها. فنشرع في البحث عن أخرى في الشوارع الضيقة والأزقة حيث يفترض وجودهن. لكن الوقت يكون مبكراً، بالرغم من أن في هذا الوقت بالذات تعظم حاجتنا إلي ذلك. أما إذا وجدنا إحداهن، فتطلب عشرة قروش، فنوافق، فتسأل أين، فنقول في السيارة. نقود السيارة

بجنون إلي الصحراء حيث الجو حار دبق. يترك أحدنا السيارة لمدة عشر دقائق، ثم يعود ويغادر الأخر_فالأمر لا يطول أكثر. ثم نعود إلي المنزل خائبي الأمل محبطين. فالأمر ليس رومانسياً كما في أحلامنا. حين كبرنا أكثر، كنا نذهب برفقة نساء متزوجات من النادي، لكن فونت لم يعد يذهب إلي النادي.

كنت قد تمالكت نفسي تماماً بعد حالة الذعر التي انتابتني حين سمعت كلمة ‘‘بوليس’’. أردت أن أذهب إلي المنزل لأستحم وأبدل ثيابي، لكنني كنت أرجئ لقاء أمي.

رن الهاتف، فذهب فونت ليجيب.

أردت أن أنفرد بنفسي حيث أستطيع أن أفكر. فكرت في إدنا، وامتدت يدي إلي زجاجة الكونياك لكنني منعت نفسي.

"المخابرة من أمك. تقول إنه يجب عليك أن تذهب إلي المنزل حالاً، فخالتك هناك وخالك أميس سيصل من الصعيد في أية لحظة."

"بحق المسيح. لقد قذفت بمنير إلي حوض السباحة بالأمس، ويبدو أن الأمر لن ينتهي أبداً."

تركت رزمة النقود لفونت فوق الطاولة، واستقللت سيارة أجرة إلي المنزل.

الجزء الرابع

كانت خالتي تقول: "هذا الولد يجب أن يتزوج. يكفي ما فعله حتى الآن."

"لقد فعلت ما في وسعي." قالت أمي. "لقد ضحيت. . . ."

"بنفسي من أجله." أكملت لها الجملة.

"لا، لا، لا. شوية احترام، شوية احترام." قال خالي الباشا.

جلس ثلاثتهم يتناقشونني. فقذف منير في حوض السباحة موضوعاً لن ينتهي، علي ما يبدو. الباشا، وهو واحد من أقاربنا الذكور القليلين الذين مازالوا علي قيد الحياة، يعيش في الصعيد حيث يرعى الأرض. بما أن كل خالاتي فقدن أزواجهن، وكل الأبناء فقدوا آباءهم، فقد باع الباشا أصول الأملاك واشتري أرضاً حيث يسكن. والباشا هو الشخص الوحيد في العائلة غير ''المتفرنج''. كنت لأحبه كثيراً، لو لم يكن يكن هذا الاحترام المستفز لأعضاء العائلة ''المتعلمين''. في الواقع، كان لدينا أربعة باشوات في العائلة، لكنهم ماتوا جميعاً مبكراً. لذا، قررت خالاتي المبجلات شراء لقب لهذا الخال. كلف شراء هذا اللقب خمسة وثلاثين ألف جنيهاً: تم شراء قطعة أرض رخيصة وتحويلها إلي متنزه وأُعلن أن خالي يهب هذا المتنزه للصالح العام. دعي بعض الوزراء إلي احتفال أقيم بهذه

المناسبة حيث قامت خالاتي ومعارفهن من ذوي النفوذ علي ضيافتهم. في الواقع، كلف شراء قطعة الأرض العائلة ألف جنيه. أما الأربعة وثلاثين ألفاً الباقية ف. . . .

حسناً، فقط تكلف الأمر أربعة وثلاثون ألف جنيهاً أخرى. بعد ذلك بيومين منح فاروق خالي الأمي رتبة الباشاوية. بعد ذلك بثلاث سنوات قامت الثورة وألغيت الألقاب، لكن كل من منحوا الباشاوية، مازالوا يلقبون بالباشا.

حسناً، لقد استدعوا الباشا من الصعيد. ليس لأنني قذفت بمنير إلي بركة السباحة، ولكن لأن المذكور منير يرغب في شراء فيلا في مصر الجديدة وهم يتساءلون إذا كان بالإمكان عصر الفلاحين لاستخراج ثلاثين ألف جنيهاً دون الحاجة إلي بيع شيء من الأرض.

نظرت إلي خالي غامزاً، فهز رأسه بشدة. ثم ابتدأ الأمر من جديد.

"كانت مجرد حادثة."

"بكل تأكيد لا. أنت فعلتها عن عمد."

أخرجت أمي منديلها من حقيبتها، بينما تدافعت الدمعات علي وجنتيها. ثم نظرت فجأة حولها، وفتحت المنديل كأنما لتؤكد لنا ألا شيء بداخله، ثم تمخطت.

ضحكت بصوت عالٍ. فلأمي سمعة سيئة في ادعاء البكاء. فقد كانت تضع قطعة بصل في منديلها، لكنني كشفت أمرها ذات مرة حين فاحت الرائحة بشدة.

"لم تضحك؟" صاحت خالتي.

"صدقاً، صدقاً، كنت أحاول أن أقوم من كرسيّ، فاصطدمت به." قلت.

"كذاب. لو كان كلامك حقيقي لم هربت؟"

"شرحت ذلك ألف مرة." كان دفاعي أن منير معروف جداً في النادي بخلافي، فخشيت أن يرميني الخدم خارج النادي. سرها هذا المبرر، لكنها استمرت تلوح بتهديدها بأخذ أمي للعيش معها وبيع هذه الشقة.

"أعطيه فرصة ثانية."

"يا باشا، هو غير طبيعي."

أحيانا ما يكون عرق الفكاهة عندي نافراً، بحيث أن النسيم قد يجعلني انفجر ضحكاً. ضحكت ثانياً. كانت كلمة باشا هذه ما يضحكني: فخالي اسمه أميس، وكن يدعونه أميس حتى ألغيت الألقاب. ثم فجأة، ولأجل قيمة الخمسة وثلاثين ألف جنيهاً، بدأن ينادونه باشا. لم أتمالك نفسي من الضحك.

"انظر الآن. . . ." صاحت خالتي بالفرنسية.

"أنا آسف. أنا فقط متعب. يبدو أني مصاب بالحمى."

قفزت أمي من مقعدها من فورها مشرعة يدها باتجاه جبهتي.

"جبهته تحترق" صرخت أمي بالفرنسية. "أخشي أن يكون التيفود."

للتيفود عندنا مكانة خاصة. فهو يستخدم كمنزل المقامر الذي يحتفظ به ولا يقامر عليه حتى يخسر كل شيء آخر. قد يندهش المتخصصون في الطب لمعرفة أن بعض الأشخاص في عائلاتنا قد تكرر إصابتهم بالتيفود. نحن نحب هذا المرض. لكننا لا نحب أن نموت من جرائه كما

حدث للكثيرين منا قبل اكتشاف العلاج الذي كان بمثابة رحمة من الله. يمكننا الآن المرض لا الموت. يتبع المرض العديد من الطقوس التي تصاحب المريض حتى الشفاء. كما قلت، فإن الكثيرين منا قد مات من جراء هذا المرض. لذا، فإنه لم يفقد تأثيره في إدرار العطف والمال حتى مع وجود الدواء المعالج له.

"حقاً؟ لقد أصيب به مرتين سابقاً." قالت خالتي.

"وليكن. زيزا أصابت به مرتين، ثم ماتت به في المرة الثالثة." ردت أمي.

لم أرغب بصورة خاصة في التيفود الآن. في المرة السابقة التي أصبت به، كان فونت لازال يسكن معنا، فأقنعته بالمرض هو الأخر حيث أننا لم نكن مهيئين لخوض لامتحانات. فأقر قريبي، أستاذ الجامعة، أننا غير قادرين علي المذاكرة وألمح إلي الأسئلة بأن أعطانا أوراق الامتحانات قبل أسبوعين من الوقت الذي كان من المفترض أن نراها فيه. قالت أمي من بين دموعها: "قد لا يعيشان ليريا النتيجة."

لا، لم أكن أرغب بالتيفود الآن. كنت أفكر بذلك، حين سمعت كلمة *الجيش*.

الجيش. جيشنا الذي يستقل التاكسي. من المدهش، أن عائلتي تصالحت مع الجيش أثناء سفري. في الواقع، هي لم تتصالح معه فقط، لكنها انخرطت فيه أيضاً. أقارب وأخوة اختطفوا من الجامعات وزرعوا في الجيش. وعلي الرغم من أن القول الشائع: "ألا تعلم مع من تتكلم؟ أنا فلان باشا، أو ابن فلان باشا" لم يختف تماماً، فإن عبارة "ألا تعلم مع من تتكلم؟ أنا البكباشي فلان، أو ابن البكباشي فلان" أصبحت شائعة أيضاً الآن. كانوا يريدونني أن ألتحق بالجيش.

"أحسن الناس في الجيش الآن." قالت خالتي. "لم يعد الجيش كما كان في السابق. ثم هل أنت أفضل من صفوت ابن بولس باشا؟"

"لا." أجبتها.

"أو من آمون وأخيه يسي؟"

"أنا أسوأ منهما بكثير."

"أو من ابن فوفو؟"

"لا."

"أو. . . ."

قاطعتها أمي: "لقد قررنا أنك ستتزوج وتلتحق بالجيش."

"نعم." أجبتها.

"علي كل حال، لقد ض. . . ."

". . . حيت بحياتك من أجلي."

"بنت كويسة من عائلة محترمة." قال خالي الباشا.

"نعم. مع ميراث من الأرض." قلت.

"نعم."

"وبعض المال في البنك."

"ما يضرش."

"ويفضل أن يكون لها أقارب في الجيش." أضفت. يبدو أن ذلك قد ضايقه بشكل ما. فعلي ما يبدو أن الفلاح لم يهب كلمة باشا كما يهاب الآن كلمة عسكري.

"انتهيت؟" سألت خالتي.

"نعم." أجبتها.

"لأنك إذا لم تتوقف عن الكلام، فسوف أغلق لك فمك هذا للأبد."

خرست.

"أم كلثوم تغني الليلة." قلت لخالي.

"هذا فقط ما يفلح فيه. أي شيء يزعجنا به."

من تركيا إلي المغرب، تتمتع أم كلثوم بشعبية لا يحظى بها أي إنسان فهي تمتلك صوتاً يأسر القلب ببساطته وجماله. وهي تحظي بحب جميع الفئات، وتاريخها حتى الآن، وهي في الأربعينات من عمرها، لا يشوبه أية شائبة.

"بتغني. . . بتغني أيه؟" سأل خالي الذي بدأ يتململ.

صاحت بي خالتي.

"غني لي شوية شوية." أجبته. تستمر أغنيات أم كلثوم لساعات، لكن رواد المدارس الفرنسية والنادي يترفعون عن الإعجاب بغناء أم كلثوم. لكن لأن مزاجهم الموسيقي شرقي علي أية حال، فهم يستمعون إلي مدام أميليا رودريجز البرتغالية التي قلما يشبه صوتها صوت أم كلثوم.

"أحسن أغنياتها." قال خالي متنهداً.

"هذا لا يطاق. شيء يفوق الحد." قالت خالتي.

"ماذا فعلت؟" سألتها.

"تريدنا أن نجلس ساعات نسمع هذا العويل؟" صرخت بي.

"لم أعرف أنك لا تحبينها."

"شغل الراديو بصوت وطئ ولا تقل أية كلمة أخرى." قالت وهي تحاول أن تتمالك أعصابها.

أدرت الراديو، ثم عدت إلي مقعدي وعقدت ذراعي. تظاهرت بعدم ملاحظة خالي الذي بدا عليه البؤس وقد قرب كرسيه من الراديو وألصق أذنه إلي السماعة.

"ارفع صوت الراديو، باسم الرب." صرخت خالتي.

رفعت الصوت حتى أصبح مسموعاً ومن ثم عدت إلي كرسيّ.

كان كورلوس، الخادم، يقف في الممر يستمع. كان يبدو أشد بؤساً حين تزورنا خالتي.

"هات كرسياً من المطبخ وأجلس." قالت له خالتي. نظر إليها بامتنان لا يوصف وتمكن من جعل عينيه تدمعان، ثم عاد إلي المطبخ.

"شخص بائس." قالت خالتي.

"لا أعلم كيف أستطيع أن أدفع أجره."

زمجرت خالتي.

"أنا لم أشتر فستاناً جديداً منذ سنوات." واصلت أمي التي كانت قد اشترت ثوبين جديدين منذ يومين فقط.

"العربة في البداية، ثم الخدم. الرب يعلم ماذا يأتي بعد ذلك."

"نعم، هذا فظيع."

"كل هذا بسببك." قالت مستخرجة منديلها مرة أخرى.

"أنت ولد كويس، يا رام. ماتخليش أمك تبكي." قال خالي.

"أنا أسف. تريد سيجارة، يا خالي أميس."

"نعم. أجرب واحدة من معك."

أخذت علبة سجائري وذهبت إليه. أشرت إلي سيجارة معينة وهمست له أن عليه أن يدخنها في الحمام. أومأ بلهفة ثم غادر الغرفة. رجع بعد دقيقتين تبدو عليه خيبة الأمل. ضحكت بصوت مسموع.

"أنت مجنون." قالت خالتي.

"أنا آسف. لن أنطق." كان خالي يظن إن السيجارة محشوة حشيشاً.

عاد كرولوس يقف في الممر علي مرئي من خالتي يظن أنني لا أراه.

"الشحاذ البائس. هات كرسياً من المطبخ يا كرولوس وأجلس حتى تنتهي الأغنية." هز رأسه وعاد إلي المطبخ، فتبعته.

"اتركه لحاله." نادت أمي في أثري.

أقفلت باب المطبخ خلفي، واستندت علي موقد الغاز انظر إلي كرولوس.

"فين الراديو اللي إديتهولك؟"

هز رأسه.

"هأقتلك والله. قلت هو فين؟"

"مش عارف أشغله."

"كنت بتشغله لمدة سنة."

"أنا خايف أكسره."

"حطه علي الترابيزة وشغله."

أحضره من خزانة بالمطبخ، ووضعه فوق الطاولة. أداره دون أن يوصله بالكهرباء هازاً رأسه بين الفينة و الأخرى. كان يمسكه بحرص كأنه يمسك بشمعدان مصنوع من الكريستال.

"مابينطقش." علقت.

حني رأسه علي السماعات محاولاً التقاط أي صوت.

"كسرته. هأخصم اثنين جنيه من مرتبك." استدرت متظاهراً بمغادرة المطبخ.

"يمكن نسيت أحط الفيشة."

"يمكن."

أوصل الراديو بالكهرباء.

"أيه التمثيليات اللي بتعملها كل مرة خالتي تكون هنا؟" سألته.

"تمثيليات أيه؟"

"مش عارف؟ هي عمرها أديتك تعريفة؟ يا أبو عين فارغة."

هو لا يسعي وراء النقود. لقد تمكن في الواقع من جعل عينيه تدمعان، وأخذت الدموع تنهمر بغزارة علي وجنتيه. لم يكن يحمل منديلاً، فأخذ يمسح وجهه وأنفه بطرف ثوبه.

تركته وعدت إلي غرفة الجلوس.

"أنا بأعمل اللي في وسعي، لكنهم ما بيدفعوش حاجة." كان خالي يقول حين عدت.

"لحد متي يمكننا التحمل؟" سألت خالتي.

"هم ما يبدفعوش لأن ما معهمش." قال خالي.

"ما معهمش؟" صاحت خالتي. "الأفضل أن نترك الأرض بدون زراعة من تركهم يسرقونا بهذا الشكل."

يترك ملاك الأراضي المصريون عادة الأرض لمستأجرين يزرعونها حتى لا يكلفوا أنفسهم عناء زراعتها بأنفسهم.

"مش ممكن نعمل كده. سمعتنا تسوء في الناحية." قال خالي.

"سمعتنا تسوء؟" سخرت خالتي.

"الدنيا غلا."

"المشكلة إنك طيب معهم زيادة عن اللازم. عصيتهم علينا."

"الزمن أتغير."

"لازم تشوف حل. منير هيتجوز قريب."

"يبقي نبيع."

"نبيع، نبيع، نبيع. إذا كان معهم مال يشتروا، يبقي معهم مال يأجروا." صاحت خالتي.

"مش هما اللي بيشتروا، يا أختي. أقول لك: بيعي بيت من اللي في مصر."

"أنت مجنون؟ أهو ده اللي ناقص، نجوع هنا وفلوسنا عند الفلاحين."

شخص طيب وحنون خالي أميس. وهو، كأي حيوان أخر، يتخم نفسه بتناول ما في متناول يده دون أن يفكر في أي شيء محدد. حتى الفلاحون يحبونه لأنه يجلس معهم ويتبادل النكات. وكثيراً ما يبكي لمصائبهم، تماماً مثلهم، دون أن يبحث عن سبب هذه المصائب. فقط يتنهد مردداً: "دنيا"، فيتنهدوا مرددين وراءه: "دنيا".

"من يجوع؟" سألت.

"ماذا؟" صرخت خالتي. "فيفي،" استدارات تخاطب والدتي، "أنا لا أطيق رؤية ابنك. سأصاب بانهيار عصبي."

"لا أعرف ماذا أفعل معه." قالت أمي باكية.

"لكني أعرف. ستأتي للعيش معي وتبيعي هذه الشقة. وسنري ماذا سيفعل."

شرعت أمي في البكاء الآن بصدق.

"أعتذر لخالتك، يا رام. أعتذر." قال خالي.

"أنا آسف."

"قبل يد خالتك." استطرد خالي.

"لا أريد." صاحت خالتي بالفرنسية.

تظاهرت بأنني أتجه نحوها لأقبل يدها، حين دق جرس الباب. كانت ماري التي اتجهت مباشرة ناحية خالي محيية.

قالت بالعربية: "أهلاً، يا باشا. أسأل عنك باستمرار. تبدو بخير." ثم توجهت إلي خالتي قائلة بالفرنسية: "يبدو مريضاً، المسكين."

عادة يحرج خالي حين يغدق عليه المجتمع بعضاً من سحره، فيهمس بالعربية عبارات مهذبة، ويبتسم بتوتر، ولا يعرف ماذا يفعل بيديه.

"فيفي." استدارت ماري إلي أمي، فلاحظت أنها تبكي فغيرت نبرة صوتها. "مسكينة فيفي. يا عزيزتي، دائماً هناك مشاكل." ربتت علي كتف أمي، وقبلت وجنتي خالتي، ثم خلعت قفازيها وجلست.

"مساء الخير." بادرتها.

"لم أقل لك بونجور؟"

"لا."

"يا له من مساء. أنا لا أفكر بوضوح."

"احكي لنا ما حدث." قلت لها مشجعاً إياها علي الكلام. لست أدري سبباً لذلك، لكني أشعر أن ماري تخشاني. إن ماري واحدة من هؤلاء الكاثوليكيين المخلصين الذين ينادون الجميع بابن العم أو ابنة العم الصغيرة أو بالعم والعمة، وأحياناً ما تشب، مرتدية أحذية مفلطحة ذات طابع رجالي، لتقبيل هؤلاء الأعمام والعمات. وقد بلغت ماري الأربعين دون أن تتزوج حتى أخذتها خالتي تحت جناحها فجأة وأمرتها أن تتوقف عن مناداتها بالعمة وأن توقف لعب الأطفال هذا.

نظرت ماري إلي خالتي، فأشارت لها الأخرى بأن "لا تهتمي به".

"لعلك تكوني بخير، يا ست ماري." قال خالي.

قالت ماري بالفرنسية: "كم هو لطيف." ثم خاطبته بالعربية: "شكراً، يا باشا. احنا بنعيش يوم بيوم، مانعرفش أيه يجي بكرة."

غمغم بكلمات تعزية مناسبة.

"أتساءل كيف يستطيع العيش في القرية كل هذا الوقت." قالت ماري لخالتي.

"أشكر الرب لأنه بقي فلاح. هل تستطيعين أن تتصوريني أتعامل مع هؤلاء الناس هناك؟"

"لازم تزور القاهرة أكثر." قالت ماري لخالي رافعة صوتها كعادة من يتكلم مع من يظن أنهم لا يفهمون اللغة.

شكرها بحرارة.

تركتهم وذهبت إلي فراشي. تمددت علي الفراش مشبكاً يدي تحت رأسي. لقد وصلت مرة أخرى لطريق مسدودة، ولم أدر ماذا أفعل بنفسي. فرؤية إدنا مجدداً بعد كل هذا الوقت، والندية علي وجهها. تنهدت.

حبي لإدنا كان دائماً مختلطاً بالسياسة. دائماً، ومنذ اللحظة التي التقيتها فيها في فيلا خالتي، والسياسة تلعب دوراً ما في علاقتنا. مثل الأدب. ضحكت.

بعد حوالي ساعتين، حالما غادرت خالتي، حضر الباشا إلي غرفتي فتظاهرت بالنوم.

"قم، يا شقي. أنا عارف إنك صاحي."

غططت.

"شوف معاي أيه."

لم أتحرك. سمعته يحرك أوراقاً في جيبه.

"أحم، هل تريد أن تري. . . ."

قفزت واختطفت المظروف من يده.

"لا، لا. رام، رام. خليك عادل."

"وأنت يا حلوف، خليك أقضي ليلة هادية مع أخواتك."

"لا، لا، لا، يا رام. الأول أديني الظرف." حاول أن يخطف مني المظروف، فأخفق وجلس يلهث. جلست علي

الفراش، وفتحت المظروف. عددت محتوياته فوجدتها خمس عشرة ورقة بنكنوت من فئة المائة جنيه.

"أنا ما بكلمكش." أخبرته.

"أنا عملت أيه؟"

"تنحاز للأعداء."

"لا، لا، لا. ده بس علشان الشكليات. أنت فاكر إني بأفهم كلمة من الإفرنجي اللي بيقولوه؟ بس أديني الفلوس الأول."

"علي أي حال، أنا مش هأخرجك الليلة."

"كده برده تعامل خالك أميس؟ خالك أميس المسكين اللي بقاله سنة ما نزلش مصر. خالك أميس اللي دفع الربعميت جنيه اللي خسرتها في القمار؟"

"أيه؟"

"أقسم بالعدرا، شوف."

أخرج إيصالاً من حافظة نقوده وأعطاني إياه منتزعاً المال من يدي.

منذ ستة أشهر خسرت أربعمائة جنيه في لعب البكاراه، ووقعت علي إيصال أمانة.

"أنت ملك. أنا هخليك تقضي وقت رائع الليلة. ما تقلقش، يا خالي الفلاح الجميل، يا رحيق الآلهة. لو بس تعامل الفلاحين أحسن شوية. . . ."

"لا، لا، لا. رام، ما تبتديش في الكلام الفارغ إياه."

"طيب."

"قوم دلوقت علي التليفون." قال شاداً إياي من الفراش.

"الأول، قول لي عاوز أيه بالزبط"

"الأول نلعب البوكر لحد الليل ما يدخل، وبعدين نروح المكان اللي فيه الرقاصة أم شعر أحمر. وبعدين. . . ."

ذهبت إلي التليفون.

"جميل، خالي أميس هنا."

"يا للعجب." قالت أمي بينما نحن نغادر المنزل.

كنت في حالة رهيبة حين استيقظت في غرفة الجلوس، فخالي كان يشغل غرفتي، في الصباح التالي. كنا قد دخنا

الحشيش في الليلة السابقة، وكانت ذكري مجوننا الفج في نادي البلياردو حيث صحبنا إليه الراقصة ذات الشعر الأحمر وثلاثة من فرقتها وعازف الناي مازالت تشعرني بالغثيان. لقد أنفق خالي في الليلة السابقة ستمائة جنيه. كان عمر ويحي هناك كذلك، بالإضافة إلي إيلينا والمومسين الأخريين. أخذت أئن رغماً عني. كان فونت قد انخرط فجأة في البكاء وسط هذا الجنون، فصاحبته إيلينا في البكاء. انهار خالي حوالي الساعة الثالثة صباحاً، فحملناه نحن السبعة إلي الفراش بعد أن كاد جميل يصطدم بأحد أعمدة الإضاءة أثناء إيصالنا بسيارته إلي المنزل.

فتحت عينيّ، فوجدت أمي ترتق جواربي. كانت ترتدي نظارات حين تقوم بهكذا عمل. وحين ترتدي النظارات، يتبدل شكلها تماماً. فكأن مظهرها الذكي والمثابر، قد يجعلها أكثر هدوءاً وتفكيراً.

"متعب؟" سألتني بالفرنسية.

"صداع. كانت ليلة فظيعة، وأخوك شديد الفجاجة."

"ماذا تتوقع ممن يبقي أعزب حتى هذه السن؟ ثم هو يحضر إلي القاهرة مرة واحدة في السنة. بالإضافة إلي كونه لم يتلق التعليم الذي تلقيناه."

"لا." تنهدت.

"تناول فنجاناً من القهوة. يوجد بعض الكرواسوه الساخن أيضاً." صبت لي بعض القهوة، وأحضرت لي بعض الكرواسوه. نادراً ما نتشارك هذه اللحظات الحميمة التي تجمع ابناً وأمه، وعادة ما تكون مثل هذه اللحظات في الصباح الباكر حين أستيقظ من النوم.

"لا تدخن الآن، كل شيئاً أولاً."

"وهو كذلك."

استمرت في رتق الجوارب.

"دكتور حمزة اتصل مرتين اليوم."

"نعم."

"هذا الرجل أرستقراطي بحق. كما أن ابنة أخته، ديدي نكلا فتاة رائعة. سيكون منير سعيداً معها، كما أنها ستكون محظوظة بالزواج منه."

"وهل سيتزوجان؟" أدهشني ذلك، فمنير ليس من طراز ديدي.

"نعم، فخالتك ترتب الأمور. سيشكلان ثنائياً رائعاً."

"نعم."

"هي عاشت في إنجلترا، أليس كذلك؟"

"لفترة."

"هل رأيتها هناك؟"

"لقد عاشت معنا."

"مستحيل. أنت لم تخبرني من قبل."

"لا."

"هل عاشت معك وفونت؟"

"وإدنا."

"لابد أن ذلك كان رائعاً، يا رام. هل تظن أنني لا أعرف كم هو قاس عليك كونك فقيراً؟" تنهدت. الرحلات الرائعة التي اعتادت القيام بها كل عام، رقص التشارلستون طوال الليل، ثم باريس، جوزفين بايكر، موريس شيفالييه، وحتى

ماكسيم، فقط أفخم الفنادق. وكل الناس الذين قابلتهم، والآن. . . .

"أتساءل لم أتصل؟"

"من؟"

"الدكتور حمزة."

"ربما بخصوص جميل، فليفي يعطيه دروساً في اللغة العربية."

"بالمناسبة، خالتك تريد من ليفي أن يحسن لغة منير قليلاً، من الأفضل أن تعطيني عنوانه. كان فظيعاً ما فعلت، يا حبيبي. لم قذفته في الماء؟"

"من فضلك، يا مامي، لا تفتحي هذا الموضوع مجدداً. لقد كانت مجرد حادثة."

تنهدت. "لست أدري لم تتصرف بغرابة طيلة الوقت. ربما أنت بحاجة إلي زوجة. وسيكون علي أن اذهب لأعيش مع أختي حين تتزوج."

"إطلاقاً. أنت لن تتركيني. إذا تزوجت، ستبقين معي."

"هذا ما يقوله الجميع. لكن حين تمتلك زوجة جميلة، لن ترغب في وجود شمطاء مثلي تحوم حول المكان."

"أنت لست شمطاء.أنت مازلت جذابة جداً، وأنا أحبك كثيراً."

"ماذا تريد للغذاء، يا حبيبي؟"

أردت أن أدخن، لكن ذلك يعني إنني سأضطر إلي القيام والذهاب إلي الحمام، فهكذا يكون تأثير السيجارة الأولي في اليوم علي.

"من بظنك قد تتزوجني؟"

"هذا لن يكون صعباً. فالبرغم من كل شيء، نحن مازلنا ننتمي إلي واحدة من أحسن العائلات في مصر."

"سمعت أن فيكي دوس علي استعداد للقبول بي."

"إنها مفلسة."

"وكذلك أنا."

تنهدت، وأكملت عملها.

"مامي؟"

"نعم، يا حبيبي."

"مامي، ما رأيك بإدنا سلفا؟"

لم تحر جواباً.

"حسناً؟"

"ألا تعرف أن الناس يقولون أنها أخذتك إلي لندن كعشيقها المستأجر؟"

"هذا ليس صحيحاً."

"أعرف. لكن الناس تتكلم، ألا تعرف ذلك؟"

"هل توافقين علي زواجي بها؟"

تركت الجوارب من يدها وقالت إنها لا تهتم بمن أتزوج طالما سأكون سعيداً. فهي تعلم أنني كنت أواعد إدنا.

"لكن، الزواج بيهودية ليس من الحكمة في الوقت الراهن." لكن إذا كنت أحبها، وإذا كان ذلك سبب تصرفي بهذه الطريقة الشاذة، فيمكنني أن أتزوجها. هذا إذا رضت هي بي، فلطالما كانت عائلتها تحتكم علي المليارات. كما أنها أكبر مني. فجأة قالت لي إنه علي أن أتزوج بمن أحب، ثم شرعت في البكاء.

رن جرس الهاتف، فخلعت أمي نظاراتها لتعود إلي شكلها المعتاد.

"إنه الدكتور حمزة. كن في غاية الأدب معه." أعطتني السماعة، ووقفت تنتظر بلهفة.

"رام." صرخ بي.

"نعم؟"

"ماذا فعلت بمجموعة الصور الأخيرة؟"

"لقد صنعت نسخاً عنها، وأرسلتها إلي كل محرري الصحف."

"من أعطاك الإذن بفعل هذا؟"

"لا أحد."

"أنت طفل غير مسئول. أنت لا تعرض نفسك فقط للخطر، لكن كل من له علاقة بهذا الموضوع. أحرق كل ما لديك، ولا تحضر إلي مكتبي بعد الآن." أقفل الخط.

"ماذا كان يريد؟"

"لا شيء."

"لقد سمعت ما قال، يا رام. أنت تشتغل بالسياسة. كنت أحس بذلك." أخذت تنوح. "هذه هي النهاية. سوف تتسبب في قتلنا جميعاً. ربي، ربي. . . ."

هدأت من روعها، ثم ذهبت إلي الحمام. استلقيت علي الأرض، ومددت يدي إلي ما تحت المغطس. بحثت عن بلاطة مخلخلة استخرجت من تحتها مظروفاً بني اللون. وضعت المظروف في الحوض، وأشعلت به النار. ثم عدت فوضعت البلاطة في مكانها، ونظفت كل شيء قبل أن أشرع في ارتداء ملابسي

الجزء الخامس

طرقت باب إدنا. ذات مرة، في لندن، حين كنا متقاربين جداً، أخبرتني إدنا أننا إذا ما افترقنا إلي الأبد، فإنها سوف تقص شعرها لأنها لن تستطيع العيش مع فكرة أنني لن أصففه لها. أنا أيضاً، أخبرتها أنني لن أستطيع العيش مع فكرة أن أحداً غيري سوف يصففه لها.

"أدخل، يا رام." ميزت طرقتي. كانت تجلس إلي مكتبها تكتب خطاباً ممسكة سيجارة في يدها، وإلي جانب أوراقها يقبع فنجان من القهوة تركية الصنع. جذبت كرسياً، وجلست إلي جوارها.

"تكتبين خطاباً؟"

"نعم."

"هل لديك عائلة كبيرة، يا إدنا؟"

"أنا وحيدة أبوي، كما تعلم. لكن، العائلة كبيرة جداً."

"أين يعيشون؟"

"في كل أنحاء العالم، يا رام. كل آل سلفا في ألمانيا والبلطيق يعيشون الآن في جنوب إفريقيا أو روديسيا، أو بالقرب منهما. ثم لدي أقارب في إنجلترا وفرنسا وأمريكا الشمالية. في كل أنحاء العالم، يا رام."

"وفي إسرائيل أيضاً؟"

هزت رأسها إيجاباً. "بعض أقاربي الصغار في السن هناك، لكن للسياحة لا لشيء آخر."

"هل هم أغنياء جداً؟"

"محلات سلفا تعم العالم. أنت تعلم كيف هي الحال مع اليهود، فنحن نحب توظيف اليهود وبالذات الأقارب منهم. كما أننا نساعد بعضنا في أمور شتي."

"إدنا، لم تسكنين في هذه الأنحاء؟"

"منزلنا تحت الحراسة، يا رام. وكذلك حال كل محلاتنا هنا. أنا أحب هذه المنطقة، كما أنني لم أضع الخطط للمستقبل بعد."

"ما خططك للمستقبل، يا إدنا؟"

لم تجب.

"إدنا، ألا تريدين أن تتزوجي وتنجبي الأطفال الذين يتقافزون فوق ركبتيك، وينظرون إليك بعيون واسعة ويسألونك إذا كانوا يستطيعون الحصول علي المزيد من المثلجات؟"

ابتسمت.

"وتحصلي علي زوج يضع الأطفال في مكان مناسب علي الأرض ويضبط الكاميرا الآلية، ثم يأتي مسرعاً ليتخذ مكانه إلي جانبك ويضع ذراعه فوق كتفك من أجل صورة عائلية؟"

"أنت لطيف، يا رام."

"ثم، بعد أن تلتقط الصورة، وتكون الكاميرا من هذا النوع الحديث الذي يحمض الصور فورياً، فتكتشفين أنني

رسمت علي وجهي تعبيراً مريعاً، ومن ثم نغرق نحن الاثنين. . . ."

"أنت، يا رام؟"

"نعم. أنا." نظرت إلي مؤخرة عنقها. كانت ضفيرتيها ملفوفتين لأعلي وملتصقتين إلي جانبي رأسها مغطيتين أذنيها. كان عنقها رقيقاً وشاحباً كعنق طفلة في الثانية عشرة من عمرها يجري في منتصفه خط مجوف.

"هذا لن يحث أبداً، يا رام."

"لو أنك فقط تعطيني سبباً لذلك. يوجد مائة سبب، واحد فقط قد يفسر الأمر. أو قولي فقط أنك لا تحبينني."

"أنا أحبك."

وضعت يدي علي مؤخرة كرسيها، أتأملها في صمت. "حين ذهبت للمرة الأولي، حين كنا في لندن، ولم تكتبي لمدة عام، كنت أجوب الشوارع في الليل أتساءل عن ماهية السعادة والاكتفاء. قد يكون هذا رأي الشخصي، وقد يكون هذا لأنك أنت زرعت هذا الإحساس في، لكن السعادة بالنسبة لي هي حرية شخصين يحبان بعضهما البعض في

أن يعيشا معاً في ظروف تسمح لهذا الحب أن يعيش. حين أسمع عن الفقراء أو عن الجوع أو عن الحروب أو عن السجن أو عن معسكرات التعذيب، أفكر فقط في حبيبين تفرقهما هكذا ظروف. أعرف أن الناس لا يمكن أن يستمروا في حب بعضهم البعض إذا ما اضطروا إلي العيش في غرفة واحدة مع أطفالهم، أو إذا كانوا مرضي، أو قذرين أو جياعاً. بالرغم من مثاليتك ورقتك وكرمك، أنا أعتبرك قاسية. أنت قاسية حين تقولين إنك تحبينني، ومع ذلك تصرين علي العيش بعيدة عني. لو أنك لم تحبينني، لكان الأمر اختلف. . . ."

"أرجوك، يا رام. توقف."

"هل هناك أي شيء، أي شيء أستطيع أن أفعله؟"

هزت رأسها.

قد يجري المرء في سباق هائل، ثم حين ينتهي السباق، ينهار إعياءً. وكأنه قد قاس قدرته بهذه البوصة الأخيرة من السباق.

مددت يدي ولامست ضفيرتها المثنية. فجأة، قفزت واقفاً ويدي ممدودة كالملسوع. وقعت الضفيرة من يدي علي الأرض ورقدت هناك ممددة تحدق بي بيأس. كانت قد قصت شعرها.

لقد وصلت إلي البوصة الأخيرة من السباق.

جلست علي سريرها، وجلست هي إلي جواري ممسكة بيدي. السبب في أنها ما كانت لتناقش مسألة الزواج معي هو إنها متزوجة بالفعل. كان ذلك بمثابة سؤال المتسابق، المنهار، أن يتسابق من جديد.

"أنا متزوجة، يا رام."

"ممن؟" سألتها بعد حوالي نصف ساعة.

"تزوجت قبل أن أقابلك. كان يهودياً، وكان عضواً في الحزب الشيوعي المصري. كان طيباً جداً وشريفاً، يا رام، ومنكراً لذاته. كنا نعلم أن المباحث علي وشك القبض عليه. وقد ظننا أن تمتعي بالجنسية البريطانية سيحول دون سجنه. لكن البريطانيين رفضوا منحه الجنسية أو حق

اللجوء. كما رفض هو أن يذهب للسوفييت طالما أنهم يساندون عبد الناصر. وأصبح فجأة وحيداً. بعد أسبوعين من زواجنا، قبض عليه وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات. حاول مجموعة منهم الهرب، فقتل البعض منهم، بالسلاح الذي منحه الروس لعبد الناصر. أما هو، فقد تلقي ثلاث رصاصات عجزته تماماً؛ هو بالكاد يعد رجلاً الآن. ويعيش الآن في إسرائيل كونه يهودياً."

"لا يهم." أجبتها.

"أردت مرراً أن أخبرك."

"لا يهم." كررت.

"لكنني لم أفعل. حين تركتك وذهبت إلي إسرائيل، لم أكن أنوي أن أعود. . . لكنني أردت بشدة أن أراك مرة أخري. أنا أيضاً امرأة، يا رام. وأنا أيضاً ضعيفة كالأخريات. كما أنني أحب، كالأخريات. سامحني، يا رام."

"أسامحك ألف مرة."

أخذت أذرع أرض الغرفة، أفتح الخزائن وأقفلها، أسحب الأدراج ثم أدخلها مرة أخرى.

"هل أصبحت مدمناً علي الكحول، يا رام؟"

هززت رأسي. فتحت مكتبها، وأعطتني زجاجة ويسكي مقفلة.

"هل تتناولين كأساً؟"

"نعم."

فتحت الزجاجة، وصببت كأسين.

"إذاً أنت إسرائيلية."

"لا، يا رام. أنا مصرية."

وقفت، وقلت لها: "أتدرين، يا إدنا؟ أنت لست مصرية. ليس لكونك متزوجة من إسرائيلي، أو لكونك يهودية. لكنك فقط لست مصرية. سأخبرك السبب. هل تذكرين حين أخبرتني أنني لست مصرياً لأنني أنتمي للطبقة الأرستقراطية، وكل ذلك. لكنني أنا مصري. مثل جميل ويحي، أنا مصري حقاً. فأنا أمتلك روح الفكاهة التي تميزنا نحن المصريون. حتى بالرغم من أن ‘‘مصريتي’’ قد شوهت بسبب إقامتي في لندن وبسبب الكتب التي قرأتها، إلا أنني أمتلك مقومات الشخصية المصرية، علي عكسك.

أنت لا تتمتعين بروح الفكاهة، يا إدنا، التي لولاها لكنا متنا جميعاً منذ زمن طويل."

"ليس لدي الكثير لأضحك عليه."

"يا الله. لقد أحببتك. أحببتك أكثر من أي شيء في هذا العالم. وكانت السنوات الست الماضية لتكون أسعد سني حياتنا، لو أنه كانت لديك روح الفكاهة ولو أنك لم تكوني تتضايقي من تلك النزعة في. لو أنه فقط كان باستطاعتك أن تطلقي لنفسك العنان بين حين وآخر، ما كان ليشكل أي فارق كونك متزوجة. هل تريني أهتم؟ من الممكن أن نعيش معاً حتى الموت، وهذا كل ما أهتم له. بإمكاني الحصول علي وظيفة حال أريد، خالتي ستوفرها لي. أو ربما نذهب للعيش مع خالي في الصعيد. يمكننا حتى أن نفتح مدرسة، لو أردت."

شربت كأساً أخرى من الويسكي.

"لو كانت السياسة ما ينقصني، سأجد شيئاً ما." ثم أخبرتها عن نشاطي مع الدكتور حمزة.

"لماذا لم تخبرني عن ذلك من قبل؟"

"وهل أعطيتني فرصة؟ فمنذ عودتي وأنت ترفضين رؤيتي. هناك الكثير من الأمور التي لا تعرفينها."

"ماذا أيضاً، يا رام؟"

"لقد انضممت إلي الحزب الشيوعي في إنجلترا."

"أنت؟ لماذا؟"

"لماذا؟ كم أتمني لو أخبرك ببساطة أنني انضممت لنفس السبب الذي يجعل الآخرين ينضموا إليه_ الإيمان بمبادئه."

"وهل كان هذا دافعك؟"

أخذت أتجول في الغرفة مجدداً. أنهيت كأسي وصببت أخري. لا أحب الويسكي دون صودا وثلج، لكنني شربتها علي أية حال.

"لقد انضممت لأنني لم أعرف ماذا أفعل بكل المعرفة التي لدي."

"ماذا تقصد، يا رام."

"أقصد أن هذا الكم من المعرفة عن التاريخ والسياسة والأدب كان لابد لها أن تصب في أية قناة، وإلا كنت

سأجن. في البداية، كان سلوكي وانخراطي في السياسة وكفري بالكثير مما حولي لمجرد المفاخرة والمتعة. كنت أذهب برفقتك إلي حيث نستمع إلي خطب حول الوضع في جنوب إفريقيا؛ أو ننضم إلي المظاهرات في ميدان ترافالجار؛ أو نستمع إلي بيفن وراسل وسوبر وكولينز وغناء بول روبسون، ثم أعود برفقتك يداً بيد إلي المنزل، فأقول لنفسي كم هي رائعة هذه الحياة. قد أشعر بالغضب الصادق لما أسمع من ظلم وقسوة، لكن هذا الغضب في حد ذاته كان ممتعاً. كانت مشاركتك في شيء جيد هي المتعة. لقد أحببتك، وكان هذا الحب الشيء الرئيسي في حياتي. أما حين تركتني فجأة وظننت أنك لن تعودي، فقد استحال غضبي من الانتهاكات السياسية شخصياً؛
اختلطت مرارتي لفقدك بمرارتي لما أسمع من ظلم وقهر. كنت أشعر وكأنني فقدتك بسبب أناس كفيرفويرد. وحتى حين كنت أتحري الإنصاف وأقر أن تركك لي لا علاقة له بالظلم السائد في هذا العالم، أعود فأقول لو كان العدل

يسود العالم، لكنا أحببنا بعضنا أنا وأنت وعشنا معاً بصورة طبيعية."

"إدنا، لقد تركتني مع كم من المعرفة والإدراك للعالم لم أعرف ماذا أفعل بشأنه. حين كنا معاً، كان لهذه المعرفة، ولو بطريقة غامضة، علاقة بحبي لك؛ كانت تجعلني جديراً بك ولو قليلاً."

ملأت كاسي مرة أخرى.

قالت إدنا: "لقد تركتك المرة الأولي دون أن أكتب لأنني كنت خائفة. كنت تتغير بسرعة خلال تلك الفترة القصيرة. ظننت أن ذلك سببه تأثيري عليك. ربما لتثبت لي أنك رجل. أنا لم أرغب في ذلك. وكان هناك سبب أخر لابتعادي. لكن، ربما كان علي أن أكتب لك." أفرغت كأسها بجرعة واحدة، ثم ملأتها بنفسها.

نظرت إلي.

"رام، لقد وقعت في حبك مرتين. أحببتك في المرة الأولي لأنني كنت وحيدة، ولأن شخصيتك كانت رائعة. كنت بريئاً ومخلصاً. أنا أكبر منك، يا رام. ظننت أن حبك

لي سيموت تلقائياً بعد فترة. حين عدت إلي إنجلترا بعد سنة، كانت شخصيتك قد تغيرت بشدة. كنت قد أصبحت شخصاً معقداً وصعب المراس. ووقعت في حبك للمرة الثانية. لكن هذه المرة، كان حبي لك مختلفاً. أحببتك لأني وجدتك جذاباً. . . أنت تجذب النساء. أعطني ثقاباً، يا رام."

أشعلت لها سيجارتها.

"لماذا تقولين إنك تحبينني بينما تصرفاتك توحي طوال الوقت بالعكس؟"

أشاحت بيدها قائلة: "لأننا لا نستطيع أن نتزوج. وحتى لو كنا نستطيع، ما كنت لتسعد معي."

"لم تقولين ذلك؟"

"علمت ذلك يقيناً حين قدمت ديدي إلي إنجلترا."

"نحن ندور في حلقة مفرغة. بإمكاني القول أن ما حدث بيني وبين ديدي كان بسبب ظني أنك لم تحبينني، وأنت تقولين أننا ما كنا لنسعد معاً بسبب ما حدث مع ديدي."

"رام، حبيبي. . . ."

ابتسمت فجأة وقلت لها: "أتساءل أحياناً لماذا لم نستخدم كلمات التحبب هذه أثناء علاقتنا. ‘‘حبيبي’’ و‘‘حبيبتي’’. هذه هي المرة الأولي التي تناديني حبيبي."

"نعم، هذا صحيح؛ نحن لم نفعل قط. لا أدري لماذا."

رفعت كتفيها بطريقة محببة وابتسمت هي الأخرى. رفعت كتفي أنا الآخر.

"متي انضممت إلي الحزب الشيوعي؟"

"حين غادرتني للمرة الأخيرة، أنت وفونت. قبل حرب السويس."

"ما دفعك حقاً إلي الانضمام؟"

ملأت كأسي مرة أخرى، ووقفت انظر من النافذة. طالما كان للحرارة تأثير علي غريب: طنين خفيض أعيه بين الحين والأخر يكاد يكون مسموعاً في أذني كدقات الساعة. هززت رأسي دون وعي.

"لو أن أحداً قرأ كماً هائلاً من الأدب ولديه معرفة عميقة بالتاريخ الحديث، منذ بداية هذا القرن وحتى هذا اليوم، ويمتلك مخيلة وبعض الذكاء ووقت ليفكر؛ ولو أنه

كان شفوقاً ويهتم بما يحدث لباقي البشر علي اختلاف أجناسهم؛ ولو أنه كان مخلصاً وشريفاً، فأمامه خياران: إما أن ينضم للحزب الشيوعي ثم يتركه متحسراً علي عدم بلوغ الحزب الأهداف السامية التي أنشأ من أجلها، أو أن يجن. أو ربما، إذا كان شخصاً غير مخلص علي مستوي اللاوعي، فقد ينضم إلي إحدي الأحزاب اليسارية الأوربية ويمتع نفسه."

وضعت كأسي علي مكتبها، وشرعت في المشي في أرجاء الغرفة من جديد.

"ومن أنت بين هؤلاء، يا رام؟"

"أنا غير مخلص، لكن شريف."

"ألازلت شيوعياً؟"

"شيوعي. شيوعي. ربما يجدر بك أن تسأليني إذا ما كنت عضواً في الحزب الشيوعي. الإجابة لا."

"لماذا لم ترجع معنا أثناء حرب السويس؟ لماذا أصبحت ساخراً لهذه الدرجة؟ لماذا لم تخبرنا عن انضمامك للحزب الشيوعي؟"

"لأن فونت كان لينضم أيضاً. لكن فونت مخلص. كان ليبقي علي نشاطه هنا مما يعرضه للسجن والتعذيب. وعلي أية حال، فقد انضممت للحزب بعد سفركما."

"والآن؟"

"ماذا؟"

"ماذا تنوي أن تفعل؟"

عدت للمشي مرة أخري متناولاً المزيد من الويسكي الذي بدأ تأثيره يسري في.

"تسألينني لماذا أصبحت ساخراً وما إلي ذلك. لقد كنت أنت من يستمر في تذكيري بمصريتي، ومع ذلك لم تريديني قط أن أتصرف كما يتصرف المصريون. طالما. . . ."

"لم عدت، يا رام؟"

أشعلت سيجارة، ووقفت أنظر من النافذة مرة أخرى.

"لقد أخبرتني مراراً عن مدي ولعك بالمصريين. أنا أيضاً، يا إدنا، أحب المصريين. لكن حبي، بخلافك، لاواعي. مصر، بالنسبة لي، تعني أشياء عدة: لعب

البلياردو مع دوروماين وفارينيان الأرمينيين هو مصر بالنسبة لي؛ النكات والملاحظات الساخرة هي مصر بالنسبة لي؛ استقلال الترام هو مصر بالنسبة لي، وليس فقط الفلاح ومعاناته. هل تعرفين صديقي فوزي؟ إنه لا ينطق بأية كلمة غير مرحة أوفطنة، ومع ذلك لم يقلد الأوسمة لقاء ذلك. هو مجرد مصري عادي. ركبت الترام بصحبته الأسبوع الماضي، فداس أحدهم قدمه. اعتذر الرجل فسأله فوزي عم يعتذر، فأجابه الرجل "لأني دست علي رجلك"، فقال له فوزي: "يا سيدي، أنا بقي لي سبعة وعشرين سنة بدوس عليها". كيف أشرح لك إن مصر بالنسبة لي شيء لاواعٍ وليست أي شيء سياسي أو. . . أو. . . فلتنس الأمر."

"لم لا تعيش حياة عادية إذاً؟ لم لا تجد عملاً؟ لم تضايق عائلتك؟ ولم ساعدت الدكتور حمزة؟"

مرة أخرى عاد إلي هذا الشعور البغيض بالضغط وهذا التوق إلي تحطيم كل شيء واختبار النتائج.

وضعت وجهي بين راحتيّ.

"هذه المعرفة البغيضة التي لدي، وكل هذا الأدب الذي قرأته، وأنت، وهذا الوعي بذاتي الذي يؤرقني منذ وضعت قدمي في أوربا. أصبحت أري نفسي، ليس فقط بعين مصرية، ولكن بعين تسع نظرتها العالم كله."

"لا أفهم كل ما تقول، يا رام." تقدمت نحوي وفعلت شيئاً لم تفعله قط من قبل: ركعت أمامي ورفعت إليّ عينين تملؤهما الدموع.

"رباه، لم أدرك كم جعلتك وحيداً" قالت إدنا.

في مصر، لدينا غروب بطيء للشمس. فيشع ضوء بنفسجي، أكثر أصالة من اللون، بحزن من كل الموجودات. يبقي هذا العرض فقط لبضع دقائق، لكنه ينبئ عن قدوم نسيم المساء وانبعاث الحياة في الشوارع داحرة خمول النهار.

وقفت في الشارع لا أدري ماذا أفعل بنفسي. إذا لم تكن مدمناً علي الكحول، فستكون في حالة مزرية إذا ابتدأت الشراب في فترة الظهيرة. فتمر بك لحظات من الانشراح

تتبعها لحظات من الكآبة، وتظل تشرب حتى موعد نومك. أردت أن أعود إلي إدنا، لكنني كنت أعلم أنه علي ألا أفعل. كنت أرغب في أخذها إلي سميراميس فنرقص ونتناول العشاء مستمتعين بمنظر النيل من الطابق الأخير. عددت ما معي من نقود ببطء، فوجدتها تتجاوز المائة جنيه. مسح لي ولد حذائي أثناء وقوفي، فأعطيته جنيهاً. ثم عبرت الشارع إلي حيث بار ميراندي. طلبت كأساً من الويسكي، ثم ذهبت إلي التليفون وطلبت رقم منير.

"مساء الخير، يا أنّا. كيف حالك؟" حييتها بالإيطالية.

"بخير، يا سنيور رام. وأنت؟" أنّا امرأة لطيفة وحنون تعمل مدبرة منزل لخالتي ولجديّ من قبلها. سألتها إذا كانت السنيورة الأمريكية موجودة.

"السنيورة كارولين؟"

"أجل، يا أنّا." لكنها لم تكن بالمنزل. كانوا قد خرجوا جميعاً. ذهبت إلي سينما مترو، ووقفت قليلاً في المدخل المكيف أنظر إلي صور النجم الأمريكي يقتل العمال

الكوريين. مشيت إلي سينما أخرى، فوجدت فيلماً لنفس النجم السينمائي يضع علي أذنيه سماعة طبيب. ذهبت إلي المتحف المصري، فوجدته مقفلاً. أحب أحياناً أن أذهب إلي هناك وأن ألمس كل الأشياء المهيبة بالداخل. بما أنني لم أكن بعيداً عن سميراميس، فقد ذهبت إلي هناك وتناولت كأسا أخرى من الويسكي في البار الذي يشغل الطابق السفلي. أومأت إلي بيترو، عازف البيانو، وأرسلت إليه كأساً من الويسكي. فعزف موسيقي أغنية ‘‘أقبل يدك، يا سيدتي’’ من أجلي، فقد أخبرته مرة أنني أحب هذه الأغنية. صعدت إلي الطابق الأخير، وتناولت المزيد من الويسكي في البار هناك. حياني قائد الفرقة الموسيقية التي كانت حاضرة علي الرغم من أن الوقت كان مازال مبكراً.

خرجت من الفندق، ووقفت أراقب المراكب الشراعية. بعد برهة، شرعت في المشي إلي جانب النيل إلي جاردن سيتي. العديد من أصدقائي يسكنون هناك. مررت من أمام منزل نكلا باشا، فوجدت العديد من السيارات متوقفة هناك

من بينها سيارات عصام التركي وجميل، مما يعني أنهم يلعبون بالداخل. لذلك عبرت المدخل وقرعت الجرس.

فتحت ديدي الباب، وتظاهرت بأنها لم تفاجأ لزيارتي. كانت تتصرف وكأن أحداث لندن لم تقع إطلاقاً، أو كأننا كنا معاً بالأمس. هادئة ديدي وجميلة ولها عيون مسحوبة قليلاً عند الأطراف كالصينيين. كما أنها حائزة علي درجة الدكتوراه في الآداب من السوربون. كان فونت واقعاً في غرامها حين كنا في الرابعة عشرة. تعمل ديدي الآن في إحدي الصحف.

"أتشاركهم اللعب؟" سألت بالفرنسية.

"لا. ما عدت أقامر."

"إذاً فأنت تقوم بزيارة اجتماعية."

"نعم." يقوم ليفي بتدريس اللغة العربية لهامو، شقيق ديدي البليد، وهو مدله في حبها. لم يصرح لي ليفي بحبه لديدي، لكنني أري العلامات عليه.

"ذلك من دواعي سرورنا." انحنت مازحة.

"سأزور والدتك أولاً، ثم أمر عليك. إذا سمحت لي."

"جيد." لديدي جناح منفصل من المنزل مكون من حجرتين ومطبخ. وقد جرت العادة علي أن يجالس كل من يزور المنزل السيدة نكلا المكفوفة لدقائق. أخبرتها الخادمة التي تجلس عند قدميها من أنا حين اقتربت.

قبلت السيدة نكلا علي كلتا الوجنتين، وجلست علي مقعد مواجه لها.

"كيف حال والدتك، يا رام؟"

"بخير، شكراً لك."

"وكيف حال خالتك؟"

"أي واحدة؟"

"خالتك عايدة."

"خالتي عايدة بخير، شكراً لك."

"وكيف حال خالتك الأخرى؟"

"أي واحدة؟"

"خالتك نعومي.؟"

"وخالتي نعومي بخير، شكراً لك."

"وكيف حال خالتك سميحة؟"

"خالتي سميحة بخير هي الأخرى، شكراً لك."

"يسعدني سماع ذلك."

"خالي أميس في الصعيد بخير كذلك."

"لم أسألك عنه."

"لكنك كنت علي وشك السؤال."

ضحكت. هي تحب أن تضحك كثيراً. كما تحب أن تستمع إلي أخر الأخبار والشائعات. لذا، فقد استرخيت وبدأت أخبرها ما تحب.

"ماري اشترت سيارة جديدة ثمنها ستة آلاف جنيه لأن سيارتها القديمة كانت تكلفها الكثير من المال لشراء البترول. تي وسينا في نيويورك لشراء حاجيات العرس. ابن خالتي مادي خطب وسيتزوج الشهر القادم. لولو تقيم علاقة مع صناعي ألماني وزوجها لم يفعل شيئاً كالعادة."

"أنت كلب، يا رام."

"حسناً، هذه هي الحقيقة. حسن عبده، الابن الأكبر لآل عبده سيتزوج من فتاة نرويجية. لطفي صفوت، زوج جيدا، اعتقل لكونه شيوعياً. لن نراه مجدداً. كلارو هانو خسرت

مجوهراتها في إيطاليا علي المقامرة. فرح فرح سوف يطلق زوجته ليتزوج فاطمة الراقصة. كيكو رسوم أعتنق الإسلام لأسباب تتعلق بالعمل. عصام التركي وجميل ويحي يقامران مع زوجك في الغرفة المجاورة. هناك إشاعات عن زواج منير ابن خالتي من ابنتك ديدي. قذفت بابن خالتي منير هذا إلي حوض السباحة الأسبوع الماضي، وأنا علي وشك الذهاب لرؤية ابنتك."

"لا، لا، يا رام. ابق قليلاً. أريد أن أضحك." وكزت الخادمة بقدمها. "اذهبي ونادي جميل، أنا لم أضحك هكذا منذ زمن."

أشعلت سيجارة وانتظرت. ظهر جميل علي باب الغرفة، وجري نحوي.

"رام، رام. بعض الحظ. أنا لم أفز بورقة واحدة طوال اليوم."

"لا أستطيع. لقد استنفدت ما لدي اليوم."

"ولا ورقة واحدة طوال اليوم ، يا سيدة نكلا، ولا ورقة." ناح جميل.

"أعطيه بعضاً، يا رام."

"حسناً لدي القليل المتبقي، لكن في قدمي."

"أعطني إياه."

"لكنك تعلم أن ما في القدم يأخذ فقط عن طريق الفم."

"هذه حقيقة معروفة." قالت السيدة نكلا. "هذا الصباح حاول زوجي أخذ بعض الحظ الذي كنت أوفره لمباراة هومو الكبيرة غداً، فظننت أن الكلب يلعق قدمي."

"يمكنك أن تضحكي. عصام التركي يقسم أنه اشتري بعض الحظ من أحدهم، وهو يكسب كل ما معنا."

لذا خلعت حذائي وجواربي. مرر جميل فمه علي باطن قدمي، بينما أخذت الخادمة تصف ما يحدث لسيدتها. حين انتهي جميل، عاد مسرعاً لحجرة اللعب.

"هذه المقامرة مزعجة." قالت السيدة نكلا. "بعد أن أقفلوا نوادي البكاراه، أصبح زوجي يستولي علي كل زواري ليلاعبهم. ماذا حدث لفونت؟" سألت فجأة.

"لا شيء."

"هيا، يا رام. لقد عرفته لمدة طويلة. أية حماقة في أن يعمل كأي. . . ."

"لقد جن." قلت لها وقد أصابني الاكتئاب والضيق.

"لكن. . . ."

تركتها وعبرت صالتين جميلتي التأثيث حتى وصلت إلي جناح ديدي. وجدتها تجلس علي أريكة ورجلاها مثنيتان تحتها تشكل تنورتها ما يشبه الدائرة حولهما. إلي جوار الأريكة، قبع مصباح رقيق يدوي الصنع مشعاً ضوءه الخفيض علي ما بيديها: كتاب، جلد، وأدوات تجليد. جدران غرفتها مغطاة بأرفف للكتب التي تقرأها ثم تغلفها بالجلد بنفسها. "أنا لا أجلد كتاباً لا يعجبني." أخبرتني ذات مرة. أرفف الكتب المصنوعة من خشب الماهوجني والتي تغطي كافة جدران الحجرة، والمكتب الكبير في ركن من أركان الحجرة قد يجعل الغرفة ذات طابع ذكوري لولا تلك الدائرة الأنثوية في الركن الذي تحتله هي الآن. كان هناك أبريق شاي أزرق وفنجانان موضوعان علي طاولة بيضاء

مصنوعة من حديد أبيض مشغول مغطاة بمفرش وردي. وكان هذا الركن مؤثث بأريكة ومقعد ذي مسند لونهما بني فاتح وقماشهما الذي يخلو من النقوش مصنوع من نسيج لامع يشبه الساتان، وتحتل الأرض سجادة لونها بني غامق بدون نقوش كذلك.

"أجلس، يا رام."

"لحظة." درت في أرجاء الغرفة، بينما تابعت هي عملها. كان جو الغرفة يشع بسلام قلما يجده شخص مثلي؛ سكينة غمرتني فجأة بجمالها العميق. كنت قد اختبرت هذا الإحساس من قبل، لكنني لم أرد أن أتذكر ذلك الآن. آخر مرة رأيت فيها ديدي كانت في لندن. وقفت حيث أستطيع أن أراقبها دون أن تلاحظ. هي، مثل إدنا، ليس لديها لزمات معينة ولا تفتعل حركات لجذب الانتباه، لكن تعليمها الفرنسي يضفي عليها أنوثة وجاذبية تفتقر إليها إدنا. كانت تنتعل صندلاً خفيفاً له سير واحد مذهب يلتف حول الإصبع الأكبر. ذات مرة في لندن، بينما كنا نرقد علي العشب في هايد بارك، قبلت قدمها من خلف

ظهر إدنا. علي المكتب انتصبت مزهرية معدنية رشيقة تطل منها وردة ندية تماثلها في الرشاقة. إلي جانب المزهرية كان هناك شمعة كبيرة سوداء علي حامل معدني. أضأت الشمعة، وابتعدت لأري ما أحدثته من أثر.

كان تأثير الشراب الذي سبق وتناولته قد ابتدأ في الظهور: الصداع والرغبة في النعاس والهبوط في القلب، لحظات التعاسة والخيبة والاكتئاب. كنت ما أزال أري السكينة المحيطة بي، لكنني كنت قد فقدت القدرة علي الإحساس بها.

جلست.

عندما تبتسم ديدي نكلا، تبرز فجأة علي جانبي ثغرها غمازاتان عميقتان تستغرب وجودهما لأن وجهها الأملس الخالي من الخطوط لا ينبئ عن وجودهما. لمست قلادتها المصنوعة من النحاس الأصفر والمرجان علي هيئة نفرتيتي، ثم صعدت بلمساتها إلي عنقها. ابتسمت.

"لو لم يصدف أن فتحت أنا الباب، لكنت تلعب البكاراه الآن مع أبي وأصدقائك."

"نعم."

"حصلت علي بعض المال؟"

"لعبت البريدج مع ابن خالتي منير، ثم البلياردو مع دوروماين الأرميني."

"متي عدت؟"

"منذ حوالي العام." أشعلت سيجارة، ثم أبعدتها حالاً شاعراً بغصة ورغبة في التقيؤ.

استمرت في عملها علي تجليد الكتاب. وقفت مجدداً محاولا ًمغالبة الصداع. عندما كانت في لندن، اعتدت أن أجعلها تضحك. اعتدت أن أصف الناس الذين يعيشون هناك وأقلدهم. اعتدت أن أصف بادي وأقلد طريقته في الكلام. موضوع الحب هذا. ثم إن إدنا لا تمتلك روح الدعابة. اعتدت أن أمزج السياسة والدعابة والحب مع ديدي نكلا، لكن مع إدنا السياسة هي السياسة. كما ينبغي لها أن تكون، علي ما أعتقد.

تنهدت.

هذا الويسكي! وصل الصداع إلي ذروة قوته. ذهبت إلي الحمام، أخذت مسكناً للصداع، تغرغرت وفركت أسناني بفرشاة أسنانها، ومصصت أقراص النعناع.

"ماذا حدث بعد أن غادرتكم في لندن؟"

"تشاجرت مع إدنا وفونت. ثم رفضت أن أعود معهما أثناء حرب السويس." جلست، ثم عدت فوقفت، ثم أخذت أتجول في الغرفة. أطفأت الشمعة، ثم أشعلتها ثانية. ثم جلست إلي مكتبها أتلاعب بفتاحة المظاريف.

"كتبت لك خطاباً طويلاً ذات مرة." قلت.

"لازال بحوزتي."

"ليفي يحبك."

لم ترد.

ذهبت وجلست علي ذراع أريكتها.

"كما أن فونت كان يحبك حين كان في الرابعة عشر. وأنا أحبك." كان صدغي ينبض بالألم.

"وماذا عن إدنا؟"

"نعم، وإدنا أيضاً." ضربت المصباح بقدمي فانطفأ، ثم جذبت الكتاب من يدها ورميته علي الأرض. استلقيت علي الأريكة واضعاً رأسي في حضنها.

"ديدي."

"ماذا؟"

"ديدي، لقد ضرب ضابط وجه إدنا بسوط." أنزلت يدها وضمت رأسي برفق إلي حضنها.

بعد برهة، سألتني إذا كانت كأس من الويسكي أو قدح من الشاي قد تجعلني أشعر بتحسن.

"شاي."

استيقظت حوالي منتصف الليل. كانت الشمعة مازالت تحترق، وصوت قيثارة ينبعث من الراديو. كان حذائي قد انتزع، وجسمي مغطي ببطانية خفيفة. كان الصداع قد زال تماماً. رقدت ساكناً أستمع إلي الموسيقي.

"هل استيقظت؟"

"نعم."

"سأصنع بعض الشاي الطازج."

أَضأت المصباح، وجلست ملتحفاً بالبطانية ضاماً ركبتي إلي صدري.

"حدثني عن بادي." نادت من المطبخ. كان باستطاعتي أن أراها تعد الشطائر، تفتح الثلاجة وتغلقها، وتدندن مع الموسيقي. كانت سعيدة. كل فرد يجب أن يكون كديدي نكلا. أقصد أن العالم يجب أن ينتظم، وأن كل فرد يجب أن يمتلك شقة لطيفة كديدي نكلا ويتجول مترنماً. كالعصافير.

"لقد عشت هناك لفترة، أتدرين؟"

"ماذا قلت؟"

"لقد عشت في منزل فنسنت حين عادت إدنا وفونت إلي مصر. اعتدت أن أنام أنا وبادي في المطبخ. كان دائماً يقرأ لكلب الصيد الرمادي شيء ما. أخذت أقلد لهجة بادي الأيرلندية: ‘‘أقول لك الآن، هذا الكلب لا يمكن أن يهزم. بحق الله، هذا الكلب سيسبق الكلاب الأخرى نصف ميل علي الأقل. عشرون لواحد علي الأقل. لن أتفاجأ الآن

لو أن فرانك مالوني له يد في هذا.'' ثم يصرخ: ''شيرلي، أين أمك؟'' فتصرخ هي الأخرى: ''لا أعرف''."

"''أراهن أنها في الوايت سيتي الآن. ألم يكن في مقدورها أن تقول أنها خارجة؟ ستندم إذا فاز هذا الكلب الآن.''"

"''ما اسم هذا الكلب؟'' أسأل بادي."

"''ترافالجر الثالث. كلب أصيل. لقد رأيت جده. كنا في كروك حين أتي إليّ فرانك مالوني هذا وقال: ''بادي لو كان بإمكانك الحصول علي ثمن تذكرتي سفر، بإمكاننا السفر إلي الوايت سيتي بصحبة هذا الكلب وسنفوز بالتأكيد''. ثم أراني عشرين جنيهاً أدخرها للمراهنة علي الكلب. فركضت إلي البيت بقدر ما احتملت قدماي، ثم صعدت إلي الطابق العلوي حيث كان والدي بالخارج يحتسي الشراب، وجدت تحت الفراش رزمة من ورق الخمسة جنيهات ملفوفة في فوطة قديمة.'' يتوقف عن الكلام حين يتملكه الضحك. ''بعد قليل كنت مع فرانك مالوني، حين رأيت أبي قادماً. كان عجوزاً، لكنه كان

يركض بسرعة. كنت أنا وفرانك مالوني نركض بأقصى سرعة تجاه المحطة وأبي يركض خلفنا رافعاً عصاه. أقول لك لو أن هذا القطار تأخر ثانية واحدة، لكان أبي قبض علينا.’’"

"فأسأل بادي إذا كان الكلب قد فاز."

"‘‘سأخبرك الآن، أقسم أن هذا الكلب كان أفضل ما رأت الوايت سيتي.’’"

"كانت شيرلي تأتي وتقف بالباب: ‘‘كان أفضل كلب هناك. لكن كل الكلاب كانت مخدرة باستثناء ترافالجر الأول، وكانت النتيجة أن تخلف ميلاً عن بقية الكلاب فلم يجرؤ بادي علي رؤية والده إلا بعد سنتين.’’"

"‘الرجل العجوز كان طبعه بشعاً، أقول لك الآن. أتذكر أنني ذهبت ذات مرة إلي دبلن بصحبته هو ورجل يدعي جيمي أودنوفان. . . .’"

كانت ديدي تضحك.

"كم عشت معهم؟"

"حوالي العام. كان بادي هذا كسولاً جداً وكان باستطاعته أن يجلس لأسابيع دون أن يفعل أي شيء. أحياناً كان بعض أصدقائه يحضرون محملين بحقائب مليئة بالجينيس: ''وكيف حالك، يا بادي تاينان؟ أراهن علي راتبي أنه لديك رقعتين علي مؤخرة بنطالك. دعنا نلقي نظرة، يا بادي تاينان، فلسوف تزحف علي مؤخرتك قريباً.''"

"هل كنت سعيداً بالعيش هناك؟"

"أتعرفين، يا ديدي، كل هذه القراءة وسفر إدنا وفونت جعلني أشعر بالوحدة الشديدة."

"لم عدت؟"

"لقد عثرت عليّ الشرطة. كنت قد ضربت شرطياً في ميدان ترافلجار أثناء حرب السويس، وكان تصريح إقامتي قد انتهي ولم يجدد. بالإضافة إلي أنه كان من المستحيل أن أحصل علي عمل، ولم يكن معي أي مال. المضحك في الأمر أن كل رفاقي ''المثقفين'' وقراء ''النيوستايتس مان'' لفظوني الواحد بعد الآخر حين واجهتني المتاعب.

كلهم ما عدا فنسنت. حتى آل دنجايت. علي أية حال، فقد رميت خارج إنجلترا."

"ماذا فعلت حين ذلك؟"

"ذهبت إلي ألمانيا لأنها كانت المكان الوحيد الذي أستطيع أن أدخله بدون تأشيرة. عملت في مصانع هنا وهناك. لكن دعك من هذا الآن."

"لم عدت؟"

"علي الأرجح عدت من أجل فونت. كنت أتصور حاجبيه يرتفعان لأعلي دهشاً مما يجري في العالم، ثم. . . ."

"ثم ماذا؟"

"أنت تعلمين كم أحب فونت، يا ديدي. ثم تصورت أنه باستطاعتي فعل شيء مفيد، كالتعليم أو ما شابه. أو حتى المساعدة في القرى أو أي شيء. هل تعلمين، يا ديدي نكلا. أنا . . . ." كنت علي وشك أن أقول لها أنني لست سيئاً كما أبدو، لكني لم أفعل.

"حتى معك، يا ديدي. أعني إنني صارحتك أنني أحب إدنا. هل تذكرين كيف كنا نضحك سوياً؟ مع إدنا، لم أكن قط طبيعياً ولست أدري السبب. علي أية حال، حين عدت إلي مصر وجدت الحياة فيها تماماً كما تركتها. حتى المحروسة. أعني كيف أذهب للعمل في قرية مشتعلة، بينما هو يتنقل في يخت فاروق الذي تكلف صيانته وإدارته مليون جنيهاً. وكل هذه التأميمات تضحكني، علي الرغم من أني لا أخبر فونت بذلك. يذهب المال إلي الجيش العديم الفائدة. حتى السد العالي، حين يكتمل بناؤه، يكون تعدادنا قد زاد عشرة ملايين."

"ماذا تريده أن يفعل؟"

"تحديد النسل وما إلي ذلك؟"

"سيضعف هذا شعبيته."

"وإسرائيل أيضاً. تخيلي أن ثلث دخلنا ينفق علي جيش يجهز لمحاربة مليوني يهودي بائس ارتكبت ضدهم جرائم بشعة أثناء الحرب الماضية. فماذا إذا ضعفت شعبيته؟ هو قوي بما يكفي ليتخذ قرارات غير مرحب بها من قبل

الشعب. كما أننا نحن المصريين لا نهتم البتة بشأن إسرائيل. لا، يا ديدي نكلا. من الغباء أن نعيش في ظل دولة بوليسية دون التمتع بفوائد السيطرة."

"ماذا تعني؟"

"لا تكوني غبية. لو أنه مقدر علينا أن تحكمنا الديكتاتورية، فلتكن شيوعية. سأقول لك ما أعني. انظري إلي الهند: الناس هناك تجوع لتدفع ثمن الديمقراطية المنشودة. وفي الصين، الناس لا تجوع علي الإطلاق لأنه تحكمهم ديكتاتورية شيوعية. أما نحن، فلدينا أسوأ ما في النظامين معاً: الديكتاتورية والجوع، بالإضافة إلي عدم وجود مستقبل نتطلع إليه. ولست أقول ذلك لوجود الكثير ممن يتضورون جوعاً في دائرة معارفنا." قلت ذلك ضاحكاً.

"وما رأي فونت وإدنا في ذلك؟"

"لا أستطيع أن أتحدث إليهم هكذا. هم ممتلئون بالنظريات والأفكار والتعقيدات السياسية، مما يجعلني أضحك. اعتاد فونت أن يمشي من ألدرماستون إلي لندن،

بينما تسافر إدنا في الدرجة الثالثة دلالة علي المساواة. وكأنه سينجم الخير الكثير من وراء فعلهم."

صبت لي قدحاً أخر من الشاي.

"لطيفاً الجلوس هنا معك والتحدث إليك. المكان لطيف ومريح، وأنت جميلة."

ابتسمت.

"لقد كدت أن أكسر قلبي بسببك في لندن. لديك سحر مزعج."

"لم لم تفعلي؟"

"أفعل ماذا؟"

"تكسري قلبك."

"أنت ذكي بما يكفي لتعلم أنني ما كنت لأخذ شخصاً مثلك علي محمل الجد."

"نعم. أعرف." ضحكِت.

"كل هذا الهراء. وثلاثتكم!"

"نعم."

"الحرب الأسبانية، القنبلة، الانتخابات البريطانية، حزب العمل المستقل، الأب هدلستون، المسرح الصغير في الجانب الشرقي. . . ." قالت متذكرة مناقشاتنا ونشاطاتنا في لندن، فقد عاشت معنا ثمانية أشهر.

"نعم."

"لقد راقتني علاقتنا. لقد كنت جذاباً: الوحيد المتأنق دائماً بين مرتدي قمصان البولو والمعاطف ذات أغطية الرأس. لقد راقني جانب الحب في علاقتنا كذلك. لكنها كانت عطلة وانتهت."

"أكلاشيه."

"ماذا؟"

"عطلة وانتهت."

"لكن هذه العلاقة كانت غير محتملة بوجود إدنا. لا تعتقد أنها لم تلحظ كوني كنت أقضي الليل في غرفتك. لست أدري لم احتملت. . . ."

"أتدرين؟ حين رحلت إدنا عن إنجلترا فجأة للمرة الأولي، بدأت أعاني آلام الحب الرهيبة. هي لم تخبرنا إلي أين

ذهبت ولم تكتب خلال العام الذي غابته. حين عادت، كان كل ما أخبرتنا أنها سافرت إلي إسرائيل وعاشت في مستوطنة لمدة عام. علمت أنها تملك جواز سفر بريطانياً بالإضافة إلي جوازها المصري. وكأن ذلك مبرراً كافياً لعدم الكتابة لعام كامل. بعد ستة أشهر، غادرت مرة أخرى، لكن إلي جنوب إفريقيا هذه المرة. وضعت المزيد من المال في البنك من أجلنا، ثم رحلت دون أن تخبرنا عن وجهتها. كنت قد سألتها أن تتزوجني قبل أن تحضري أنت إلي لندن مباشرة."

"ثم؟"

"كانت الإجابة بالرفض. لم نحن عاشقان إذاً؟ لم لا تنهي علاقتنا؟ لأنني أحبك. كانت تخبرني بينما الحزن يسكن ملامحها."

"ألم تعد تحبها؟"

لم أجب.

"العديد من الشباب في مثل سنك يحبون أن يثوروا لأي سبب. الكثير من المصريين يفعلون كذلك. أنا أقول أن النظام هنا جيد."

"ماذا تقصدين؟" سألتها بينما صوتي يرتفع قليلاً.

بدت لبرهة متحيرة من نبرة صوتي الحادة.

"أري أن الحكومة جيدة وعادلة. إذا كان لبعض الناس من أمثالك أنت وفونت هذه النزعة المسرحية فسرعان ما يتغلبون علي ذلك."

"يتغلبون علي ذلك؟ هل تعرفين بوبي ملا؟ لقد مات؛ قتل في معسكر تعذيب. هل تعرفين حكيمة محمد زميلتك في المدرسة التي أحدث زواجها من قبطي فضيحة؟ لقد دفن زوجها جسدها المشوه الأسبوع الماضي. ‘‘لقد انتحرت’’ كما أخبروه. هل تعرفين عدد الرجال من أطباء ومهندسين ومحاميين في معسكرات التعذيب؟ أم أنك لا تعلمي أنه لدينا معسكرات تعذيب؟" أخذت أصيح، ثم وقفت. "أيتها البلهاء. يمكنك أن تجلسي هنا في دعة تحفرين اسمك في الجلد المغلف لكتبك بينما مئات البشر المحترمين يسجنون

ويموتون تحت التعذيب وتسمي دفاعنا عنهم نزعة مسرحية. أنت سافلة كالآخرين. أنت وتعليمك ودرجتك العلمية. يا لك من محررة بائسة تعملين في صحافة مكممة، وتكتبين فقط ما يأمرونك بكتابته."

"رام، هل أنت مجنون لتصيح هكذا؟"

"نعم، أنا مجنون. ألم تعلمي أن عشرين رجلاً ‘‘انتحروا’’ هذا الأسبوع في معسكرات التعذيب، وأن طبيب السجن الشجاع رفض أن يوقع شهادات الوفاة؟ ألم تعلمي ذلك؟" استمررت في الصياح.

لم تجيب.

"لأنني أرسلت الصور والوثائق بنفسي لك وللمحريين الآخرين. لم تظهر كلمة واحدة في الصحف عن الموضوع. أيها الجبناء لاعقي مؤخرة السلطة." فقدت السيطرة علي نفسي تماماً. لقد شاهدت الوجوه المحطمة للاثني عشر رجلاً. كان من بينهم شاب هادئ ومسالم كان زميلي في الجامعة. كان ابناً لمزارع من الصعيد، وكان يعيش علي سبعة جنيهات في الشهر يحصل عليها من

العمل ليلاً كحاجب في سينما. كان مثقفاً ماركسياً رفض الاشتراك في الحرب ضد إسرائيل حتى يقابل عبد الناصر بن جوريون في محاولة لحل سلمي للأزمة. ذهب في هدوء، أخبرني جيرانه، ولم يسمع عنه شيئاً حتى رأيت هذه الصورة.

"اخفض صوتك، يا رام."

جلست. كان لطيفاً ومهدئاً أن أستيقظ من النوم وأحتسي الشاي معها.

"أنا أسف، يا ديدي. لم أقصد أن يكون صوتي عالياً هكذا. سأذهب علي أية حال."

"لا. يقفل البستاني البوابة في الليل، ولا أريده أن يراك تغادر غرفتي في هذا الوقت المتأخر."

"أكرر أسفي. منذ دقائق كنت أفكر أن كل مخلوق علي الأرض يجب أن يكون مثلك."

وقفت تشعث شعري بأصابعها. "أنت طفل، يا رام. لكنك تعجبني." ثم جلست علي حجري ووضعت ذراعيها حول رقبتي.

"قبلني كما كنت تفعل."

ابتسمت فقبلت غمازتيها.

"لا أحد لمسني بعدك منذ أن كنا في لندن." كانت عذراء وقتها.

"ما بك، يا رام؟"

"لا شيء."

"لقد ضحكت فجأة."

"كنت أحلم." حكت رأسها في صدري وغطت جسمي بجسمها. أحسست بثقلها؛ مررت يدي علي طول ظهرها. كان جسمها مسترخياً ورطباً.

"جسمك رطب."

"لقد أخذت حماماً."

"لم؟"

"أردت أن أكون منتعشة حين تستيقظ. هل تعجبك غرفة نومي؟"

"نعم."

"وأنا؟"

"وأنت أيضاً. أنت جميلة" همست.

"ضمني بشدة وقل لي كلمات جميلة." خفق قلبها بشدة وتصلب ثدياها الملاصقان لي.

ثم تأتي لحظة بعد ذلك حين تكون عاطفة الرجل قد استهلكت بالكامل فجأة وكل ما يبقي ذلك التباعد وربما الإحساس المغرور بالتفوق. وإذا لم يكن الرجل يحب المرأة، فإنها ستعاني بشدة. يشعر الرجل فجأة بالتعالي تجاه من كانت منذ برهة شريكاً نداً له.

علي الرغم من أن ديدي منفتحة تماماً وتنتمي إلي وسط منفتح كذلك، إلا أن هذا الجانب الهام جداً من حياتها يبقي غير مشبع إلي أن تتزوج. لقد أخذتها بالقوة تقريباً حين كنا في لندن. والآن، هي ترقد في سريرها سكينتها مزعزعة، ويعلو وجهها تعبير ساذج وضعيف.

"أنا أحبك." قالت.

هذا التعالي الذي يشعر به الرجل يجعله قاسياً ومغروراً، كما قلت. وكلما زادت قسوته، زاد ضعف ومعاناة رفيقته.

"أولاً، لا يجب أن تقولي لرجل إنك تحبينه بهذه الطريقة، ذلك يجعله قاسياً. ثانياً، لو كان لديك الشجاعة لتمنحي نفسك لرجل آخر، لكنت أحببته كذلك."

"لا."

"خالتي نعومي تريد تزويجك من ابنها منير."

هزت رأسها.

انقلبت راقداً علي بطني، واضعاً رأسي تحت الوسادة.

"أو، إذا لم تكوني تحبي منير، بإمكانك الزواج مني."

مررت يدها علي ظهري وكتفي.

"لا تسخر مني، يا رام."

"أنا جاد. هل تتزوجيني؟"

"لكن. . . ."

"لكن ماذا؟"

"لكن. . . لكن. . . ."

"لكن، لكن، لكن، لكن." رددت ساخراً. "إذا أحببت أحداً، فلتتزوجيه."

"لكن. . . ."

"لكن."

"لكن، رام، أنت لا تعمل، ولا مال لديك."

"هذا صحيح. هذا ما يجعلك تتزوجين منير."

"بالإضافة إلي . . . ."

"بالإضافة إلي لا شيء. منير لديه مجموعة كتب أحضرها من الولايات المتحدة حول كيفية المضاجعة مع الصور وشرح الأوضاع. لقد رأيتها. ‘‘أفضل خمس دقائق’’. التصميمات مرسومة علي خلفية علي شكل ساعة لها عقرب ثواني. خلال الأربع دقائق الأولي، يثيرك. ثم في دقيقة كاملة، يجني ثمار هذه الإثارة. وبإمكانك دفع وسادة إليه بدلاً منك، إذا لم تكوني ترغبين به. ستذكره الوسادة بأيام التدريب. لقد أراني الكتب: ‘‘أنت بالتأكيد ستحصل علي بعض المعلومات من هذه الكتب، يا فتي.’’"

"وماذا بشأن إدنا؟"

"لقد انتهي ما بيننا."

"بالإضافة إلي. . . ."

"بالإضافة إلي أخرى؟"

"كن جاداً، كيف حصلت علي الصور والوثائق من معسكرات التعذيب؟"

"هذه إحدى هواياتي."

"من فونت؟"

"فونت؟ فونت؟ هل تستطيعين تخيل هذه الأشياء في يد فونت؟ لكان انطلق في الشارع واضعاً نسخة في يد كل من يقابله. وقبل أن يطلقوا النار عليه، كان ليجن. لا، دعي فونت في جنة البلياردو بعيداً عن الأذى."

"هل أنت عضو في الحزب الشيوعي؟"

"لا يوجد شيء بهذا الاسم، أؤكد لك. هم، مع كل الليبراليين والديمقراطيين الاجتماعيين ودعاة السلام والمثاليين، منفيون علي شواطئ البحر الأحمر. لدينا

ضباط مخابرات سابقين ألمانيين ممن يعرفون ماذا يفعلون بشأن أناس كهؤلاء."

"صارحني بالحقيقة، يا رام."

"قلت لك، هي هواية أمارسها. أنت تعرفينني أفضل من أن تظني أنني قد أضحي براحتي أو حياتي من أجل أي شيء."

"لكنك لا تحبني، يا رام. فلم ترغب في الزواج؟"

جذبتها ناحيتي وقبلتها. "ينبغي علي أن أحبك. كان هناك أوقات حين كنا في لندن كنت فيها متيماً بحبك. أنت جميلة للغاية. أريد أن أعيش معك في منزل جميل تحيطنا الكتب الجميلة المغلفة بالجلد، أن آخذك كل مساء إلي أجمل الأمكنة، أن نذهب ليلاً إلي الصحراء بسيارتنا، وأن نشتري أجمل الملابس والحلي والعطور. . . ." ثم ضحكت رغماً عني_عادة الضحك المفاجأ الغبية تلك_ "كل هذا بأموالك طبعاً، فأنت ثرية للغاية."

"إذاً أنت تمزح؟"

"لا. كنت لأمزح لو لم أذكر مالك. أنت لا تعتقدي أنني كنت لأسألك الزواج مني لو لم تكوني ثرية؟ كيف لنا أن نعيش إذاً؟ بالتأكيد لأنك ثرية، أنا جاد." ضممتها إلي أكثر، وحين ابتدأت في الكلام مجدداً، غطيت فمها بفمي. استلقينا في صمت لبعض الوقت، حتى تحركت عاطفتي من جديد. "أريدك أن تغمري بيتنا بالسكينة والسلام، حتى نسير في الأنحاء مترنمين، كلانا."

"طالما أحببتك." قالت.

"أنا من سيتزوج ديدي، لا منير." أخبرت أمي.

"لكن، كل شيء جاهز. كل شيء جاهز." ابتدأت أمي بالفرنسية.

"أنا وديدي سنتزوج."

"أنت تمزح. لا يمكن."

"أنا لا امزح. إلا إذا كنت تريدين مني أن أتركها لمنير."

"أنا لا أصدق."

"إنها الحقيقة. لقد خطبنا في لندن." كذبت.

"لكن، ماذا ستقول خالتك؟"

"سأخبرك حين أراها اليوم."

"أين؟"

"ديدي سوف تذهب بصحبتهم إلي كيركا، وأنا سوف أقابلهم هناك."

"لكنها رتبت كل شيء."

"ماذا؟"

"الفيلا الجديدة في مصر الجديدة، و نكلا باشا كان مسروراً. . . ."

"ماذا عن ديدي؟"

"لم تعط رداً صريحاً. أقسم أنها لم تقل أبدا أنها مخطوبة لك، أو لأي كان. كل ما قالت أنها سوف تفكر في الأمر. ونحن ظننا. . . ."

"أم أنك لا تريدين أن يتزوج ابنك من ديدي؟ تلك الفتاة الساحرة، المليونيرة؟ بالطبع أنا لن أتزوج ضد رغبتك."

كان الموقف أكثر مما تحتمل، فأخرجت منديلها ومسحت عينيها.

"اشتري لها هدية ثمينة." قالت أمي بعدة برهة. "أخبرهم أن يرسلوا الفاتورة إلي هنا، لا إلي خالتك."

"هذه الإدنا كانت كبيرة عليك، علي أية حال." أضافت.

هذا المحل. حين تدخله، تتبادر إلي ذهنك صورة ملعب الكروكيه في النادي. هو من نوع المحلات التي لها نافذة عرض بطول ميل لكنها تحتوي فقط علي قبعة سوداء ووردة.

كان جاستون يتمشي في البهو واضعاً يديه خلف ظهره. كان جاستون رئيس الندل في المناسبات. وهو واحد من أولئك الذين تدعوهم جاستون علي الرغم من إحساسك أنه خليط من دماء مالطية وإيطالية و يونانية وربما شرق أوروبية كذلك. تقدم نحوي.

"بونجور، مسيو. العائلة في الطابق الأعلى. هل لي أن أهنئك علي خطوبة ابن خالتك؟"

"أجل." كما قلت، جاستون خليط من عدة أعراق، لكنه وأبويه ولدوا في مصر. لكنه لا ينطق بكلمة عربية. هذا

المحل سوف ‘‘يؤمم’’. أضع كلمة يؤمم بين علامتي تنصيص لأنني لا أري أن التأميم هنا يأتي بأية منفعة اقتصادية عدا عن تسمين الجيش. لكن التأميم سيكون ذا فائدة في حالة جاستون لأنه سوف يجعله يقلع عن استخدام الكلمة العربية الوحيدة التي يعرفها والتي كان مسموحاً له باستخدامها مع خمسة وتسعين بالمائة من الشعب المصري: ‘‘أمشي’’. أتذكر حين أممت قناة السويس وحين استشاط حملة الأسهم والأجانب غضباً. كان تأميم القناة خطوة عظيمة، خاصة في نظر أولئك الذين يعرفون ما كان عليه الحال في النادي الفرنسي في بور فؤاد حيث كان الفرنسيون الذين يأتون إلي بلادنا يحصلون علي وظائف سهلة ويتعالون علي الجميع. حتى البريطانيون المتحمسون لبلادهم، الذين يأتون برفقة شابات مهتمات بالخيل وخن حمقي من خريجي المدارس العامة، لا يبدون سيئين كالبرجوازيين الفرنسيين. فشركة قناة السويس تلك كانت نعيماً للفرنسيين عديمي النفع ذوي الوساطة الذين يجلسون طيلة اليوم لا يقومون بأي عمل.

أوقفنا ذات مرة أنا وفونت سيارتنا الصغيرة التي كنا قد استخدمناها في رمي بعض القنابل الصغيرة علي معسكر إنجليزي في السويس أمام النادي الفرنسي ودخلنا لنشرب كأساً من الويسكي.

"أنتما أيها القذرين. . . ." صاح فرنسي وأشار إلي الخارج.

"فلتذهب إلي الجحيم." قال له فونت. ذهبنا إلي البار وطلبنا كأسين من الويسكي.

"لا." قال النادل. فجأة اتجه نحونا خمسة فرنسيين يحملون عصي خشبية سميكة طاردونا بها حتى الخارج. وبينما كنا نتشاجر معهم علي شرفة النادي، أخذت مجموعة أخرى سيارتنا الفيات الصغيرة وألقوها علي الشاطئ. ثم حين حضرت الشرطة، أخذتنا نحن. أقول لكم، حين أممت القناة أردنا أنا وفونت تقبيل أقدام البكباشي من فرط الإعجاب.

لنعد إلي هذا المحل. قادني جاستون إلي المصعد فوفر علي بذلك صعود حوالي ثماني درجات. هذا المحل. الناس

دائماً يذهبون إليه كنوع من المقبلات. أقصد أنهم لا يذهبون إلي هناك لشراء شيء محدد أو لأنهم بحاجة إلي شيء محدد، لا. يتناولون القهوة مع المدير، ويتحدثون عن باريس وروما ونيويورك، ويتذكرون بودبست في الأيام الخوالي، ويتساءلون عما حل بالكونتيسة أوزبينسكي. . . كم كانت رائعة، هذه النينا. ثم يقول لهم لويجي، المدير، "لقد كانت ملكة."، فيهزون رؤوسهم بحزن، ويتساءلون عما يحدث في العالم. وأخيراً يتذكرون أنه حتى معهم لم تعد الأمور كما كانت عليه. فالسفر أصبح صعباً، يا لويجي. وحتى حين يتمكنون من السفر، يجدوا صعوبة في ترتيب الأمور بحيث يجدون نقوداً كافية بانتظارهم في الخارج. ليس فقط بودبست وبراج، يا عزيزي. ثم يهزون جميعاً رؤوسهم بمعرفة. ثم تخبرهم سوسو عن تاتا الماهرة التي ترسل سبعين جنيهاً شهرياً لابن وهمي يدرس في سويسرا حتى تتمكن من قضاء عدة أسابيع في الخارج كل عام. يضحك لويجي ويضع إصبعه أمام فمه، ويخبرهم أن يتوخوا الحذر. . . فالمرء لا يعرف. ثم فجأة يتذكر شيئاً

ما. "هل أخبرتكم؟ لدي أربع قطع ديور جديدة لم تفتح بعد." "مستحيل. أرنا إياها، يا لويجي. لا تكن شريراً." "نعم، نعم. لكن ليس اليوم." "أف، لويجي، لا تكن كريهاً. سنلقي عليهم نظرة فقط." ثم يتشاجرون علي الأثواب فيما بينهن. ثم حين يريهم لويجي الأحذية التي جاءته مؤخراً من إيطاليا، يشتروا لهن وللعائلة بأكملها أحذية إيطالية تعيش خمس سنوات. بعد ساعة أو نحو ذلك يأمر لويجي بلف الأمتعة التي تساوي ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه التي باعها لتوه. ثم يتصل بمدام عبد الله المعروفة بفيفي ويقول لها: "ألم أخبرك عن الأشياء التي وصلتني للتو من فيينا؟"

خرجت من المصعد، ووقفت واضعاً يدي في جيبي. نظرت حولي فرأيت خالتي. كانت تدير شئون البلاط. أعرف ذلك جيداً. فقد كانت أحياناً تجمع العائلة، كل العائلة من فقراء وأغنياء وقساوسة وكتبة وفتيات فقيرات يدخرن لأجل جهازهن وأقارب من بعيد وعمات وأعمام، في فيلاتها وتدير شئونهم.

"والآن، يا سامية. أريدك أن تتزوجي فتحي. هل تسمعني، يا فتحي؟"

"نعم، يا خالتي."

"الشهر القادم. لا أريد سماع كلام فارغ بعد الآن. السن لا يهم. المهم أن وظيفته جيدة." وقد يكون هذا الفتحي أكبر من المسكينة بنحو عشرين عاماً.

"نعم، يا خالتي." ثم تعطي سامية دستة من قمصان منير لتشغل عليها حرفي اسمه كتعويض عن إرغامها علي الزواج من فتحي البشع المظهر.

"نعم، يا خالتي. شكراً، يا خالتي. شكراً."

"عزيز، عليك أن تبقي في وظيفتك. إذا سمعت مرة أخرى أنك وصلت إلي وظيفتك متأخراً أو ثملاً، سوف لن تدخل هذا المنزل مجدداً. أتسمع؟"

"نعم، يا خالتي."

"وأنت، يا أمين. الكنيسة في حالة مزرية، يجب أن ترفع سعر الخبز المقدس. أنا لست مؤسسة خيرية، لأدفع ثمن كل شيء. لو لم ترفع سعر الخبز المقدس، أنا سوف

أتحدث إلي البطريرك. هذا نهائي. وشيء أخر، ضع بريزتين أو ثلاثة في طبق الهبات قبل أن تمرره."

"نعم، يا خالتي."

حين ترتب أمور كل هؤلاء، تتحول إلي أمي وتتحدث بالفرنسية.

"لابد أن تبيعي السيارة، يا فيفي."

"سأري." تقول أمي.

أما الآن، فهي تحتل أريكة ضخمة في المحل. كانت ابنة خالتي، مادو، علي وشك الزواج، ورافقتها خالتي للتأكد من شرائها الأشياء المناسبة.

"هراء. أنت سوف ترمينها في نهاية الأسبوع. ارني الحرير الصيني مجدداً، يا لويجي." يهرع لويجي لينفذ طلبها. "لا. لا. قلت لا. وهذا يعني لا، يا مادو." ابنة خالتي، مادو، علي قدر ثراء خالتي، لكنها لا تملك الشجاعة لمجابهتها.

لخالتي عينين واسعتين ناتئتين ككرتين معلقتين تحت حاجبيها. رأيتهما يلمحاني بطرفيهما لجزء من الثانية، ثم

يعودان إلي التركيز علي الملابس التي كانت ماري تحملهم أمامها.

هززت نفسي وجلست علي بعد حوالي عشرة ياردات منهم. أومأ لي لويجي، فأومأت له. سمعته يأمر شاباً أن يحضر لي قهوة. كانت ديدي نكلا تجلس علي أريكة مقابلة لتلك التي تحتلها خالتي، وإلي جانبها جلس منير. كانت تنظر نحوي بين الفينة والأخرى. حضرت قهوتي ووضعت علي منضدة أثرية إلي جانبي. أشعلت سيجارة. أخذت أفكر في زوج إدنا وأتساءل بتراخ عن شكله، حين أحسست بالناس المحيطين بخالتي يتحركون قليلاً. كانت تغادر مجلسها لتقف مستندة علي كتف خدوم. تنثني إلي جانب لتجذب مشدها إلي الأسفل من هذا الجانب، ثم تنثني إلي الجانب الأخر لتشده من الناحية الأخرى. تقطيبة سريعة، ثم ها هي مستعدة للمشي. اتجهت نحوي بخطي غير ثابتة. وأخذت تبحث عن شيء في حقيبة يدها، وأخرجت منديلها وتمخطت، ثم جلست إلي جواري بهدوء.

"أعطني واحدة من سجائرك المصرية، فسجائر منير الأمريكية قوية علي."

أعطيتها واحدة من سجائري وأشعلتها لها. أشارت بالابتعاد إلي بعض الأقارب الذين اقتربوا ليستمعوا إلي المحادثة.

"ما هذا الذي أسمعه عنك وديدي نكلا؟"

"نحن سنتزوج."

"إذاً، إذاً." قالت.

"إذاً، إذاً." رددت.

"ليس هناك معني لوقاحتك أو غطرستك."

"أنا أسف." قلت مكتئباً وبائساً.

"وكيف ستعيل زوجتك؟"

"هي ثرية بما فيه الكفاية."

"آها. فالمال ما يجذبك."

"المال جذاب."

"آها."

أطفأت سيجارتي، وطويت ذراعي.

"وأمك؟"

"ماذا عن أمي؟"

"كيف ستعيش؟"

"ماذا تقصدين؟"

"أبوك خسر كل أمواله في البورصة، وأنا من يعيل أمك_ ناهينا عنك. ليس هناك مجال لاستمراري في إعالتها، لو لم تتزوج ديدي من منير."

"ديدي لديها من المال ما يكفي."

"وهل أخبرت ديدي بذلك؟"

"سأفعل." تنهدت.

"آها." أخرجت منديلها وتمخطت ثانية.

"إلي ما وصلت في دراستك حين كنت في لندن؟"

"لم تسألين؟"

"أجب فقط."

"أستطيع أن أحصل علي درجة حالما أريد."

"إذاً،إذاً."

"أجل."

"هذه أخر فرصة لك، يا رام. أنا لن أعرض عليك ذلك مجدداً. بإمكانك أن تذهب إلي كوك أو أية وكالة سفر وتحجز تذكرة طائرة أو سفينة إلي لندن أو أي مكان تريده. سأدفع تكاليف أربع سنين أخري من دراستك. ستحصل علي مصروف شهري مناسب، كما بإمكانك شراء سيارة صغيرة. هاك. لا تختبر صبري وكرمي أكثر من ذلك."

"أشكرك. لكنني سأتزوج ديدي نكلا علي أية حال."

"إذاً، إذاً."

"إذاً، إذاً." رددت.

أومأت إلي منير الذي جاء ماداً يده لمصافحتي.

"احتجت تجفيفاً، يا ابن الخالة. لكني، لا أحمل ضغينة."

"شكراً. لقد كان حادثاً." صافحته.

"شربنا كثيراً، علي ما أعتقد."

"أجل."

"من الممتع وجود امرأتين جميلتين في منزلك، يا رجل."

"نعم."

"ك تسأل عنك."

"من ك؟"

"كارولين."

"آه."

"رام، ما رأيك في السفر إلي الولايات لفترة؟"

"لا. شكراً، يا منير."

"لا تقلق. أنا متكفل بكل شيء." ربت علي الجيب الذي يحوي حافظة نقوده.

"شكراً لك."

"اسمع، أنا سوف أتحدث إليك رجل لرجل."

"وهو كذلك." تركنا والدته، وجلسنا علي أريكة أخرى.

"أعتقد أني متيم بديدي. كما أني تفاجأت تماماً، يا فتي، حين سمعت عن علاقتكما. ثم قلت لنفسي: هذا الفتي، رام، يعتبرها صفقة رابحة، فأبوه خسر كل أمواله في البورصة. لكني قلت لنفسي ما كنت تفعل لو كنت مكانه، يا منير؟ أتعرف، يا فتي؟ كنت أفعل كما فعلته أنت بالضبط." ربت علي كتفي. "ستعيش في مستوي راقي، يا

فتي، سيارة ومال. ديدي فتاة ممتازة. انظر إلي هذه المنحنيات." أشار غامزاً. "لدي عرض. . . ."

"منير، ديدي نكلا جالسة هناك. إذا أرادت أن تتزوجك، فلتتزوجك. إذا أرادت أن تتزوجني، فلتتزوجني. هذا كل ما في الأمر."

"أنا تكلمت معها بالتأكيد."

"وماذا قالت؟"

"حسناً. . . ."

"هل أخبرتها أنني أريد أن أتزوجها لأموالها؟"

"أعتقد أني فعلت، يا ابن الخالة."

"وماذا قالت؟"

"لا شيء."

"حسناً، سأذهب لأتحدث إليها بنفسي."

كانت تجلس بمفردها في زاوية ما.

"ديدي، لقد سئمت كل هذا. تعرفين أنهم يحاولون رشوتي. لقد أخبرتك قبل ذلك أنني ما كنت لأسألك أن

تتزوجيني لو كنت فقيرة. لكني نسيت أن أخبرك أنك ستضطرين إلي الإنفاق علي أمي كذلك."

"أعرف، يا رام. لقد أخبروني."

"ثم؟"

"لا أهتم."

جلست إلي جوارها. هذا بسبب الجنس، الفتاة المسكينة. كنت أنا رجلها الوحيد، ويرنو جسدها إلي. أدركت ذلك. كما أدركت أنها قد تحتقرني فيما بعد. أخبرتها ذلك.

"لا. أريد أن أعيش معك. أنا فقط قلقة بسبب إدنا وهذا الشيء الأخر."

"إدنا متزوجة." أخبرتها.

"حقاً؟"

"أجل، يا ديدي."

"وماذا بشأن هذا الشيء الأخر؟"

"ما الشيء الأخر؟"

"العمل السياسي. إنه خطر جداً، يا رام. أنا قلقة جداً عليك."

"سأتركه."

"أحبك بشدة."

وقفت وجذبتها لتقف معي. "لو كنت تحبينني، قبليني أمامهم جميعاً." أغمضت عينيها وتقدمت إلي ذراعي. تبادلنا القبلة، ومشينا يداً بيد إلي السلالم.

"هل ستأتي معي المنزل الآن؟"

"لا. لا أستطيع. سوف. . . . يجب أن أذهب لأخبر هذه المنظمة السياسية أنني ما عدت أعمل معها. سآتي غداً، وسوف نقضي اليوم كله معاً. قبلتها مجدداً قبل أن أضعها في سيارتها. لوحت لي وقذفت قبلة في الهواء قبل أن تقلع بسيارتها.

ذهبت إلي بار ميراندي مرة أخري وتوجهت إلي حيث التليفون. طلبت رقماً، فرد صوت أجش: "ألو، ألو."

"عصام، أيها الكلب القذر. أنا لم أحظ بمباراة بوكر جيدة منذ أشهر. ماذا؟ نعم، نعم. لدي الكثير. جيد. أحضرهم وقابلني في جروبي."

وذهبت إلي جروبي.